تحقيق النص الشعري القديم تحقيقاً علمياً

أساس للقراءة الصّحيحة

حاتم صالح الضّامن
جامعة الملك سعود – الرياض

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه النبي العربي الأمين .

وبعدُ ؛ فتحقيق النصوص الشعرية القديمة تحقيقاً علمياً له أثر كبير في القراءة الصحيحة ، ولا يمكن أن نحلّل نصاً قديماً ما لم يكن محققاً تحقيقاً علمياً جيداً، فالتحليل الخطأ يكون مبنياً على التحقيق الخطأ للنص الشعري .

وخلال ثلاثين سنة وقفت على مناهج كثيرة في تحقيق النص الشعري فضلاً عن النصوص اللغوية والنحوية ، ورأيت ، خدمة للباحثين أن أضع بين أيديهم خلاصة هذه المناهج ، وما فيها من تباين ، في جملة أمور ، مع أمثلة قليلة لكل منها .

ولست أقصد بذكر هذه الملاحظات والمآخذ التي تؤدي إلى القراءة غير الصحيحة، إلى الغض من قيمة الجهد أو إلى الطعن في مكانة المحققين والناشرين للنصوص الشعرية أو الكتب التراثية التي ضمت أشعاراً قُرئت على غير الوجه الصحيح ، ونتج عن هذا تحليلٌ غير صحيح، ومعنى مغاير لما أراده الشاعر ، وإنما ، والله شاهد على ما أقول ، أتوخى في ذلك كله إصلاح الخلل ، ولفت النظر إلى أهمية التحقيق العلمي الذي يقود إلى الفهم الصحيح، فهو أساس للقراءة الصّحيحة . ورحم الله تعالى أبا حفص عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الذي قال : رحم الله من أهدى إليّ عيوبي . ولكن قسماً من الناشرين ركبهم الغرور، وآفة العلم الغرور، فلم يُرحبوا بما يقدمة النقد إليهم من توجيه وتقويم .

وهذه الأمور هي :

١ – فهم النص هو الطريق إلى تحقيقه على الوجه الأمثل، وعند غياب فهم النص يصعبُ التمييز بين الصّحيح وغير الصّحيح، ويؤدي هذا إلى الشرح غير الصحيح الذي ينبني على القراءة غير الصحيحة .

– جاء في حاشية ابن بري على المعرَّب ٩٤ :

قال ابن بريّ : هو لأبي محمد الفقعسي ، وصدره :

مِـن ناقص الرّيح رُوَيْزِيّ شَمَلْ

خُرَيِّقاً .... إذا غُسِلْ

واجتهد المحقّقُ فشرحَ في الحاشيتين ١٦، ١٧ كلمة (ناقص)، وكلمة (الخُرَيِّق)، وقال عن موضع النقاط : كلمة لم أتبينها .

وأقول : صوابُ قراءة البيتين :

مِـن نافضِ الرّيح رُوَيْزِيّ سَمَلْ

حوضاً كـانْ ماءَهُ إذا عَسَـلْ

فرويزيّ : ثوب منسوب إلى الرّيّ . وسَمَل : خَلَق . وعَسَل : اضطرب . ولو أجهد المحقّق نفسه لوقف على البيتين في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٣١٥، والمخصص ٩٣/٤، واللسان (عسل) .

– وجاء في الشعر والشعراء ٥٦١ :

يقولون لي إنْكَهْ شربت مُدامـةً

فقلت لهم لا بلْ أكلْتُ سَفَرْجَلا

فعلّق المحقق على هذا البيت :

(إنكه : أصلها «إنك» فخفّف «إنّ» المشددة . وفي اللسان ١٧١/١٦ عن اللّيث : «وللعرب لغتان في إنّ المشدّدة : إحداهما للتثقيل، والأخرى للتخفيف، فأما مَنْ خَفّفَ فإنّه يرفع بها، إلا أن ناساً من أهل الحجاز يخفّفون وينصبون، على توهم الثقيلة . وفيه عن الفرّاء : لم نسمع العرب تخفّف إنّ وتعملها إلا مع المكنى، لأنه لا يتبيّن فيه إعراب، فأما في الظاهر فلا ، ولكن إذا خفّفوها «رفعوا» . وهنا خفّفها مع الضّمير ثم ألحق به هاء السّكت) .

والصواب : أنّ (انْكَهْ) فعل أمرٍ من نَكَهَ يَنْكِه ، أي أخرج نَفَسَهُ إلى أنفي . والبيت في اللسان (نكه) .

– وجاء في التعليقات والنّوادر ٢٨٩/١ (طبعة بغداد):

وهل كانَ يحمي خَيْلُهُ جَوْزَة الحمى

وهلْ كان جشّام الحروب الحواسْم

وفسّر المحقق جوزة : السّقية الواحدة (انظر اللسان : جوز) .

وصواب صدر البيت :

وهل كان تحمي خَيْلُهُ حَوْزَة الحمى

جاء في الحديث : (وحَمَى حَوْزة الإسلام) ، أيْ : حدوده ونواحيه .

– وجاء في مستدرك شعر الأحوص ٨ :

سُهُـوبٌ وأعـلامٌ كأن سَراجها

إذا استنّ يُغْشيها الملاء المعضّدا

والصواب :

.... كأنّ سَرابها

وكذا جاءت في مخطوطة منتهى الطلب .

– وجاء في شعر عُروة بن أذينة ٨٠ – ٨١ :

نَقَذَ المهـا العيـنِ كلّما ذُكِرَتْ

بالدَّمعِ حتى يفيـضَ أسْجَمُها

وعلّق المحقّق : (بالأصل و (ق) : نقد ، ولعلها (نقد) بالدال المهملة . نقد : بمعنى نظر، وما زال ينقد بصره إلى الشيء، إذا لم يزل ينظر إليه . والنقذ ، بالذال، والنقيذ والنقيذة : ما استنقذ وهو فعل بمعنى مفعول . وخيل نقائذ : أي تنقذت من أيدي الناس أو العدو ، واحدها نقيذ بغير هاء . المها : بالفتح جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . العين : الواسعة العيون) .

وصواب قراءة صدر البيت كما قرأها الشيخ محمود محمد شاكر :

تَقْذَى لها العَيْنُ كلّما ذُكِرت

من قَذِيت العَيْنُ تَقْذَى قذًى ، إذا صار فيها القَذَى .

٢ – إن تحقيق النصوص الشعرية القديمة يرتكز على دعامة عدم التصرف بها، والأمانة العلمية تقتضي ذلك .

– جاء في التعليقات والنوادر ١٠٠/١ :

فهيهات أيام الصِّبا قد تركتني

كعُصْلِ المرامي ما بهنّ سدودُ

فعلق المحقق في (أ) ، (ب) : (فأيهات ، وهو تحريف) .

وما في الأصلين صحيح وليس بتحريف ، فقد تبدل الهاء همزة ، فيُقال : أيهات ، مثل : هَراقَ وأراق . وقال ابن سيده : وعندي أنّهما لغتان .

– وجاء في عيار الشعر ٦٠ (طبعة الإسكندرية) :

واختار أدرعه أنْ لا يُسَبَّ بها

ولم يكـن عهـده فيها له بختّار

وصواب البيت :

واختار أدراعَه أن لا يُسَبَّ بها

ولم يكـن عَهْدُهُ فيهـــا بختّارِ

فجعل أدراعه : أدرعه . وزاد (له) في عجز البيت ، ولا يستقيم بها الوزن .

– وجاء في عيار الشعر أيضاً ٧٧ :

وباتوا بالصّعيـد لهم أحاحٌ

ولـو خَفّـتْ لنا الكَلْمَى سلَينا

وفي المخطوط : سَرَيْنا ، وكذا في حماسة البحتري ٤٨ ، ولكنّه غيرها إلى سلينا . (ينظر : عيار الشعر ١٠٣، تحقيق : عبدالعزيز المانع) .

– وجاء في رايات المبرزين وغايات المميزين ٧٧ :

وإذا نظـرت إلى محاسن وجهه

أبصرت وجهك في ثناه غَرِيقا

وفي أصل المخطوطة ، وشعر ابن عبد ربه ٦٣ : في سناه ، ولكنّ المحقق غيّرها فجعلها : في ثناه .

٣ – ثمة آفتان لهما أثر كبير في صحة قراءة النّصّ الشّعري، وهما **التصحيف والتّحريف** . وتصحيح ما يقع منهما في الشعر أيسر منه في النثر، لما في الوزن من مُرشد ومُعين .

– جاء في ديوان خالد الكاتب ١٨٣ :

كُــلٌ مـــن مَلّكَ عبــداً

أظْهَــرَ التِّيــهَ قصْــدا

وصواب قراءته :

كُــلُّ مَـــن مَلَّكَ عـبداً

أظْهَــرَ التِّيــهَ قَصْــدًا

- وجاء في التعليقات والنوادر ٢/١١٥ :

عرفت لسلمى رسم دار وملعب
عفته السّوافي من شمالٍ وأرْنَبِ

والصواب :

.... وأزْيَبِ

وهي ريح الجنوب ، وقيل : النكباء .

- وجاء في حاشية ابن برّيّ على المعرَّب ٩١ :

وقال عمارة : موفَرٌ من بَفْرِ الرساتِقِ

والصواب : موقَرٌ ، بالقاف . يُقال : وَقْرُ الدّابة ، أيْ : صلبُها ومرنُها .

والقراءات المُصَحّفة والمُحرفة في كتب التّراث انتقلت إلى الدواوين المصنوعة حديثاً على عِلاتها ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- جاء في رسوم دار الخلافة ٦٤ :

ضممتَ على أبناءِ تَغْلبَ ثأيَهـا
فتَغْلِبُ ما كَـرَّ الجديـدانِ تُغْلَـبُ

والصواب :

ضممت على أبناء تغلب تاءهـا

والمعنى : بانتصارك على أبناء تغلب ضممت حرف التاء في (تَغْلِب) فصارت (تُغْلَب) دائماً . (ينظر : ألوان من التصحيف والتحريف ٢١) .

وهذه القراءة المحرفة أوقعت محقق ديوان الصاحب ابن عباد في الخطأ نفسه ، إذا نقله عن رسوم دار الخلافة في ديوان الصاحب ١٩١ .

- وجاء في عيار الشعر ١٢٧ - ١٢٨ (طبعة الإسكندرية) :

وكـلُّ هـوًى دانَ عنّـي زماناً
له مـن بعـدِ مَنْعَتِهِ تَجَلّـي
كأني لم أكـنْ مـن بعدِ ألْفِ
عذلتُ النّفسَ قبلُ على هوًى لي

وصواب قراءة البيتين :

وكلُّ هـوًى وإنْ عَنّـى زماناً
....
كأنـي لـم أكُـنْ من بعد إلْفِ
....

وهذه القراءة المحرّفة أوقعت محقق شعر عروة بن أذينة ، فنقل البيتين عن عيار الشعر في شعر عروة ٣٥٣ - ٣٥٤ . (ينظر : عيار الشعر بتحقيق : عبدالعزيز المانع ص١٨١) .

- وجاء في ثمار القلوب ٢٢٥ :

وممنْ ضَربَ المثل بطبعه السلامي حيث قال :

وأعطيت طبع البُحتري وشعره
فمن لي بمال البحتري وغَمْرِهِ

فجاء بكلمة (غمره) بالغين المعجمة المفتوحة، وصوابها: عُمْرِه، بالعين المهملة المضمومة .

ونقله جامع شعر السلاميّ ٧٣ مُصَحَّفاً عن ثمار القلوب . وجاء البيت بلا تصحيف في يتيمة الدّهر ٢/٤٣٠.

٤ - ينبغي لمن يحقق ديواناً شعرياً أن يكون على معرفة بالعروض ليقف على الخلل ويُقومه ، لأن العروض ميزان الشّعر ، وبها يُعرف صحيحه من مكسوره .

- جاء في ديوان الخالديين ٥٧ :

رُبّ ليل فضحتـه بضيـاء الرّ
اح حتـى تركتـه كالنّـهارِ
ذي سمـاءٍ كخَزّامٍ ونجومٍ
مُشرقـاتٍ كنرجس وبَهـارِ

ففي صدر الثاني خلل لاختلاف وزنه، فالبيتان من الخفيف ، وصدر الثاني من الرَّمل، لوقوع تحريف في كلمة (كخَزّام)، وصوابها : (كخُرْمٍ) ، وبها يستقيم الوزن . وجاء البيت صحيحاً في يتيمة الدهر ٢/١٩٤. وقد أشار المحقق إلى رواية (كخُرّم) في الحاشية من غير أن ينتبه إلى صحتها وحاجة الوزن المضطرب إليها .

- وجاء في ديوان خالد الكاتب ٤٠٢ :

لا أشتكـي السُّقْـمَ وإنْ
كسَـوْتَ جسمـي سَقَما
اكـتمُ حُبَّـكَ فيـا
بـي الدّمـعُ أن يَتَكَتّما

ففي عجز البيت خلل فهو من (مجزوء الكامل) ، وبحر المقطوعة (مجزوء الرَّجَز)، والصواب : **يَنْكُتما** .

– وجاء في ديوان أبي النَّجم العجلي ١١٢ :

وأتَتِ النَّمْلُ القُرَى على بَعِيرِها

من حَسَكِ التَّلْعِ ومن خافورِها

وفي البيت الأول خللٌ واضح أفسد المعنى ، وصواب قراءته :

وأتَتِ النَّمْلُ القُرَى بِعِيرِها

والعِيرُ : الإبل بأحمالها . وقيل : هي قافلة الحمير، وكثرت حتى سُميت بها كل قافلة، فكل قافلة عِيرٌ .

وجاء الرَّجَزُ بلا خَلل في النبات لأبي حنيفة ٢٠٦، واللسان (عير).

٥ – ضرورة الرجوع إلى الدواوين المحققة والمجموعات الشعرية في تخريج الأشعار التي تأتي في كتب التراث المحققة، لتوثيقها وللوقوف على الرِّوايات الصحيحة لهذه الأشعار ، وتجنُّب ما يصيبها من تصحيف وتحريف .

– جاء بيت الأخطل في عيار الشعر ١١٠ :

فإنْ لـم تُغَيـِّرْها قُريشٌ بُملكِها

يكن عن قُريشٍ مُسْتَمازٌ ومَرْحَلُ

ولو رجع المحقق إلى ديوان الأخطل ١١ (صالحاني)، و ٣٣/١ (قباوة) لعلم أنه قد صحف في مَرْحَل ، وصوابها : مَزْحَل، بالزاي . والمزحلُ : المَذهب والمُتَنَحَّى .

– وجاء في قطب السّرور ٩٨ لمسلم بن الوليد :

وكـنتُ نديمَ الكاسِ حتى إذا طَفَتْ

تعـوَّضتُ منها ريقَ أحـور عَيْطَلِ

نهاني عنها حُبُّهـــا أن أسومَها

بلمســي فلـم أفتكْ ولـم أتبتلِ

ففي البيت الأول : أحور ، والصواب : **حوراء** .

وفي البيت الثاني : بلمسي ، والصواب : **بلمسٍ** .

ولو رجع إلى ديوان مسلم ١٤٢، لوقف على القراءة الصَّحيحة .

– وجاء في قطب السّرور أيضاً ٦١٤ لابن المعتز :

في خَـدِّهِ عقـاربٌ لا تَسْـري

مِـن سُبَـجٍ قد قُيِّـدَتْ بعطرِ

وصواب قراءة البيت الثاني : من سَبَجٍ ... ، بالجيم، وهو حجر أسود حالك صقيل ، قد كَنَّى الشاعر عن العذار بعقارب من سَبَجٍ لسواد الشَّعر .

ولو رجع المحقق إلى ديوان ابن المعتز بطبعاته المختلفة بمصر وبيروت وإستانبول لما وقع في هذا التصحيف . وينظر شعره (بغداد) ١٢٨/٢ .

وجاء في حاشية ابن بَرّيّ على المعرب ١٢٢ :

قال ابن أحمر :

لو كنتُ بالطَّبَسَيْنِ أو بالألة

أو بَرْبَعِيصَ مع الجنانِ الأسودِ

وعلق المحقق في الحاشية ١٩ : لم أهتد إلى البيت الشاهد .

أقول : صواب صدر البيت :

لو كنتُ بالطَّبَسَيْنِ أو بأُلالَةٍ

وأُلالَة : موضع بالشّام . (معجم ما استعجم ١٨٦، ومعجم البلدان ٢٤٣/١) .

ولو رجع المحقق إلى شعر عمرو بن أحمر ٥٥ ، لاهتدى إلى الصواب .

٦ – ثمّة محققون يتعجّلون في نشر كتب التراث ودواوين الشعر العربي، وإذا بها تزخر بالأخطاء ، وفي **الصبر والتأني في قراءة النصّ ومراجعة مظانّه** السلامةُ من ذلك .

– جاء في شعر الأحوص ١٠٨ (طبعة العراق) :

أمِـنْ عِرفـان آيـاتٍ ودُورِ

تلـوحُ بذي المُسهُرِ كالسُّطـورِ

وعلّق المحقق : عرفان : لم أجد موضعاً بهذا الاسم . وفاته أنه من الفعل : عَرَفَ عِرفاناً . وخرّج البيت من معجم ما استعجم ، ولم يذكر رقم الصفحة . والبيت فيه ١٢٢٩ (ذو المسهر) .

– وجاء في شعر الأحوص أيضاً ٢٠٨ و ٢٨٣ :

جاء في تاريخ الخلفاء ٢٣٩ قوله :

وتزيدينَ أطيبَ الطيبِ طيباً
أن تَمَسّيه أين مثلك أينا
وإذا الدرُّ زانَ حُسْنَ وجوهٍ
كان للدرِّ حُسْنُ وجهك زينا

والبيتان في تاريخ الخلفاء لمالك بن أسماء ، فتأمل !!

ونُسبا إلى مالك في مصادر أخر (ينظر : شعر الأحوص الأنصاري بتحقيق عادل سليمان ٢٢٥ من الطبعة الأولى، و ٢٧٩ من الطبعة الثانية) . وانفرد بنسبتهما إلى الأحوص العاملي في المخلاة ٥٧٣، وهو وهم منه .

– وجاء في حاشية ابن بري على المعرَّب ٨٠ : قال ابن بري : في النوادر لأبي زيد : والخُرْديق ، بالفارسية : المَرَقُ ، مرقة الشحم بالتابل (طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق) ، وأنشد لعُذافر الكندي :

قالت سُليمى اشتر لنا سَويقا
وهاتِ بُرَّ الخَسِّ أو دقيقا
واعجل بشحم نتخذْ خُرديقا
واشتر وعجِّلْ خادماً لبيقا

فعلق المحقق في الحاشية :

لم أجد في النوادر بتحقيق الشرتوني ما ذكره ابن بريّ ، ولم أقف عليه في الطبعة الأخيرة للنوادر أيضاً .

أقول : الخبرُ والرَّجزُ في نوادر أبي زيد، وفي كلتا الطبعتين، في الصفحتين ٢٠٨ – ٢٠٩ من طبعة الشرتوني، وفي الصفحتين ١٧٠ – ١٧١ من طبعة محمد عبدالقادر الأخيرة . ولو رجع إليهما حقاً لصحح التحريف الذي وقع في كلمة (الخَسّ) ، وصوابها : (**البَخْس**)، وهو ما يُزرع بماء السَّماء .

– وجاء في حاشية ابن بَريّ على المعرَّب أيضاً ١٥٠ – ١٥١ :

قال ابن بري : ومن هذا الباب الهَنْبيقُ للوصف ، وجمعه هنابيق ، قال لبيد :

والهَنابيقُ قيامٌ حولَهم
كلُّ ملثومٍ إذا صُبَّ هَمَلْ

فعلّق المحقق في الحاشية ٤ : لم أجد في المعجمات إلا الهنبوقة بمعنى المزمار . والجمع : الهنابيق .

وعلق في الحاشية ٥ : لم أجد البيت في ديوان لبيد (طبعة الكويت) . أقول : الصواب : ومن هذا الباب الهبنيق للوصيف ، وجمعه : هبانيق . (ينظر : اللّسان والتاج : هبنق) .

وصحة قراءة بيت لبيد :

والهبانيق ....

والبيت في ديوانه ١٩٦ (طبع الكويت) . وهو أيضاً في المعاني الكبير ٤٦٧، واللّسان والتاج (هبنق) . فتأمّلْ!!

٧ – **ضرورة ضبط النّصوص الشعرية** ، وما يحتمل اللَّبْسَ خاصة ، بالشكل ، لتصحَّ القراءة ويفهم القارئُ المعنى على الوجه الصَّحيح .

– جاء في شعر يزيد بن مُفَرِّغ الحميري ٥٣ (طبعة بغداد) :

فيا رُبَّ خَصْمٍ قد كُفيتُ دفاعه
وقَوَّمْتُ منه دَرْأَهُ فتنكبا

لم يضبط ناشر الديوان حرفاً واحداً في هذا البيت، وبذلك التبس على القارئ قوله : (كفيت دفاعه) ، أهو بالبناء المجهول أم بالبناء للمعلوم ؟

– وجاء في شعر ابن مُفَرِّغ أيضاً ١٦٠ :

إن العُبَيْدَ وما أدّتْ طروقَتُهُ
لأعبدٌ من زوانٍ لا يُصلّونا

أهمل الناشر ضبط طروقته ، وأهمل ضبط (لأعبد)، أهي بفتح اللام وضم الدّال : لأعْبُدُ ، أم بكسر اللام والدّال: لأعْبُدِ ؟

وثمة أمثلة كثيرة في المجاميع الشعرية التي طُبعت في العراق، من غير ضبط بالشكل ، فضلاً عن أخطاء الطباعة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : ديوان الحارث بن حلزة، وديوان السيد الحميري (بيروت)، وشعر جحظة البرمكي ، وشعر الخباز البلدي ، وشعر السّلامي، وشعر عبد الصمد بن المعذّل ، وشعر ابن العلاف، وشعر النامي ... .

٨ – **الإفادة من الشروح والتّعليقات التي تخصُّ النّصوصَ الشّعرية في المصادر القديمة** ، و هذا مما يعينُ

على صحة قراءة النص وفهمه .

– جاء في الشّعر والشّعراء ٥٨٦ للطّرماح يهجو بني تميم :

أفخـــراً تميمـــاً إذ فُتَيَّةُ خَبَت
ولؤمـــاً إذا ما المَشْرَفيّة سلّت

فعلق المحقق : فتية ، بالتصغير وبالتكبير : يُريدُ الحربَ ، سمَّاها بذلك كأنَّهُ عَلَمٌ لها ، أخذه من الحديث ، قال في النهاية : (وفي حديث البخاري : الحربُ أول ما تكونُ فُتَيَّةً ، هكذا جاء على التصغير، أيْ : شابة ، ورواه بعضهم : فَتِيَّة ، بالفتح) . وكلمة (فتية) ضبطت في ل (أي : مطبوعة ليدن) بالتّنوين ، وهو خطأ يختلّ به الوَزْنُ ، ثم هي هنا بمثابة العَلَم ، لا تُصرف .

والقراءة غيرُ الصّحيحة أدتْ به إلى هذا التعليق الذي لا موجب له .

ولو رجع المحقق إلى شرح ديوان الطّرماح ١٣١ (طبعة كرنكو) . لوقف على صحة قراءة البيت ومعناه ، وإليك البيت وشرحه :

أفَخْراً تَميميّـــاً إذا فتْنَةٌ خَبَتْ
ولؤماً إذا ما المَشْرَفيـــــةُ سلَّتِ

يقول : أتفخر فخراً تميمياً فَرَزْدَقَ عند سكون الفتنة ، وتأتي باللّؤم عند المسابقة فتفرّ أنتَ وقومُكَ .

– وجاء في شعر يزيد بن مُفَرِّغ الحميري ١٠٧ :

لابْنُ الزُّبَيْرِ غـــــداةَ يذمُرُ مُنْذِراً
أولى بغاية كُـــلّ يوم وقاعِ

فالناشر لم يبين من هو ابن الزّبير، ومن هو منذر، وما هي الحادثة التي يشير إليها الشّاعر . ولو أثبت ما جاء في رسائل الجاحظ ٢٥٩/٢ – ٢٦٠، وهي من مصادره ، عن هذه الحادثة لاتضح المعنى .

– وجاء في شعر يزيد بن مُفَرِّغ أيضاً ١٠٦ :

وما أهْـــلُ الشّـــويِّ لنا بأهلٍ
ولا راعـــي المخاضِ لنا براعِ

فعلّق الناشر : الشّويّ : اسم مكان لم يذكره ياقوت .

ولو أفاد من المصدر الذي انفرد بذكر البيت، وهو معجم ما استعجم ٨١٧ لرأى أنّ الشّويّ هنا جمع شاء، كما جاء عن نفطويه ، وبه يتضح المعنى . (ينظر : ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح ١٦٨) .

ولا بد من الإشارة إلى أن شرح الألفاظ المستغلقة ومعاني الأبيات وما يتعلق بها من الأخبار والأحداث مما يعينُ على صحة قراءة النص وفَهْم معناه .

٩ – يجب على المحقق أن يُشرف على طبع الديوان الذي يروم إخراجه وألا يعتمدَ على غيره. فالمسؤولية تقع عليه أوّلاً وأخراً ، وقد حصلت لي تجربةٌ مريرةٌ في نشر ديوان شعر عَديّ بن الرِّقاع العاملي فجاء فيه كثيرٌ من التصحيف والتحريف لأنني لم أشرف على طبعه، وقد أعددت الديوان ثانية للطبع فأرجو أن يكون أقرب إلى الكمال، والكمال لله تعالى وحده .

وهذه أمثلة مما وقع فيه :

– جاء في ص ٦٠ :

خُودٌ من اللائي يَمُسْنَ تأوّداً
مشي المياه على الكثيب الأهْيَلِ

والصواب : يَمِسْنَ ، بكسر الميم ، والمهاة لا المياه .

– وجاء في ص ٢٠١ :

وفـــي كـــلّ حين يبتلينَ بغارةٍ
كمـــا غَلَس الوَدّ القطا المتواترُ

والصواب : غَلَسَ الوِرْدَ .

– وجاء في ص ٢١٣ :

وما لامـــرئٍ أرَبٌ بالحيـــاة
عنها محيـــص ولا مصـــرف

والصواب :

ومـــا لامرئٍ أربٍ بالحيـــا
ة عنها محيصٌ ولا مصرفُ

– وجاء في ص ٢٣٤ :

وأدبروا ترتمي الأرضُ الفلاةُ بهم
لبتة ثمّ ما عاجوا ولا عطفوا

والصواب :

لِبْنَةٍ ....

١٠- ثمة محقّقون ثقات عجزوا عن قراءة نص شعريٍّ يؤدي إلى معنى واضح ، فنبّهوا على وقوع تصحيف أو تحريف فيه ليَحتاطَ الآخرون في قَبوله ، وهذا فضلٌ منهم .

– جاء في مقاييس اللغة ٢٩٦/١ :

أبلَــجُ بينَ حاجِبَيْــهِ نــورُهْ
إذا تَعَــدَّى رُفِــعَتْ مبتــوره

فعلّق عليه المحقّق : كذا ورد هذا البيت .

وجاء الشّطر الثاني في أساس البلاغة ٢٩ (بلج) :

إذا تغدّى رُفِعَتْ سُتُورُهُ

وبه يتجه المعنى .

– وجاء في نظرات في ديوان بشّار بن برد ١٤٩ – ١٥٠ :

قال بشّار في هجاء بني زيد وأبي هشام الباهلي (ديوانه ٨٧/٣) :

إذا اللّيلُ غطّاهُم غَدَوْا تحتَ ظلِّه
وأثوابُهم مسحورةٌ لفَسَادِ

كتب المحقق (غَدَوا) بالغين المعجمة، و (مسحورة) بالسّين المهملة والحاء ولعل صواب الأولى : (عَدَوا) بالعين المهملة، والمعنى : جروا وسَعَوا في الفساد ، متسترين بظلمة اللّيل. ولم أهتدِ إلى وجه الصواب في الثانية (مسحورة) .

أقول : وقد اهتدى إلى صحة قراءتها صالح الأشتر وهي (**محسورة**) . (ينظر : ألوان من التصحيف والتحريف ١٥) .

وبعد ، فهذا مجمل ما أثرت ذكره مما وقفت عليه في تحقيق النصّ الشعري القديم ، والشّواهد كثيرة ، ولكنّنا اكتفينا بذكر أمثلة قليلة ، أرجو أن تنفع الباحثين ، فالعالم يبقى عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نُحسن كما نعوذ بك من العُجْب بما نُحسن .

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله .

مصادر البحث ومراجعه

– أساس البلاغة / الزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) ؛ تحقيق عبدالرحيم محمود ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .

– ألوان من التصحيف والتحريف / صالح الأشتر، دمشق ، ١٩٩٢م .

– تاج العروس / الزَّبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ) ، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ .

– تاريخ الخلفاء / السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

– التعليقات والنوادر / الهَجَريّ ، أبو علي هارون بن زكريا، توفي في أوائل القرن الرابع الهجري ؛ تحقيق حمود عبدالأمير ، بغداد، ١٩٨٠ – ١٩٨١م .

– التعليقات والنوادر / الهجري ؛ تحقيق حمد الجاسر، الرياض ، ١٩٩٢م .

– ثمار القلوب / الثعالبي ، عبدالملك بن محمد ، (ت ٤٢٩هـ)؛ تحقيق أبي الفضل ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

– حاشية ابن برّي على المعرب / ابن برّيّ ، عبدالله ، (ت ٥٨٢هـ)؛ تحقيق إبراهيم السامرائي ، بيروت ، ١٩٨٥م .

– ديوان خالد الكاتب ؛ تحقيق يونس السامرائي ، بغداد ، ١٩٨١م .

– ديوان الخالديين ؛ تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٦٩م .

– ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي ؛ تحقيق نوري القيسي ، حاتم صالح الضامن ، بغداد ، ١٩٨٧م .

– ديوان الصاحب بن عباد ؛ تحقيق محمد حسن آل ياسين ، بيروت ، ١٩٧٤م .

– ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد ؛ تحقيق سامي الدّهان ، مصر ، ١٩٧٠م .

- ديوان الطرماح ؛ تحقيق كرنكو ، لندن ، ١٩٢٧م .
- ديوان لبيد بن ربيعة ؛ تحقيق إحسان عباس، الكويت ، ١٩٦٢م .
- ديوان أبي النجم العجلي ؛ صنعة علاء الدين أغا، الرياض ، ١٩٨١م .
- رايات المبرزين وغايات المميزين / ابن سعيد الأندلسي ، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)؛ تحقيق النعمان القاضي ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- رسائل الجاحظ ؛ تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- رسوم دار الخلافة / الصابئ ، هلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ)؛ تحقيق ميخائيل عواد، بغداد ، ١٩٦٤م .
- شعر الأحوص / إبراهيم السامرائي ، النجف، ١٩٦٩م .
- شعر الأحوص ؛ تحقيق عادل سليمان .- ط٢ .- القاهرة ، ١٩٩٠م .
- شعر السلامي / صبيح رديف ، بغداد ، ١٩٧١م .
- شعر ابن عبد ربه / محمد بن تاويت ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨م .
- شعر عروة بن أذينة / يحيى الجبوري ، لبنان ، ١٩٧٠م .
- شعر عمرو بن أحمر / حسين عطوان ، دمشق .
- شعر ابن المعتز / يونس السامرائي ، بغداد .
- شعر يزيد بن مفرغ الحميري / داود سلوم ، بغداد ، ١٩٦٨م ؛ وتحقيق عبدالقدوس أبو صالح ، بيروت ، ١٩٧٥م .
- الشعر والشعراء / ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ، (ت ٢٧٦هـ)؛ تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر، ١٩٦٦م.
- عيار الشعر / ابن طباطبا ، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)؛ تحقيق محمد زغلول سلام، الإسكندرية ، ١٩٨٠م ؛ تحقيق عبدالعزيز المانع ، الرياض ، ١٩٨٥م .
- قطب السرور في أوصاف الخمور / الرقيق النديم ، إبراهيم بن القاسم (ت نحو ٤١٧هـ) ؛ تحقيق أحمد الجندي ، دمشق ، ١٩٦٩م .
- لسان العرب / ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، بيروت ، ١٩٦٨م .
- مستدرك شعر الأحوص / إبراهيم السامرائي ، مجلة المورد ، العدد الرابع ، بغداد ، ١٩٧٥م .
- المعاني الكبير / ابن قتيبة ، حيدر أباد ، ١٩٤٩م .
- معجم البلدان / ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٧م .
- معجم ما استعجم/ البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ) ؛ تحقيق السقا ، القاهرة ، ١٩٤٥ - ١٩٥١م .
- مقاييس اللغة / ابن فارس ، أحمد (ت ٣٩٥هـ)؛ تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ .
- النبات / أبو حنيفة الدينوري ، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) ؛ تحقيق برنهارد ليفن ، بيروت ، ١٩٧٤م .
- نظرات في ديوان بشار بن برد / شاكر الفحام ، دمشق ، ١٩٨٣م .
- النوادر في اللغة / أبو زيد الأنصاري ، سعيد بن أوس (ت ٢١٥هـ) ؛ تحقيق الشرتوني ، بيروت ، ١٩٦٧م؛ وتحقيق محمد عبدالقادر أحمد ، بيروت ، ١٩٨١م .
- يتيمة الدهر / الثعالبي ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٦م .

تعددية التصنيف النحوي عند ابن مالك

محمد حلمي عبدالسلام جمعة

كلية الآداب والعلوم بني وليد – جامعة ناصر – ليبيا

تمهيد :

عرف التأليف النحوي تعددية المصنفات والشروح فيجد الباحث في علم النحو أكثر من مصنف للعالم الواحد ، كما يجد أكثر من شرح للمصنَّف الواحد ، والأمثلة على ذلك كثيرة فابن مالك له من المصنفات المنثورة (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) و(عمدة الحافظ وعدة اللافظ) ، وله من المؤلفات المنظومة (الكافية الشافية) و(الخلاصة الألفية) فضلاً عن مؤلفاته الأخرى منثورة ومنظومة في النحو والصرف وغيرهما [1] ، أما الشروح النحوية فتمثل – في كثرتها – ظاهرة عامة في التأليف النحوي حتى يصل عددها إلى ما يوجد في المكتبة النحوية من مصنفات ، وكيف لا وقد زادت الشروح على كتاب سيبويه على خمسين شرحاً[2]، كما زادت الشروح على (المقدمة الجزولية) على خمسة وعشرين شرحاً تقريباً[3]، وسنجد ذلك أيضاً إذا ما راجعنا ما وضع من شروح على (كافية ابن الحاجب) و(ألفية ابن مالك)[4]، وهكذا الحال مع المصنفات النحوية الأخرى[5] وإنما أردنا هنا التمثيل لا الحصر لتأكيد ظاهرة التعددية في التأليف النحوي ، وهي لا تخفى على متخصص .

تعددية التصنيف عند ابن مالك :

يتناول البحث تعددية التصنيف عند ابن مالك خلال مصنفيه (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) و(عمدة الحافظ وعدة اللافظ) في محاولة مختصرة لتحليل هذه الظاهرة – ظاهرة التعددية – وبيان الهدف منها .

أولاً : صاحب المصنفين :

هو محمد بن عبدالله بن مالك، أبو عبدالله جمال الدين الطائي الجياني، الذي يعد واحداً من أبرز علماء النحو العربي في عصور ازدهاره لا سيما القرن السابع الهجري ، وقد تتلمذ ابن مالك على علماء من الأندلس ومصر والشام ، حيث أخذ عن أبي علي الشلوبين في الأندلس ثم رحل إلى مصر فدرس على أبي عمرو عثمان ابن الحاجب ، ثم رحل إلى دمشق ودرس على السخاوي ، وانتقل إلى حلب فأخذ من ابن يعيش ثم تصدر للتدريس في كل من دمشق وحماة وحلب ، أما مؤلفاته فهي كثيرة متنوعة بين نحوية وصرفية ولغوية فضلاً عن العروض والقراءات ومن مؤلفاته (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) وشرحه ، و(الكافية الشافية) وشرحها ، و(الخلاصة الألفية) ، و(عمدة الحافظ وعدة اللافظ) وشرحه ، وله (سبك المنظوم وفك المختوم) وهو رسالة في النحو ، وله (المقدمة الأسدية) في النحو باسم ولده تقي الدين الأسد ، وله في الصرف (إيجاز التعريف في علم التصريف) ، وله (لامية الأفعال) منظومة وشرح عليها و(تحفة المودود في المقصور والممدود) منظومة وشرح عليها ، وله (الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد) وله مصنف في العروض ، ونظم للمفصل سماه (المؤصل في نظم

المفصل)، وله شرح لهذا النظم ، وله مصنفات أخرى في القراءات واللغة ، وكانت وفاته بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة من الهجرة[٦] .

ثانياً : اختيار المصنفين :

اختار البحث مُصَنَّفي ابن مالك (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) ، و(عمدة الحافظ وعدة اللافظ) ، لأنهما مصنفاه المنثوران الشاملان أبواب النحو الرئيسة فضلاً عن كونهما منثورين والتأليف المنثور هو الأصل وهو الذي يخضع لمنهجية محددة وعرض واضح لا يعوقه نظم له إطاره وقوانينه ، ولأنهما أيضاً يمثلان مرحلتين مختلفتين حيث إن (تسهيل الفوائد) يعد أول ما مصنفه ابن مالك في النحو مما وصل إلينا تقريباً ، أما (عمدة الحافظ) فيأتي متأخراً ، ويتضح ذلك من استقراء كتب التراجم التي تكاد تجمع على وضع (تسهيل الفوائد) في مقدمة مصنفات ابن مالك تليه (الكافية الشافية) وشرحها ثم (الخلاصة الألفية)، ثم (عمدة الحافظ وعدة اللافظ) وشرحه ، وبين هذه المصنفات مصنفات وشروح أخرى نحوية وصرفية ولغوية منظومة ومنثورة[٧] ، والمتأمل مصنفات ابن مالك يجد ما يؤكد صحة هذا الترتيب الوارد في كتب التراجم حيث نجد ابن مالك في شرح (الكافية الشافية) يحيل القارئ إلى (شرح التسهيل) ، وهذا يعني أن (تسهيل الفوائد) وشرحه سابق (الكافية الشافية) وشرحها ، ومن البدهي أن (الكافية الشافية) تسبق (الألفية) التي هي خلاصة للكافية كما يؤكد ابن مالك في قوله[٨] :

وما بجمعه عنيت قد كمل
نظماً على جُلِّ المهمات اشتمل
أحصى من الكافية الخلاصه
....

أما (عمدة الحافظ) فتتفق أكثر أبوابه مع ما جاء في الألفية[٩] ، فهو - على الأرجح - تالٍ للألفية التي هي تالية للكافية الشافية وشرحها التاليين للتسهيل وشرحه .

ثالثاً : المقارنة والتحليل :

يتناول البحث المصنفين تبويبهما، وأسلوبهما، ثم يعرض بعض المسائل التي اختلف فيها رأي ابن مالك في المصنفين .

(أ)

التبويب

اختلف التبويب في المصنفين وقد أخذ هذا الاختلاف مظهرين :

الأول : ترتيب الأبواب والمسائل :

اختلف ترتيب بعض الأبواب والمسائل ومن أمثلة ذلك:

- ترتيب المعارف :

بدأ ابن مالك المعارف في (تسهيل الفوائد) بالضمير تلاه العلم وانتهى بالمعرف بالأداة ، فقال : «الاسم معرفة ومنكرة ، فالمعرفة : مضمر وعلم ، ومشار به، ومنادى ، وموصول ، ومضاف ، وذو أداة»[١٠] ، لكنه بدأ المعارف في (عمدة الحافظ) بالعلم تلاه الضمير وانتهى بالمعرف بالنداء فقال : «والمعرفة علم ، ومضمر ، وموصول، واسم إشارة ، والمعرف بالإضافة ، والمعرف بـ (ال) ، والمعرف بالنداء»[١١] .

- باب (الفاعل) جاء في التسهيل مسبوقاً بالنواسخ[١٢]، وسابق لها في (عمدة الحافظ)[١٣] .

- باب الاستثناء : سابق الحال والتمييز مسبوق بالمفعولات في التسهيل[١٤] ، وجاء في (عمدة الحافظ) سابقاً المفعولات مفصولاً عن الحال والتمييز[١٥] .

- اختتم ابن مالك (تسهيل الفوائد) بباب (تتميم الكلام على كلمات مفتقرة إلى ذلك)[١٦] ، وقبله باب (إعراب الفعل وعوامله[١٧]، أما في (عمدة الحافظ) فقد كان آخر أبوابه (الإضافة)[١٨] يسبقه باب (التمييز)[١٩] .

الثاني : إهمال بعض الأبواب :

أهمل ابن مالك ذكر بعض الأبواب في مصنفه (عمدة الحافظ) ، وقد ذكرها في (تسهيل الفوائد) ، ومن هذه الأبواب (الاشتغال) و(التنازع) و(أبنية الفعل) و(الاختصاص) و(العدد) و(المدح والذم) و(التعجب)[٢٠] .

(ب)

الأسلوب

لكل عالم أسلوبه في عرض أبوابه ومسائله التي يحويها مصنفه ، ويتمثل هذا الأسلوب في الصياغة اللفظية للتعريفات والقواعد وما قد يصحب ذلك من وسائل إيضاح واحتجاج كالمثال المصنوع والشاهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو كلام العرب من الشعر أو النثر ، وسيعرض البحث هنا بعض المسائل الواردة في مصنفي ابن مالك لنتعرف إلى الأسلوب الذي استخدمه فيهما :

– تعريف (العلم) : يقول : ابن مالك في (تسهيل الفوائد) معرفاً العلم : «وهو المخصوص مطلقاً غَلَبةً أو تعليقاً بِمُسَمًّى غير مقدر الشياع ، أو الشائع الجاري مجراه»[٢١] ، ويقول في (عمدة الحافظ) : «العلم ما دَلَّ على شخص بعينه كـ (زيد) و(لاحق) ، أو قبيلة بعينها كـ(تميم) أو بلد بعينه كـ (مكة)، أو جنس عَيْني كـ (أسامة)، أو معنوي كـ (بَرَّة)»[٢٢] ، هكذا جاء التعريف في المصنفين وقد اختلفت الصياغة اختلافاً بَيِّناً فنحن في تعريفه الأول أمام صياغة حوت مجموعة من الألفاظ يحتاج كل منها إلى تعريف وتوضيح (– غلبة – تعليقاً – غير مقدر الشياع – الشائع الجاري مجراه) وعلى الدارس أن يفهم مقصده من هذه الألفاظ أو ليتسنى له فهم التعريف ، وإذا ما انتقلنا إلى التعريف الثاني وجدنا عبارة واضحة لا يجد الدارس معها مشقة في الاستيعاب فضلاً عن استعانته بالمثال مما يزيد المعنى وضوحاً والقارئ فهماً ولقد استدرك ابن مالك نفسه في شرح التسهيل ما أشرنا إليه من حاجة الألفاظ إلى تعريف وتوضيح فتناول كل لفظ ورد في تعريفه بالتوضيح ، وذلك في قوله : «وقولنا (مطلقاً) مخرج للمضمرات ، وقولنا (غلبة أو تعليقاً) بيان لصنفي الأعلام ، والمراد بالتعليق تخصيص الشيء بالاسم قصداً كتسمية المولود له ابن (زيداً) والمراد بالغلبة تخصيص أحد المشتركين أو المشتركات في شائع اتفاقاً كتخصيص عبدالله بابن عمر ، ويثرب بالمدينة ، ومصنف سيبويه بالكتاب ، وقولنا (غير مقدر الشياع) مخرج للشمس والقمر ونحوهما فإنهما مخصوصان بالفعل شائعان بالقوة ، وقولنا (أو الشائع الجاري مجراه) أي الجاري مجرى المخصوص كأسامة للأسد ، وثؤالة للذئب ، وشبوة للعقرب»[٢٣] وهكذا اتضح تعريف ابن مالك الوارد في التسهيل وإن لم يخل من ألفاظ يبدو تأثر ابن مالك فيها بالمنطق وعلم الكلام كقوله (مخصوصان بالفعل شائعان بالقوة) .

– تعريف المبتدأ :

يعرف ابن مالك المبتدأ في (تسهيل الفوائد) قائلاً : «هو ما عدم حقيقة أو حكماً عاملاً لفظياً من مخبر عنه أو وصف سابق رافع ما انفصل وأغْنَى»[٢٤] أما في (عمدة الحافظ) فيقول : «المبتدأ هو المجرد من العوامل اللفظية مخبراً عنه أو وصفاً مسنداً إلى تالٍ يقوم مقام خبره ، وهو مرفوع بالابتداء نحو (زيد قائم) و(أقائم الزيدان) ، و(ما قائم هما)»[٢٥] .

– إعراب المستثنى :

جاء في التسهيل : «وله بعد (إلا) من الإعراب إن ترك المستثنى منه وفرغ العامل له ما له مع عدمها، ولا يفعل ذلك دون نهي أو نفي صريح أو مؤول .. وإن لم يترك المستثنى منه فللمستثنى بإلا النصب مطلقاً بها لا بما

قبلها معدىً بها ، ولا مستقلاً ، ولا بأسْتَثْني مضمراً ، ولا بأن مقدرة بعدها ، ولا بإنْ مخففة مركباً منها ومن (لا) خلافاً لزاعمي ذلك وفاقاً لسيبويه والمبرد»[٢٦] ، أما في (عمدة الحافظ) فيقول : «وله مع (إلا) إن ذكر المستثنى منه النصب وحده في التقديم مطلقاً ، وفي التأخير بشرط ألا يتأثر المستثنى منه بنفي أو شبهه فإن تأثر بأحدهما اختير الإبدال مع الاتصال نحو قوله تعالى : ﴿ما فَعَلُوهُ إلاّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[٢٧] وإن لم يذكر المستثنى منه فلتِلو (إلا) ما له مع سقوطها ويسمى تفريغاً»[٢٨] .

تلك سمة غالبة تتضح من تتبع صياغة ابن مالك لمصنفيه فهو في (تسهيل الفوائد) يتسم بالتعريفات المركزة ذات الألفاظ المبهمة أو التي يغلب عليها المصطلح المنطقي وهو لا يستعين بالمثال أو بالشاهد مع هذا الإبهام وربما ضَمَّن تعريفه مسائل خلافية تزيد الأسلوب صعوبة كما ورد في حديثه عن إعراب المستثنى حيث إن أسلوب التعريف المركز لا يحتمل الإشارة إلى الخلاف الذي يحتاج إلى تفصيل ، أما في (عمدة الحافظ) فيجمع بين سهولة اللفظ ووضوح العبارة والمثال والشاهد فتتحقق الفائدة مع قليل من الجهد والوقت .

(جـ)

الرأي

لم تأتِ آراء ابن مالك في مصنفيه متفقة دائماً ويتضح ذلك خلال الأمثلة الآتية :

- مسألة أعرف المعارف :

ذكرنا في ترتيب الأبواب والمسائل في المصنفين أن ابن مالك بدأ ترتيب المعارف بالمضمر في (تسهيل الفوائد) وبالعلم في (عمدة الحافظ)[٢٩] وهو بذلك يتفق في مصنفه الأول مع القائلين بأن الضمير هو أعرف المعارف[٣٠] ويخالفهم في (عمدة الحافظ) متفقاً مع القائلين بأن العلم هو أعرف المعارف[٣١] وقد اتفق رأي ابن مالك في الألفية مع رأيه في مصنفه الأول (تسهيل الفوائد) فوضع الضمير في مقدمة المعارف وذلك في قوله[٣٢] :

وغـيره معرفـة : كهـم وذي
وهند ، وابني ، والغلام، والذي

ولما كانت الألفية خلاصة للكافية الشافية وكلاهما تالٍ للتسهيل وشرحه رَجَحَ أن يكون رأي ابن مالك في العمدة هو رأيه الأخير في هذه المسألة .

- مسألة تقسيم الفعل :

قسم ابن مالك الأفعال في (تسهيل الفوائد) بادئاً بالفعل الماضي ، ثم الأمر ثم المضارع[٣٣] ، وهو تقسيم سيبويه[٣٤] ، وقد علل ابن مالك لاختيار سيبويه لهذا التقسيم بأنه راجع إلى تقديم المجرد على المزيد فالماضي والأمر مجردان ، فقدم الماضي الأكثر تجريداً وتلاه الأمر ، ثم المضارع الذي لا يخلو من زيادة ، وعلله أيضاً بأنه راجع إلى أن الماضي والأمر يفيان بما يقصد بهما مجردين من القرائن ، أما المضارع فلا يفي ببيان ما قصد به إلا بقرينة «فكان أضعف منهما فأُخِّر»[٣٥] ، وأضاف ابن مالك تعليلاً ثالثاً لهذا التقسيم حيث يرجعه إلى البناء والإعراب ، فقد تقدم ما هو مبني (الماضي والأمر) على ما هو معرب (المضارع) ، يقول ابن مالك : «لما كمل ما يحتاج إليه من علامات الفعل شرع في بيان أقسامه الأولية التي تترتب عليها معرفة ما هو منها مبني ، وما هو منها معرب»[٣٦] ولا يخفى أن تقديم المبني على المعرب هنا إنما هو راجع إلى أن البناء أصل في الأفعال والإعراب فرع فيها فقدم الأصل على الفرع، لكن هذا التقسيم الوارد في (تسهيل الفوائد) اختلف في (عمدة الحافظ وعدة اللافظ) حيث قسم ابن مالك الأفعال بادئاً بالماضي ثم المضارع ثم

الأمر ، ويبدو واضحاً أنه راعى عنصر الزمن في هذا التقسيم ، حيث قال : «... وهي ثلاثة أقسام : قسم وضع لحدث ماض ويعرض له الحضور أو الاستقبال، وقسم وضع صالحاً للحال والاستقبال ، ويعرض له تعيين أحدهما وجعله ماضي المعنى ويسمى المضارع ، وقسم وضع مستقبل المعنى ولا يعرض له ذلك وهو فعل الأمر»(٣٧) .

– مسألة (مذ ، ومنذ) قبل المرفوع :

ذهب ابن مالك في (تسهيل الفوائد) إلى أن (مذ) و(منذ) قبل المرفوع ظرفان ، وذلك في قوله : «وليسا قبل المرفوع مبتدأين بل ظرفين خلافاً للبصريين»(٣٨) ، أما في (عمدة الحافظ) فقد قال : «... وإن وليهما اسم مرفوع فهما اسمان مبتدآن والزمان المرفوع بعدهما خبر ... فإن وليهما جملة فهما أيضاً مبتدآن ، والخبر مضاف إلى الجملة تقديراً ثم حذف وأقيمت الجملة مكانه»(٣٩) ، ثم استشهد بقول ذي الرمة(٤٠) :

ما زلت مذ فارقتْ ميٌّ لطيتها
يعتادني من هواها بعدها عيد

ويقول معلقاً : «أي مُدَّةُ ذلك زمن فارقت مي» ثم يقول :

«ويجوز أن يكون (مُذْ) مضافاً إلى (فارقت) منصوب المحل على الظرفية» (٤١) ، وهكذا اتجه ابن مالك اتجاهاً بصرياً بعدما اتفق مع الكوفيين (٤٢) في (تسهيل الفوائد).

– مسألة ترخيم المنادى المضاف .

أجاز ابن مالك في مصنفه (تسهيل الفوائد) ترخيم المنادى المضاف بحذف آخر المضاف إليه ، حيث قال : «وشاع ترخيم المنادى المضاف بحذف آخر المضاف إليه ، وندر حذف المضاف إليه بأسره ، وحذف آخر المضاف»(٤٣)، واستشهد بقول الشاعر (٤٤) :

أبا عُرْوَ لا تبعد فكلُّ ابن حُرَّةٍ
سيدعوه داعي ميتةٍ فيجيب

حيث رخم المنادى المضاف (أبا عروة) بحذف آخر المضاف إليه ، وهذا رأيه في مصنفه الأول (تسهيل الفوائد) ، أما في (عمدة الحافظ) فقد منع ابن مالك ترخيم المنادى المضاف فقال : «يجوز في غير استغاثة وندبة ترخيم المنادى غير المضاف والشبيه به» ويعلل قائلاً :

«المضاف والشبيه بالمضاف معربان فلم يرخما لئلا يذهب الإعراب لذهاب آخرهما»(٤٥) وهذا رأيه أيضاً في الألفية حيث قال(٤٦) :

.... واحظلا
ترخيم ما من هذه الهاء قد خلا
إلا الرباعي فما فوق العلم
دون إضافة وإسناد مُتم

فهو ضع ترخيم ما خلا من الهاء إلا العلم الرباعي فما فوق دون أن يكون مضافاً أو مسنداً .

هذه أمثلة لمسائل اختلف فيها رأي ابن مالك في مصنفيه وإنما قصدنا بها التمثيل لا الحصر لتتم المقارنة بين المصنفين في تلك المعالجة المختصرة التي أردنا بها تحليل ظاهرة تعدد المصنفات عند ابن مالك حيث وجدنا ابن مالك يهمل في مصنفه الثاني (عمدة الحافظ) ذكر بعض الأبواب التي وردت في مصنفه الأول (تسهيل الفوائد). ربما رأى أنها لا تحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح، ثم وجدنا الأسلوب ينتقل من الأصعب في (تسهيل الفوائد) إلى الأسهل في (عمدة الحافظ) مع الاعتماد على المثال المصنوع والشاهد الذي زاد الأسلوب وضوحاً مما يتضح مع أن ابن مالك قصد أن يكون مصنفه الأخير تعليمياً يتناسب مع المستويات المختلفة للدارسين الذين قد يجد بعضهم أو معظهم مشقة في استيعاب مصنفه الأول ، ثم

وجدنا ابن مالك يعدل عن بعض آرائه التي أقرها في مصنفه الأول إلى ما يراه الأصوب أو الأرجح بعد طول درس وإعمال فكر مسجلاً آخر آرائه في مصنفه الأخير، وتلك هي الموضوعية والأمانة العلمية التي ترتفع بالعالم فوق مستوى الذاتية حيث لا تأخذه العزة بالإثم فيتمسك برأيٍ يرى غيره أقرب إلى الصواب، وإنما يعدل عن رأيه مؤثراً فضيلة الرجوع إلى الحق غير عابئ بما قد يتهم به، وهذا يؤكد ما أردنا تأكيده وهو أن تعدد المصنفات لم يأت من فراغ، ولم يكن ترفاً علمياً، وإنما قصد ابن مالك قصداً هو إفادة العلم والمتعلم كليهما.

الهوامش

١ – **بغية الوعاء** ١/١٣٠، **وكشف الظنون** ١/١٥١، ٤٠٥، ٤٠٧ – و٢/١٠٦٦، ١٣٦٩، ١٥٣٦.

٢ – **الكتاب** ١/٣٧ : ٤٣.

٣ – **بغية الوعاة** ١/٥٧٧، **ونفح الطيب** ٢/٦١٦، **وكشف الظنون** ٢/١٨٠٠.

٤ – **كشف الظنون** ٢/١٥٤٤، ١/١٥١.

٥ – من المصنفات التي تعددت شروحها **تسهيل الفوائد، والمصباح** للمطرزي ومن المنظومات **ألفية ابن معط**. انظر **كشف الظنون** ١/١٠١، ١٥٥، ١٦٢، ٤٠٥ : ٤٠٧، ٢/١٧٠٨).

٦ – **البداية والنهاية** ١٣/٢٨٣، **بغية الوعاة** ١/١٣٠، **ونفح الطيب** ٨/٢٨٧، **والأعلام** ٦/٢٣٣، **وبروكلمان** ٥/٣٠٨، **وفروخ** ٦/٢٦.

٧ – **فوات الوفيات** ٣/٤٠٨، ٥/٣٣٩، **وشذرات الذهب** ٥/٣٣٩.

٨ – **شرح ابن عقيل** ٤/٢٥٤.

٩ – **عمدة الحافظ** – مقدمة المحقق ٣، ٧، ١٧، ٥٥.

١٠– **تسهيل الفوائد**، ٢١.

١١– **عمدة الحافظ**، ٥٠.

١٢– **تسهيل الفوائد**، ٥٢ : ٦٧، ٧٥.

١٣– **عمدة الحافظ**، ٨٤، ٩٨، ١١٩، ١٢٢.

١٤– **تسهيل الفوائد**، ١٠١، ١٠٨، ١١٤.

١٥– عمدة الحافظ، ٢٧٠، ٢٨٥، ٣٠٣.

١٦– **تسهيل الفوائد**، ٢٤٢ وما بعدها.

١٧– السابق ٢٢٨.

١٨– عمدة الحافظ، ٣٦٤.

١٩– السابق، ٣٤٩.

٢٠– تسهيل الفوائد، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ١١٦، ١٣٠، ١٩٥، ٢٠٤.

٢١– السابق، ٣٠.

٢٢– **عمدة الحافظ**، ٥٠.

٢٣– **شرح التسهيل**، ١/١٥٧.

٢٤– **تسهيل الفوائد**، ٤٤.

٢٥– **عمدة الحافظ**، ٦٤.

٢٦– **تسهيل الفوائد**، ١٠١.

٢٧– سورة النساء من الآية ٦٦.

٢٨– **عمدة الحافظ**، ٢٧٠، ٢٧٥.

٢٩– ورد ذلك ص ٦.

٣٠– **الإنصاف** ٢/٧٠٧، **وشرح الكافية** ٢/١٢٨، **والمقرب** ٢٤٢.

٣١– **الإنصاف** ٧٠٧، **وألفية ابن معط شرح ابن الخباز** ص٥٠. قال ابن معط:

أما المعارف فخمسٌ تنكرُ ...
أوّلها الأعلامُ ثم المضمرُ

٣٢– **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** ١/٨٧.

٣٣– **تسهيل الفوائد**، ص٤.

٣٤– **الكتاب** ١/١٢.

٣٥– **شرح التسهيل** ١/١٥، ١٦.

٣٦– السابق.

٣٧– **عمدة الحافظ**، ١٤.

٣٨– **تسهيل الفوائد**، ٩٤.

٣٩– **عمدة الحافظ**، ١٧٠.

٤٠– من البسيط (السابق ١٧١، **والمعجم المفصل** ٢/٣٠٨).

٤١– **عمدة الحافظ**، ١٧١.

٤٢– **الإنصاف** ١/٣٨٢، ٣٩١.

٤٣– **تسهيل الفوائد**، ١٩٠.

٤٤– من الطويل (**شرح التسهيل** ٣/٤٢٨، **وخزانة الأدب** ٢/٣٣٦).

٤٥– **عمدة الحافظ**، ٢٠٠، ٢٠١.

٤٦– **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** ٣/٢٨٨.

المصادر والمراجع

١ - **الأعلام** . لخير الدين الزركلي -. ط١٠ -. بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٢م .

٢ - **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين** لأبي البركات الأنباري النحوي ومعه كتاب **الانتصاف من الإنصاف** تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد -. ط٤ -. بيروت : دار إحياء التراث العربي - المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

٣ - **البداية والنهاية** لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي - دقق أصوله وحققه أحمد أبو ملحم ، وعلي نجيب عطوي ، وفؤاد السعيد ، ومهدي ناصر الدين ، وعلي عبدالساتر -. بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م -. ط٢، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م -. ط٣ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٤ - **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** للسيوطي ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -. صيدا ، بيروت : المكتبة العصرية .

٥ - **تاريخ الأدب العربي** -. بيروت : دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٧٩م -. ط٥ ، ١٩٨٩م .

٦ - **تاريخ الأدب العربي** لبروكلمان؛ نقله للعربية رمضان عبدالتواب ، راجع الترجمة السيد يعقوب بكر -. ط٢، القاهرة : دار المعارف .

٧ - **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** لابن مالك ؛ حققه وقدم له محمد كامل بركات -. القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

٨ - **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** لعبدالقادر بن عمر البغدادي؛ تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون -. ط١ - القاهرة : مطبعة الخانجي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٩ - **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب** لأبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي -. ط٢ -. بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

١٠- شرح ابن الخباز على ألفية ابن معط المسمى (الغرة المخفية في شرح الدرة الألفية) مخطوط رقم ١١٧ نحو - معهد المخطوطات بالقاهرة .

١١- **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل** تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد -. بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

١٢- **شرح التسهيل** لابن مالك ؛ تحقيق عبدالرحمن السيد ، ومحمد بدوي المختون -. ط١ -. دار هجر للطباعة والنشر ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

١٣- **شرح كافية ابن الحاجب** لرضي الدين الأستراباذي -. بيروت ، لبنان : دار الكتب العلمية .

١٤- **عمدة الحافظ وعدة اللافظ** . لابن مالك؛ تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي -. ط١ -. القاهرة : مطبعة الأمانة .

١٥- **فوات الوفيات** لمحمد شاكر الكتبي ؛ تحقيق إحسان عباس -. بيروت ، لبنان : دار الثقافة ، ١٩٧٤م .

١٦- **الكتاب** . كتاب سيبويه أبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر ؛ تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون -. القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١٧- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** لمصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي-. بيروت ، لبنان : دار إحياء التراث العربي ، د . ت .

١٨- **المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية** ؛ إعداد إميل بديع يعقوب -. ط١ -. بيروت ، لبنان : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

١٩- **المقرب** لابن عصفور ؛ تحقيق أحمد عبدالستار الجواري ، وعبدالله الجبوري -. بغداد : مطبعة العاني.

٢٠- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** لأحمد بن المقري التلمساني ؛ تحقيق إحسان عباس-. بيروت ، لبنان : دار صادر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

توظيف الأدب في جهود أبي الحسن النّدْوي الدعوية

محمد بن حسن الزير

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

مقدمة :

ظل أبو الحسن النّدْوي، رحمه الله، وهو الأديب الأريب، الألمعي، البارع في ألسنة عديدة، في مهارة ونبوغ، ظل الجندي الشاكي السلاح دائماً، مجاهداً بما وهبه الله من علم وبيان، لا يضع أبداً سلاحه البياني، سلاح اللسان والقلم؛ فلا يكاد يفرغ من معركة بيانية، في هذا الجهاد المستمر الطويل، حتى يدخل في أخرى، يحمل مشعل الحق والهداية، وضاء صريحاً، وهي معارك لا انكسار فيها ولا انهزام، وإنما هي معارك مظفرة دائماً.. غالبة دائماً؛ لأنها معارك الحق.. والحق غالب.. وتستهدف العدوّ الباطل.. والباطل دائماً مغلوب : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء/٨١] .

نعم ظل فارس الكلمة والبيان، أبو الحسن، مجاهداً لا يترجل، شجاعاً لا يهاب، جريئاً في قولة الحق، لا تلين لها قناة، ولا يستكين له جنان؛ ألم يقل الرسول ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه» ؟ !

وفي هذه الصفحات، جولة سريعة وسط هذا الجهاد البياني البليغ الذي قدمه سماحة الشيخ أبو الحسن النّدْوي - رحمه الله رحمة واسعة - طيلة ما يقارب الثمانين عاماً ؛ أي منذ أن كان في الثامنة من عمره إلى أن أسلم الروح إلى بارئها، تلك الثمانين التي ظل فيها مجاهداً بلسانه وبيانه، قائماً - كما قال هو نفسه - بـ «استخدام القلم لتحقيق الأهداف النبيلة السامية، وتقديم الأدب كأداة للبناء والإصلاح، لا كأداة للتدمير والإفساد»[١] .

رحمك الله يا أبا الحسن .. وطبت .. وطاب ثراك .

تمهيد : بيئة دعوية وأدبية :

تهيأ للشيخ أبي الحسن الندوي منذ نعومة أظفاره أن ينشأ في أحضان بيئة دعوية أدبيّة في الوقت نفسه؛ وهما ملمحان في هذه البيئة أثّرا في تكوينه جنباً إلى جنب، وسايرا نشأته وأثّرا في شخصيته، وأصبحا جزءاً من حياته، لازمه إلى النهاية.

فأسرته في الأصل حملت لواء الدعوة والجهاد في سبيلها بالبيان والسنان، وبيته الذي ينتمي إليه بيت علم ودعوة منذ قديم، وجد هذه الأسرة «السيد قطب الدين محمد المدني» ذلك الولي من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما، قد رحل إلى الهند في أوائل القرن السابع الهجري، وحلّ بها مع جماعة كبيرة من أصحابه داعيةً مجاهداً، وقد بارك الله في ذريته من بعده، وكثر فيها العلماء والمربون والمجاهدون[٢] ، وتبنوا الدعوة الإسلامية وقادوا الحركات الدينية في أزمان مختلفة، كان أشهرهم في القرن الحادي عشر الهجري العارف الكبير والمربي العظيم السيّد عَلَم الله بن السيد فُضيل الحسني (م ١٠٩٦هـ)[٣] مؤسس الأسرة الحسنيّة ومنشئ المركز الديني التربوي الكبير في «رائي بريلي» في آخر القرن الحادي عشر الهجري التي لا تزال موطن هذه الأسرة الرئيس الأكبر في شبه القارة الهندية، وكثر في ذريته العلماء المربّون الذين دعوا إلى العقيدة الصحيحة والتمسك بالسنة السّنيّة ، والرّبانية الصافية، وإعلاء كلمة الله وإدالة الدين والمسلمين من القوات المحاربة للإسلام والشريعة المطهرة[٤] .

ومن أشهر علماء هذه الأسرة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، الذي قاد حركة الدعوة والجهاد ، وأسس حكومة على منهج الخلافة الإسلامية الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للهند، وقد استشهد على أيدي السيخ في معركة (بالاكوت) في ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦هـ من أجل إجلاء الإنجليز وتأسيس الحكومة الإسلامية[٥].

وكان جده السيد (فخر الدين بن عبد العلي) ، أحد نابغي هذه الأسرة ومؤلفيها الكبار، الذي ألّف كتباً كثيرة، وكتب دواوين شعرية متعددة، ومثله ابنه والد أبي الحسن السيد عبد الحي الحسني العلامة الشهير، مؤلف كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في تراجم علماء الهند وأعيانها، في ثمانية أجزاء وكتاب «الهند في العهد الإسلامي» وكتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» إلى غير ذلك[٦] .

وأما أسرته المباشرة التي نشأ في أكنافها، وترعرع في ظل توجيهاتها ورعايتها، فقد كانت امتداداً لذلك الجو الديني العلمي المفعم بالحماسة الدينية في ظل منابع العلم والمعرفة؛ فقد نشأ الطفل أبو الحسن في بيت سيد عالم كبير، صاحب مكتبة عامرة وكان إماماً للمسجد ، وظل يعظ ويذكر بعد صلاة الجمعة أعواماً عديدة[٧] ، وكان لخاله الحافظ السيد عبيد الله الأثر الأول في ثقافته ، وتربيته الخلقية والعقلية، وشاهد في طفولته خمساً من نساء الأسرة الحافظات للقرآن الكريم، والملتزمات بإقامة صلاة التراويح، وكانت والدته من النساء الحافظات لكتاب الله[٨]، ويقول عنها أبو الحسن : «وكانت تقرأ في صلاة التراويح إماماً، وكنت أتسمع لها ، فأحس بقراءتها ، كأنّ سحابة تمطر مطراً منعشاً، قراءة مرتلة بمخارجها الصحيحة، مع الحدر الجميل، والرقة واللطف ولوعة الأنوثة ، نور على نور[٩]» ، كما يقول عن تأثير والده : «ولم تزل أسرتنا، أسرة العلماء والمؤلفين، فقد كان الوالد من كبار المؤلفين في عصره، وللبيئة والوراثة تأثير كبير لا ينكر، ولا يزال يتنقل هذا التأثير من جيل إلى جيل، ويطبع الصغار والكبار، والبنين والبنات بطابعه في قليل أو كثير، فكان الطابع الوراثي، ونوق الوالد وانهماكه في الكتب كغاشية أو سحابة تغشي المحيط المنزلي، وتظلل على الأسرة كلها، وقد تجاوز هذا التنوق إلى الحب الشديد للقراءة وإدمانها، بل إلى حد أن أصبح هواية، فما أن وقع بصرنا على كتاب مطبوع إلاّ تلقفناه، وأتينا عليه قراءة ومطالعة، وكل ما يقع بأيدينا من النقود لمصروفاتنا الصغيرة، أو إذا زارنا أحد الأقرباء وأهدى إلينا عند عودته شيئاً من الروبيات – كما كانت العادة في الأسرة إذ ذاك – فكان أحب مصرف لدينا لهذه النقود شراء الكتب[١٠]»، فكان شغوفاً بالقراءة، وكوّن له مكتبة صغيرة ، وتشاركه أخته في قراءتها، وهي كتب ورسائل صغيرة بالأردية فيها المنثور وفيها المنظوم عن السيرة النبوية ، يقول عن تلك الفترة وتأثيرها عليه : «وقرأت في تلك الفترة كتباً ورسائل صغيرة بالأردية في السيرة النبوية على صاحبها السلام ، فنفذت في القلب والعقل وقرت منهما في قرار مكين ، ولا أتذكر أسماءها الآن، إلا أن الذي أذكره أن قراءتها أنشأت فيّ رغبة حسب عادة الناس في ذلك الزمن أن أعقد جلسة في السيرة النبوية أو احتفالاً بالمولد النبوي[١١] ، فدعوت الأطفال الصغار مثّلي ومن أترابي، ودُرت لأجل ذلك على بيوتهم واحداً واحداً ، ولاثت إحدى أختيّ عمامة صغيرة على رأسي، وكنت لم أتجاوز الثامنة من عمري ، وأخذت كتاباً من تلك الكتب المجموعة عندي، وقد كانت معرفتي وعلمي بالموضوع بحيث كنت أدعو سيد قريش وجد نبينا محمد ﷺ عبد المطلب ، بعبد المطْلب بإسكان الطاء وفتح اللام ، وكان الوالد رحمه الله – قد وقف بجانب من هذا المجلس يسمع ابنه وهو يقرأ من هذا الكتاب ، ولا تسأل عن موجة الفرح التي كانت تغمر جوانبه، فقد رزقه الله تعالى حظاً وافراً من حب النبي»[١٢].

وإذا كان والد أبي الحسن قد مات - رحمه الله - وهو طفل في سن التاسعة وبضعة أشهر، فقد تولّى مسؤولية رعايته وتربيته أخوه الأكبر السيد عبد العلي الحسني[١٣] ، إلى جانب عناية أمه به واهتمامها بتحفيظه السور الطويلة من القرآن الكريم[١٤] ، وتأتّى له في ظل هذه البيئة أن ترعرع مع نمو سني عمره، نمو عاطفي ديني، ونمو معرفي علمي وأدبي، فواصل الدراسة والتحصيل، وتلقى مزيداً من العلم والمعرفة ، وتعلّم اللغة الفارسية والإنجليزية والعربية إلى جانب الأردية، وعهد أخوه بتدريسه العربية إلى أحد أصدقائه، وهو أستاذ اللغة العربية، الشيخ (خليل بن محمد بن حسن بن محسن الأنصاري اليماني) أواخر عام ١٩٢٤م ، فاعتنى به عناية فائقة ، وكانت دراسته كما يقول الشيخ «على قدم وساق» واجتهد في تعليمه وتدرّج من الكتب الابتدائية وكتب القراءة والمطالعة وكتاب «كليلة ودمنة» وهو مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع، مع الإلزام بالكلام بالعربية، ثم ترقّى بعد ذلك إلى الكتب القديمة المهمة مثل: «نهج البلاغة» و«مقامات الحريري» و«دلائل الإعجاز» و«القصائد العشر»[١٥] . وقد كان لهذا أثر كبير فيما وفق إليه أبو الحسن من إتقان اللغة العربية وتذوّق آدابها، وأبو الحسن يشعر بأن ذلك من التوفيق الذي أسهم في تمكينه من خدمة العلم والدين[١٦]، كما شعر أيضاً أنه من حسن حظه أنه في الوقت نفسه الذي كان يدرس العربية، كان يقرأ في اللغة الأردية وآدابها كتباً تعد في القمة؛ ذلك «أن الدعاة والعلماء الذين لا تسع لهم الفرصة في سنيهم المبكرة لدراسة لغة البلاد وآدابها والتذوق لها، أو يطالعوا كتبها في الكبر، يواجهون صعوبة كبيرة في القيام بدعوة مؤثرة، وتفسير المفاهيم الدينية وتعليمها، وشرح الفكرة الإسلامية وغرس المقاصد والأهداف الدينية في نفوس الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وتخلو كتاباتهم وإنشاؤهم من القوة والتأثير والروعة والجمال الذي لا بّد منه في هذا العصر»[١٧] .

وقد التحق عام ١٩٢٧م بقسم آداب اللغة العربية بجامعة لكهنؤ[١٨] ، وعمره آنذاك لم يتجاوز الرابعة عشرة، وحصل منها على شهادة (فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها)[١٩] . والتحق بدار العلوم عام ١٩٢٩م[٢٠]، ودرس الحديث الشريف ، وفي التحاقه بهذه الدار طالباً تواصل لتلك البيئة التأسيسية في تكوينه الدعوي والأدبي، إذ هي في الأصل مؤسسة علمية دعوية، تعنى بالإيمان والسلوك القويم في الوقت الذي تعنى بالأدب وتقويم اللسان، وفي هذا السبيل يقول محمد الرابع الندوي[٢١] : «وقد اعتنت دار العلوم في ندوة العلماء بتعليم اللغة العربية أيضاً كلغة حيّة علمية كتابة وخطابة وحواراً ، وكان ذلك مما سبقت به ندوة العلماء شقيقاتها في شبه القارة الهندية ، وهي أداة مهمة لخدمة الدعوة الإسلامية، ولاستقاء الروح والهداية من المنابع الأصلية، تؤيد هذه الفكرة آية : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [٢٢] .

وفي هذا السياق أيضاً يقول شيخ العربية وأديبها علي الطنطاوي - رحمه الله - : «ولأبي الحسن والنّدْويين عناية بالأدب والدعوة لا تكون إلا باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم الأدب، وإذا كان من الأدباء الذين يعرفون اليوم بالإسلاميين من يكتب ويقول غير ما يعمل ... فإن أبا الحسن وجماعته ملتزمون بالإسلام قولاً وعملاً، كتابة وسلوكاً، يعمل ما يعمل ابتغاء رضا الله لا رضا الناس ..»[٢٣] .

إن أبا الحسن - رحمه الله - وقد تقلّب في رحم هذه البيئة الدعوية الأدبية، وتنشّأ في أحضانها طفلاً وفتى، ومتعلماً ، وعالماً طيلة حياته المباركة، أصبح الداعية الأديب ، والأديب الداعية بحق ، ولئن كان ياقوت الحموي قد قال ذات يوم عن التوحيدي بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء؛ فإننا اليوم نقول عن أبي الحسن بأنه «داعية الأدباء وأديب الدعاة» رحمه الله رحمة واسعة .

ملكة أدبية وعاطفة قوية :

يجد القارئ لآثار أبي الحسن المكتوبة أو المستمع لأحاديثه ومحاضراته أنه أمام موهبة أدبية، وملكة بيانية، تفرض تأثيرها على المتلقي ، بما تتسم به هذه الملكة من قدرة لغوية ، ومما تتمتع به من طاقات تعبيرية لافتة، وهذا الجانب الأدبي في كتابات أبي الحسن جانب ظاهر بيّن ، عبّر عنه كثير ممّن كتب عنه ، أو درس حياته وأدبه[٢٤] .

وهذه الموهبة الأدبية العالية ، تعكس حساً ذوقياً راقياً لمواطن الجمال الأدبي، وتجاوباً ذاتياً مع أصداء تكوينه الأدبي والروحي، الذي أتيح له أن يتلقى مؤثراته وأسبابه خلال سنيّ حياته الأولى وما تلاها .

وقد كانت مدرسة والده التاريخية ممثلة في تلك الموسوعة العلمية الأدبية التاريخية التي خلفها بعنوان : «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية أجزاء، وتعنى بتراجم علماء الهند وأعيانها، وما حفلت به من قصص الدعاة والمصلحين، كانت أحد المؤثرات الفاعلة في أسلوبه وأدبه ، وعن هذا المؤثر يقول الشيخ أبو الحسن : «وتأثرت في الكتابة الأردية أولاً بأسلوب الوالد رحمه الله التاريخي والأدبي، الذي هو نموذج جميل لكتابة متينة رصينة، يحمل مع جدية التاريخ ودقته ، رونق اللغة ورواءها، وقد تجلّى أثر تقليد هذا الأسلوب في مقالي الأول في أوردو كان عنوانه : «الأندلس »[٢٥] «كما تأثر بكتاب «رحمة للعالمين» للقاضي محمد سليمان المنصور فوري، بل كان من أكثر الكتب تأثيراً فيه[٢٦] .

ولا يمكن للناظر إلى هذه الملكة الأدبية عند أبي الحسن، أن يتجاهل التأثير العميق، والتحريك الفاعل لهذه الموهبة، الآتي من صلة الشيخ أبي الحسن بأشعار محمد إقبال وأثرها الأدبي والروحي فيه[٢٧] ، يقول الندوي عن هذا التأثير : «... ولكن لما وقع بصري على شعره الأخير في «ضرب كليم» تفتحت عيني ، وسحرني شعره، وسمو فكره، ثم لما قرأت «بال جبريل» زاد إعجابي وتأثري، فقد وجدت فيه سمو الأفكار، جمال النغمة وحلاوة الجرس، وقرأت دواوينه الشعرية الأخرى في الفارسية ، تأثرت به عقليتي وتفكيري وقلبي تأثراً لا أعرفه – في حدود الأدب والشعر والفكر الإسلامي القوي – بأي شخصية معاصرة أخرى .

«... وكنت أشعر بسماعها أو قراءتها كأنها خواطر عالم آخر وأفكاره، وأن علاقتها ليست بالعلم والذكاء وسعة المطالعة وكثرة المعلومات، إنما هو فيض ربّاني ، ورشحة من الرشحات العلوية، إنها عبقرية لا تدين للذكاء وسعة العلم وقوة التعبير ، وإنما هي هبة من هبات الله التي لا نهاية لها»[٢٨] .

كما كان لأستاذه الشيخ (محمد إلياس)[٢٩] أثره البالغ فيه ، إذ دخل الشيخ بعد لقائه به مرحلة دعوية جديدة ، تعتمد على الخطابة المباشرة ، والارتجال ، واعتلاء المنابر بصورة متواصلة مثابرة، ما أتاح لمواهبه الأدبية ، وقدراته البلاغية أن تنطلق ، وأتاح لملكاته التعبيرية أن تفيض على لسانه، كلاماً عذباً جميلاً ، أخاذاً.

وقد عبر أبو الحسن عن إعجابه بالشيخ وعمله حين قال : «وأعجب ما رأينا في هذه الرحلة وأغربه، والذي غمرنا بالسرور الخالد والغبطة الكبيرة ، هو عمل الشيخ محمد إلياس الدعوي، ونظامه التبليغي في منطقة ميوات . إن ما شاهدناه هناك بأعيننا لم يكن مشهداً من مشاهد القرن العشرين، بل كان مشهداً يخيّل إليك كأنه من التاريخ الإسلامي الأول، من إصلاح وتجديد، وتغير جذري في الأحوال والسلوك والأخلاق، وما كنا قرأناه في تاريخ المسلمين الجدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام في القرن الأول من قصص حماسهم وعواطفهم وتذوقهم للإيمان وشغفهم بالدعوة إليه ، وما رأينا من نماذج في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي ، رأينا أمثلته الحية ، ونماذجه المتحركة»[٣٠] .

ومن هنا بدأ عمله الدعوي، إثر عودته من ذلك اللقاء، في نواحي لكهنؤ وما جاورها من القرى، على المنهج نفسه الذي رآه في ميوات ، وكان يقوم بالدعوة وسط الطبقة المتخلفة، وأحياء الفقراء والمساكين ، توعية لهم بدينهم، وإثارة لشعورهم الديني، وجذوته الإيمانية في نفوسهم ، وكان يكتب بشأن ذلك تقارير مختصرة إلى شيخه (محمد إلياس) الذي كان يرد عليه برسائل تثير في نفسه الحماس والثقة[٣١] .

ويحدثنا أبو الحسن في هذا السياق عن صورة من صور تلك الخطابات المنبرية المرتجلة وأثرها في الخطيب، وأثرها في السامعين؛ ذلك أنه دعي عام ١٩٤٤م من مجلس السيرة ببيشاور لإلقاء خطاب في احتفالها للسيرة النبوية وأنه سرّ بذلك، وأخذاً بالاحتياط كتب مقالاً حول السيرة، وأعده ليقرأه في ذلك الاحتفال، لكنه علم من أحمد المنظمين أن المحاضرات المقروءة لا تناسب الاحتفالات العامة ولا تؤثر في الجماهير، فقرّر ترك ذلك المقال المكتوب ليتحدث إلى الناس مباشرة، يقول - رحمه الله - : «فتوكلت على الله، وبدأت بالخطاب المرتجل، كانت نقطته المركزية هو دعاء الرسول ﷺ في وقعة بدر، الذي غيّر خارطة العالم وتيار التاريخ، وقضى بخلود الأمة المسلمة ورقيها وازدهارها، وهو قول الرسول ﷺ وهو يناجي ربه : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» فقلت: إن هذا هو الأساس الذي قامت عليه الأمة الإسلامية، فلما قيل هذا الدعاء ، وانتصرت الفئة القليلة المشتملة على ٣١٣ شخصاً على كثرة الكفّار الذين كانوا ألف مقاتل ، فقد صدق وقرر، أنه هو شعار الأمة الدائم ، ورسالتها الخالدة ، وأهميتها وفائدتها، هو الشرط الأساسي في حياتها ونجاحها، وقد عُرفت به هذه الأمة في عهد النبوة ، وعلى أساسه قامت قريش ضدّها قومة رجل واحد، ورفعت لواء حرب عضوض طاحنة .

ثم قارنت بين ماضي هذه الأمة وحاضرها، وقلت : لو عاد قتلى بدر وأحد اليوم إلى الحياة، وقالوا للمسلمين: أين ذهبت ميزتكم، وهدفكم في الحياة الذي زعمتم أنكم بعثتم لأجله، وأي فرق بيننا وبينكم في حب الدنيا، وطلب اللذات والمسرّات ، والرّاحة والدّعة، ومخالفة المبادئ وموت الضمائر ، فبماذا نجيبهم ونرد عليهم ؟

ولا أدري من أين كانت تنهال عليّ المعاني، ومن أين جاءتني تلك القوة والطلاقة في اللسان حتى كنت أنا أيضاً أجري في كلامي، واندفع في تيار المعاني، وكان الجمع في تأثر وإعجاب غامر، وانفعال عجيب، وقد ذكر بعض المشاهدين أن السردار عبد الرب نشتر[٣٢] كان قد غطّى وجهه بمنديله من شدة وجده وبكائه، ولما انتهى الخطاب جاء عدد من الأفغان وقالوا : بم تأمر؟ مرنا بما تشاء فنحن في خدمتك»[٣٣] .

ولا شك أيضاً في أن هذه الملكة الأدبيّة تأتّى لها فرصة ممتازة في أن تنضج وتتطور، من خلال ما أتيح لأبي الحسن، في تاريخ تجربته الأدبية، من أن يمارس التدريس في دار العلوم، فقد اختير مدرساً للتفسير والأدب العربي[٣٤]، مما أتاح له أن يتعمق في دراسة نصوص الأدب العربي وتدريسها ، ومكنه من الاستفادة مما يرد إلى الدار من صحف ومجلات عربية، وعرّفه بالبلاد العربية، وأحوالها، وعلمائها، وأدبائها، ودعاة العرب ومفكريهم وقادتهم[٣٥] ، فمنح ذلك التدريس تجربته الأدبية تألقاً وانصهاراً في أجواء من الروح العلمية والمنهجية.

وقد كان أبو الحسن سعيداً راضياً بأن تكون حصّة تاريخ الأدب العربي من نصيبه بصورة مستقلة، وقد صرّح بذلك في قوله: «ولعل حصة تاريخ الأدب العربي كانت من نصيبي بصورة مستقلة بعد عام، وكان «تاريخ الأدب العربي» لأحمد حسن الزيات ، مقرراً في الصف السابع (السنة العالية الأخيرة) وكان هذا أحب موضوع لديّ وأرضاه، فدرّست هذا الكتاب باستمرار عدة سنين»[٣٦].

فصار أبو الحسن بأسباب تلك الظروف والمؤثرات والملابسات التي صادفته في تاريخه العلمي والأدبي أديباً ضليعاً في اللغة العربية، متشبعاً بعلومها وآدابها، قارئاً لكتبها، مطلعاً على مصادرها، حافظاً ومتذوقاً لكثير من نصوصها الشعرية والنثرية، موفقاً أحسن ما يكون التوفيق في استشارتها والاستشهاد بها في مواطن الاستشهاد المناسبة في كتاباته ومحاضراته التي يقدمها بالعربية الفصحى[٣٧] .

وصارت العربية اللغة الأثيرة لديه من بين ما يتقنه من لغات، وصار شديد العناية بآدابها، وتاريخ آدابها[٣٨] ، ومتذوقاً لنصوصها القرآنية والنبوية وغيرها، قادراً على الحكم النقدي المتسم بالحس الأدبي ، والنضج الموضوعي.

ومن هنا وجدناه يقدّم نظرات أدبية متعمقة ، ونقدات صائبة، وأحكاماً عادلة[٣٩]، اتجّه بها إلى الأدب الإسلامي والعربي، وإلى مؤرخي الأدب في جنايتهم على هذا الأدب ، حيث ركزوا على جوانب محدودة منه، اتصفت بالرسمية، أو على فئات من الأدباء الذين غلب عليهم التكلف والصنعة، وأهملوا كثيراً من النماذج الجميلة النابعة من الطبع الأصيل المتجاوب مع روح الأدب العربي وذوقه وسماته[٤٠] .

وبسبب هذه الملكة، التي تهيأت لها أفضل الظروف الموضوعية للبروز، تمكن من أن يتفطن إلى بعض المضامين الخاصة، التي احتوتها بعض الاستخدامات الأدبية من بعض النصوص العربية التي لم تكن محل اهتمام مؤرخي الأدب، ولا محل عنايتهم، من مثل توقفه الأريب اللبيب عند قصة ربعي بن عامر – رضي الله عنه – وتحليله لمضامينها، وهي لفتة ذكية عميقة تكشف عن روح الناقد الأصيل الذي ينفذ إلى جوهر النص التي يتمتع بها أبو الحسن، وهذه مسألة توقف عندها كثير من دارسيه، ومحللي أدبه ونقده من أمثال يوسف القرضاوي[٤١]، ومحمد رجب البيومي[٤٢] ، ومحمد اجتباء الندوي[٤٣] .

وكما أن أبا الحسن متمكّن من العربية متفوق فيها، فإنه متمكن من اللغة الأردية، وهو كما شهد له أديب العربية الطنطاوي : «متمكن من اللسانين ، أديب في اللغتين ..»[٤٤] وله فيهما آثار واضحة تشهد له بالقدرة الإبداعية البيانية فيهما معاً.

وهو في ذلك كله يفيض عن عاطفة قويّة، ووجدان ملتهب بالحميّة الإسلامية، والغيرة الدينية[٤٥]. وأدبه يصدر عنه حيّاً فوّاراً بالانفعالات والمشاعر، التي تمنح الأدب الحياة والتأثير؛ لأنه في هذه الحالة أدب طبع لا تكلف فيه ولا تصنع، والأدب الصادق المؤثر هو الذي يعبر عن عقيدة تملكته، مستجيباً لنداء ضميره وإيمانه بتلك العقيدة، منبعثاً بيانه عنها. وقد عبّر أبو الحسن عن أهمية هذه العاطفة في كتاباته النقدية بما يؤكد أصالتها في إبداعه الأدبي والنقدي؛ فهو يقول : «وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة ، أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم، ويفيض خاطرهم، ويتحرّق قلبهم فتنثال عليهم المعاني، وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين الذي يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد، وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة، أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه، وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد أفراحه»[٤٦] .

ومن هنا تتجاوب نفسه، وتتماثل رؤاه، مع ما يراه أستاذه (محمد إقبال) في تصور الأدب كائناً حيّاً له قلب حنون، وأن هذا الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز إلا إذا كان مستمداً من حياته من أعماق القلب الحي[٤٧] ،

ويقتبس لنا بعض أقوال إقبال في هذا المعنى : «لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول ، والذويّ والذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم والأدب ولوعة الحياة الدائمة. ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفئ سريعاً ؟ وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ لا نهضة للأمم إلا بمعجزة ، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا من تأثير عصا موسى»[٤٨] .

وقد ظل أبو الحسن وفياً في أدبه، في الفيض الحيّ عن عقيدة مؤمنة جياشة بالتعبير الروحاني عن أعماق نفسه المفعمة بحرارة الشوق والنغمات العلوية، وإنها لظاهرة ظاهرة في جل آثاره وأغلب كتاباته ، ولنقرأ مثلاً بعض آثار هذه الكتابات على أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله – وهو يكتب عن كتاب أبي الحسن «الطريق إلى المدينة» فيقول : «لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة»، أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي ، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار. وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنّى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البُرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر، إلا أنه بغير نظام .

«فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي ، وثقتي بأدب لغتي ..»[٤٩] .

توظيف أدبه في نشاطه الدعوي :

كانت الدعوة الإسلامية همّ أبي الحسن الندوي وشغله الشاغل، وظلت كذلك دائماً طوال حياته – رحمه الله، وظل هدفه السامي لهذه الدعوة أن يبعث في الأمة الإسلامية روحها من جديد لتضطلع بوظيفتها القيادية لإسعاد البشرية كلها[٥٠]، مبيناً أنّ الطريق لقيادة العالم مرّة أخرى ممهّد ميسور إنه «الإخلاص للدعوة الإسلامية، واحتضانها وتبنيها، والتفاني في سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة[٥١] .

وكان من أبرز محاور نشاطه الدعوي، دعوة العرب إلى الإسلام من جديد[٥٢] وأن يقوموا بدورهم الدعوي والقيادي ، الذي هو منصبهم القديم على حد تعبيره – رحمه الله ، وأنه دور مهم ليس في العالم الإسلامي فحسب وإنما في العالم الإنساني كافة ، وقد صرح الشيخ بأن هذا الموضوع قد ملك عليه عقله وقلبه ومشاعره بحيث فكر أن يجعله هدف حياته وموضوعها[٥٣] .

ولما كان أبو الحسن يمتلك في شخصيته مقومات الأديب، ويتمتع من خلال تكوينه الثقافي والمعرفي والأدبي الذي أتاحته تلك البيئة العلمية الدعوية، بقدرة واضحة على التعبير الأدبي البياني باللسان والقلم معاً، فقد وظّف هذه الملكة والقدرات توظيفاً شاملاً وكلياً إلى آخر حد، وخاصة أن الدعوة لا تكون إلا باللسان والقلم على حد تعبير أديب العربية الطنطاوي[٥٤] ، وإنتاج الشيخ الدعوي الثر في أحاديثه ومحاضراته وحواراته وكتبه يجعل الناظر فيه يحس – كما يقول أحد الباحثين في منهج الشيخ في الفكر والعمل – : «إن هذا الشيخ مؤذن، وقف على مئذنة مسجده في ليلة شاتية باردة مطموسة النجوم بفعل السحب المتراكمة، موحلة بفعل الأمطار الغزيرة .. من هنا لم يكتف الشيخ بما يشغل بال غيره من الدعاة والعلماء من وعظ وتخويف بالجنة والنار ، أدب الخلوة والعبادة يأساً من صلاح الناس، وإنما كان شغله الشاغل هو بعث هؤلاء النيام من رقدتهم وتنبيههم إلى ما يحدق بهم من جراء غفلتهم وتكالب أعدائهم عليهم، وسعيهم في اقتناص أطرافهم تمهيداً لاستئصال شأفتهم[٥٥] .

وقد ظل إحساس الداعية المسيطر على الشيخ

النبوي، وحمله لرسالة هذا الدين إلى البشرية كلها، وأنه قد جنّد نفسه للنهوض بها بكل قوة جسمية وقوة أدبية بيانية، ظل ذلك كله محركاً لطاقته الأدبية ، باعثاً لتجربته الشعورية في أن تبرز في الواقع قوية حية موّارة بعواطفه الجيّاشة، وتعبيراته الرائعة المؤثرة في نفوس متلقية، الموحية إليهم بشتى العواطف والأحاسيس، وهكذا نجد هذا الأثر التفاعلي بين الدعوة والأدب في إثراء كل منهما للآخر؛ فالدعوة تحفز تجربة الأديب وتبعثها، والأدب يثري تجربة الدعوة بحملها للآخرين ومنحها القوة في التأثير والبلوغ إلى نفوس المتلقين وعقولهم .

وقد ذكر لنا أحد الباحثين صورة لإحساس الداعية الذي يقف وراء مؤلفات الشيخ وكتاباته مثل ما نجد في كتابه «نظرات في الأدب» كتوثيق فصل لمحة عن المدرسة الأدبية الهندية منه، وهو أشد فصول الكتاب عاطفة ، وإن كان الكتاب كله يفصح عن قدرة أدبية رائعة لدى أبي الحسن الندوي تفيض بالعاطفة الإيمانية، هذا إلى جوار عاطفته في كتابه " الطريق إلى المدينة " وخاصة فصل وفود الأمة بين يدي نبيها ﷺ، وإني لا أظن أن قارئاً يقرأ هذا الكتاب ولا يحرك فيه مشاعر الإيمان والحب، وقد جاء الكتاب وليد حاجة أحسها المؤلف في العالم، وهي ضعف الصلة بين الطبقة المثقفة والرسول ﷺ، ولعل المقصود هو ضعف الصلة الروحية للعاطفة، فألفّ كتابه «الطريق إلى المدينة» ليحاول فيه إعادة ربط الصلة وتجديدها بين الأمة ونبيها ﷺ من خلال الأدب مرّة أخرى، وهذا بعد أن غزت ساحة الحياة الإسلامية جيوش الفلسفات الماديّة ، والعلوم الغربية ، فرأى أن يجهز جيشاً من بلاد الحب والعاطفة ليوقظ الشرارة الكامنة في قلب كل مسلم، بالمقالات القوية المؤثرة، والخطب الجذابة التي تتدفق بمعاني الحب والحنان، وتنضح بحرارة الحياة في قلوب الشباب ورجال الفكر من أصحاب البحث والأقلام من العرب خاصة، فيشعر بالغيرة من العجم في حبهم لرسول الله ﷺ وتلذذهم بذكره»[٥٦] . ويبدو أن أبا الحسن الندوي استمد فكرته وخيالاته هذه من أستاذه (محمد إقبال) حين قال : «لقد عزّ على أن أجهز جيشاً من بلاد الحب والعاطفة، فقد بدت في مركز الإسلام طلائع قوّة يقودها العقلي الفلسفي» فهذه فقرة مزج فيها صاحبها بين العاطفة والفكر، أو بين القلب والعقل، وهو ما يعرف بالمنطق الوجداني، وقد قلدّه في هذا الأسلوب تلميذه أبو الحسن الندوي . وفي كل الحالات فإن كتاب «الطريق إلى المدينة» رائعة أدبية؛ فيها جديد كثير تحدث مؤلفه فيه عن حبه العميق لرسول الله ﷺ ، وأملى خياله عليه خواطر وصوراً بيانية من استعارة وتشبيه رائع ..»[٥٧] .

والندوي وهو يوظف الأدب في تحقيق رسالة الداعية، ينطلق من ناحيتين مهمتين في اتجاهه هذا إحداهما تعود إلى أثر توظيف الأدب في خدمة العقيدة والإيمان؛ حيث إن الأديب في هذه الحالة سيكون مرتبطاً بالمضامين الإسلامية مستمداً منها متأثراً بها ، فتمنح هذه المضامين أدب الأديب أبعاداً مهمة في المعنى والتعبير ، فهو يكتب عن عقيدة وعاطفة ، يقول : «الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ»[٥٨] .

والثانية أن الإسلام نفسه في ثورته العالمية البناءة التي قام بها «استخدم اللغة والأدب كسلاح في دعوته ونشاطاته ، استخداماً لم تستخدمه أيّ ديانة أو حركة، فقد كان أفضل دعاة الإسلام وأقوى ممثليه، من ملكوا ناصية البيان، وبرّزوا في الخطابة والكتابة في لغته»[٥٩] .

وقد ظل أبو الحسن باستمرار وفيّاً لهذا الاتجاه الأدبي الواضح في دعوته، وظل أديباً داعية، وداعية أديباً سواء في إبداعه الأدبي المتمثل في أحاديثه وخطبه

ومحاضراته وحواراته ولقاءاته، وجميع كتاباته وكلماته وهي كثيرة ثرّة، هذا الإبداع الذي اعتمد بوضوح على تعبيره الجميل، وكلامه المؤثر القوي[٦٠] .

أو في حركته الأدبية، ونشاطه العملي النقدي، ودعوته إلى الاهتمام بالأدب دراسة وإبداعاً، ونقداً وتوظيفاً لخدمة الإسلام وقيمه الفاضلة العادلة، وغني عن البيان ريادته الجلية الجليلة في العناية بالأدب الإسلامي، وتدعيم مفاهيمه على مستوى المصطلح أو على مستوى المفهوم والدراسة، ثم على مستوى تأسيس رابطة عالمية للأدب الإسلامي، تجمع الأدباء على كلمة سواء، وشرفت هذه الرابطة برعايته لها واحتضانه لمقرها الأساسي، وتكرّمت برئاسته لها، بما يمنحها الرضا والقبول في جميع المحافل والأوساط، ولدى الدول والحكومات.

وفي سياق وفائه لهذا الاتجاه الإسلامي الأصيل، أنه منذ ابتداء عمله في حقل التدريس كانت كل رغبته وشوقه «منصرفاً إلى تدريس الطلاب وإنشاء الذوق الصحيح، والمكانة المطلوبة لفهم القرآن الكريم، وتذوّق اللغة العربية وآدابها ..»[٦١] ويقول في موضع آخر عن هذا الاهتمام مبيناً أثره ليس على الطلاب فقط وإنما على الأساتذة أنفسهم : «.. ولكن استفادتنا نحن المدرسين بهذا المنهج أكثر، وكان لنا بذلك مران على الطلاقة في الكلام بالعربية، وتمرين على الخطابة والإفهام ، كان أساساً فيما بعد لتلك الخدمات المتواضعة التي تحققت بفضل الله تعالى في مجال الدعوة والتربية» .

«وكنت بطبعي ولتأثير ذلك الجو والبيئة أنست بطلاب الصفوف التي كنت أدرسها وألفتهم، وكان من الحب والثقة والعلاقة ما يشترط للإفادة والاستفادة، فكنت أحرص دائماً على أن يتشربوا هذا العلم، ويتلقوا هذه العاطفة الجيّاشة للتطوع بالتعليم وصبغ الطلاب بصبغة العلم ..»[٦٢] .

وحين بدأ الشيخ أبو الحسن كتاباته باللغة العربية، وأخذ في الاتجاه إلى مخاطبة العرب، وانطلق في إنتاج سلسلة متواصلة من المقالات والرسائل، شعر بالسعادة والغبطة، وحمد الله على المنهج التعليمي الذي تعلم في إطاره، وعلى مقررات اللغة العربية وآدابها التي درسها، وأمتنّ كثيراً لما فعله أخوه الأكبر تجاه تربيته وتركيزه في هذه التربية «على تثقيف أخيه اليتيم الصغير بالثقافة العربية الأدبية .. لقد كان غريباً أن يعتني بتعلم فرد من أفراد الأسرة - التي كان يسود فيها التعليم الإنجليزي - اللغة العربية وآدابها على هذا النطاق الواسع، وبهذا المستوى العالي، ويمرّن على الإنشاء والكتابة والخطابة» .

«فلما بدأت هذا العمل الكتابي الدعوي، ووفقت بعد ذلك عام ١٩٥١م للسفر إلى الشرق الأوسط، قدّرت فراسة مربيّ وأخي الأكبر السيد عبد العلي، وبُعد نظره، وبصيرته الدينية، واعترفت بفضله الكبير عليّ، إذ إنه اختار لي هذا الطريق، وأنه أتاح لي - بمعزل عن مناهج التعليم السائدة - فرصة الحصول على سعادة الخطاب للعالم العربي، وإثارة شعورهم ووجدانهم، وإيقاظ عواطفهم الخامدة، ومخاطبتهم بأنها «بضاعتكم ردّت إليكم» عن طريق هذه اللغة والأدب، والكتابة والتحرير، والإنشاء والخطابة»[٦٣] .

وإلى جانب توظيف الشيخ لإمكاناته اللغوية العربية في دعوته في خطابه ومحاضراته وكتاباته التي اشتهر بها ليس في الهند فحسب وإنما في الأقطار العربية، إلى جانب ذلك وظفّ في نشاطه الدعوي الواسع قدراته في اللغة الأورديّة لغة موطنه، الذي عاش فيه، وكذلك استخدم اللغة الإنجليزية التي يعرفها قراءة وتحدثاً[٦٤] .

وقد رفد هذه الإمكانات الأدبية واللغوية لدى الشيخ في نشاطه الدعوي شجاعة أدبيّة، وثقة قوية بالنفس، جعلته يتقدم الصفوف في أي مكان يوجد فيه، وينطلق متحدثاً مرتجلاً في الأندية، والمؤتمرات، والمجامع العلمية وغيرها، أو ينشر

ما يريد نشره في الصحف والمجلات، كما أنه لا يتردد في أن يقول كلمة الحق صريحة مدوية، دون مواربة أو استحياء[٦٥].

ومثل هذه الشجاعة الأدبية ضرورية لرجل داعية كثير الترحال والأسفار في سبيل هذه الدعوة وشواغلها الكثيرة المتنوعة، فهو لا يكاد يؤوب من رحلة حتى ينشط في أخرى في سفر دائم يجوب أقطار الأرض يقول كلمة الحق، ويبعث في نفوس المسلمين الثقة ويدعوهم في حب وحنان إلى العودة إلى الإسلام من جديد، والاستمساك بقيمه والأخذ برسالته السامية العظيمة .

ويلاحظ من درس حياته أو اطلع عليها أن رحلاته الكثيرة، وأسفاره المتعددة كانت في الغالب لأسباب دعوية، بمبادرة منه، أو استجابة لدعوات رسمية، أو شعبية[٦٦] .

وفي سبيل هذه الدعوة المتحركة في أرجاء الأرض، وجد الشيخ نفسه وقد انصرف بكليته إلى عمل الدعوة وتبليغ رسالة الإسلام، وترك العمل الرسمي يقول عن هذه النقطة الحاسمة في تاريخه الدعوي : «وكثر انصرافي إلى عمل الدعوة والتبليغ، وكثرت جولاتي ورحلاتي الدعوية، فشعرت بأن هذا يؤثر على التدريس والتعليم، وقد كانت النفس قد ضجرت وملّت - بسبب تجارب مختلفة، والاشتغال بالجهود الدعوية- نظام التعليم الروتيني ومنهجه الرتيب والتقيدات، فقررت في سبتمبر عام ١٩٤٢م أن أقطع علاقتي الرسمية بدار العلوم، وأتخلّى عن الوظيفة..»[٦٧]. وكان لا بد أن يفعل الشيخ ذلك وخاصة أن بعض أسفاره قد تصل في مدتها إلى مدى ستة أشهر[٦٨]، وقد تطول أكثر من ذلك، إلى أن تستغرق عاماً كاملاً[٦٩] .

ولا يفوتنا هنا ونحن نتحدث عن توظيفه إمكاناته الأدبية في المجال الدعوي، أن نشير إلى ما ابتكره أبو الحسن من نموذج للدعوة، أبدع في عرضه وركّز عليه، وجعل منه خطّة للدعاة، ذلك هو نموذج دعوة الصحابي الجليل «ربعي بن عامر» رضي الله عنه، لـ «رستم» قائد الجيوش الفارسيّة إلى الإسلام، وحديثه عن المسلمين ومهمتهم السامية، في قوة وثقة وشجاعة[٧٠] ، وعن هذا النموذج يقول يوسف القرضاوي : «لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، وروحاً جديدة، والتفاتاً إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها، إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر - رضي الله عنه، بين يدي رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبّرت عن أهدافه بوضوح بليغ وإيجاز رائع : «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» أبو الحسن الندوي - فيما أعلم - هو أوّل من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف، وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت»[٧١].

كما أنه استحدث تجربة جديدة في المجال الدعوي الشعبي، هي عقد الاجتماعات المشتركة بين المسلمين وغير المسلمين والحديث إلى الجميع، وهي تجربة نبتت في ظلها فكرة (رسالة الإنسانية) وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، وكانت تجربة فريدة في تاريخ الهند الحديث[٧٢] . ولنترك الحديث لأبي الحسن عن هذه التجربة الجديدة الحيوية : «قادني جهازي الفكري والتربوي - إلى اتجاه جديد، وتجربة في المجال الدعوي الشعبي، وهو عقد اجتماعات مشتركة شعبية، يدعى فيها غير المسلمين أيضاً باهتمام بالغ، لاسيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطابات مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم، تعرّفهم بالإسلام، وتزيل الوحشة منه، وسوء التفاهم، وتحملهم على دراسة الإسلام والسيرة النبوية بعمق وإنصاف، وتجسّم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، للإفلاس الروحي والعقائدي والانهيار الخلقي، وسيطرة النظر المادي والشره للمال على المجتمع، وينذرهم بفداحة الخطب وقرب الخطر، وذلك كله باللغة التي يفهمونها أكثر، والأسلوب الذي يؤثر فيهم، فكانت تستعمل

فيها الكلمات الإنجليزية بدل المصطلحات الأردية، والكلمات الهندية البسيطة السائدة»[٧٣] .

وقد كان لهذه التجربة تأثير على النفوس، ويصف الشيخ ذلك[٧٤] ، حين حدّث ذات مرة ، أنه عقب خطابه في إحدى هذه الاجتماعات المشتركة في مدينة (يوان) في ولاية بهار، أخذ الناس ينادون مطالبين بالمزيد ، يقول الشيخ : "وقالوا بلسان الحال :

وحدّثتنا يا سعدُ عنهم فزدتنا

شجوناً فزدنا من حديثك يا سعدُ

فقلت : إنه ليس من عادتنا أن نستمر في الخطاب من غير ضرورة إذا أشبعنا الموضوع، وكنت أريد الجلوس بعدما قلت ذلك ، إذا بشيخ هندوكي معمّر، تقدم إلى المنصة وهو يقول: "Wonder full , Wonder full" (رائع، رائع) ثم قال : أريد أن أقول شيئاً ، فخفنا أن يقول شيئاً يزيل أثر الخطاب ويحدث النقاش، فحاولنا بأسلوب مهذّب لبق أن نجلسه، ولكنه وصل إلى المنصة ، وأخبرنا أعيان المدينة بأنه من كبار المحامين الناجحين هنا، وهو سكرتير أو رئيس «الحزب الاشتراكي الجماهيري» وقال وهو أخذ بمكبرة الصوت : (إنني سمعت في حياتي خطابين تأثرت بهما جداً، أحدهما خطاب C.R. Dass[٧٥]، والثاني خطاب مولانا اليوم، وأقول بكل صراحة : إن محمداً ﷺ رسول الله الحق، ويا مولانا إنك لست للمسلمين فحسب، بل إن لنا أيضاً حقاً عليك وسوف نكلفك بزيارة هذه المدينة مرة ثانية»[٧٦] .

وقد تحولت هذه التجربة الناضجة إلى حركة «رسالة الإنسانية» التي أحدثت لدى كثير من المنصفين والمثقفين من فضلاء غير المسلمين، رغبة في فهم الإسلام، وتطلعاً إلى فهم رسالته[٧٧] . وقام الشيخ في سبيل هذه الحركة بكثير من الجولات في ولايات عديدة في الهند وعقد فيها اجتماعات ناجحة[٧٨] .

وأما مجالات اهتمام الشيخ الدعوية التي سخّر لسانه وقلمه ونشاطه، فنجدها اهتمامات شاملة لمجالات عديدة، ومتنوعة، يجمعها إطار واحد، وتدور حول محور واحد هو أنها اهتمامات دعوية، تتوجه إلى قضايا الأمة الإسلامية، والإنسانية؛ ونجد تلخيصاً لهذه الاهتمامات والمجالات في بحث الشيخ القيم الذي ألقاه في الجلسة الأخيرة لمؤتمر الدعوة الإسلامية الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة[٧٩] ، ونشير إليها بإيجاز شديد فيما يلي[٨٠] :

١ – تحريك الإيمان في نفوس الشعب والجماهير المسلمة، وإثارة الشعور الديني فيها.

٢ – صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف.

٣ – تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له الذي يؤثره على النفس والأهل والولد.

٤ – إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ومن بيدهم الثقافة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية، بصلاحية الإسلام وقدرته على قيادة الإنسانية إلى الغاية المثلى وبر السلام والسعادة.

٥ – قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب[٨١] المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب وصوغه صياغة إسلامية جديدة ، تتفق مع شخصية الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها .

٦ – إيجاد حركة علمية قويّة دولية، تعرّف الطبقة المثقفة بذخائر الإسلام العلمية، وتراثه المجيد، وإبراز الفقه الإسلامي وقوانينه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم.

٧ – الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية، وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها، وتجريد الأمة من حضاراتها الخاصة التي نشأت في ظلال دينها وتعاليم شريعتها وذوقها الديني الخاص، يعني عزلها عن الحياة.

٨ – معاملة الحضارة الغربية – بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ، كمواد خام يصوغ منها قادة

الفكر، وولاة الأمور في العالم الإسلامي حضارة قوية عصرية، مؤسسة على الإيمان والإخلاص والتقوى، والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر .

٩ - إقناع الحكومات - في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامية - المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي، أو بعملية تطوير للإسلام، وتفسيره وفق مصالحها السياسية، وأهواء قادتها الشخصية، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في بلد إسلامي .

١٠- القيام - في الدول غير الإسلامية - بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر، أما البلاد التي فيها أقليات مسلمة، فالاهتمام بتمثيل الإسلام والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار، ويستهوي القلوب، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية.

١١- وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية في العالم الإسلامي، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبعد النظر، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسة، التي تملك زمام قيادة البشرية .

وختم بيانه الشامل المؤثر بقول الله تبارك وتعالى : ﴿إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٨٢] .

١٢- ومن القضايا التي شغلته في مجال دعوته، الرد على زعماء القومية العربية، وخاصة بعد هزيمة العرب النكراء في ٢٩ صفر ١٣٨٧هـ/ ٥ حزيران عام ١٩٦٧م واستيلاء إسرائيل على القدس وخروج الضفة بكاملها، يقول الشيخ: «لقد ركّز هذا الحادث الأليم كل قواي ومواهبي في الخطابة والكتابة ، وجل أوقاتي وعنايتي على الرد والمعارضة الشديدة لصاحب هذا الخزي والمسؤول عن هذه الهزيمة الشنيعة ... وأصبح الموضوع الأساسي لخطاباتي وكتاباتي»[٨٣].

١٣- ومن القضايا التي شغلته، وكان لها مجالها في دعوته ونشاطه الأدبي، نصرته للقضايا الإسلامية في بلده العلماني (الهند) والدفاع عن الأحوال الشخصية الإسلامية[٨٤] ، وكان له دوره البارز في حلّ قضايا المسلمين، ومواجهته لحملات العداء والكراهية ضد المسلمين، وقام بمجهودات فعّالة مع قادة البلاد السياسيين، وزعماء الحركات ، والمنظمات الشعبية والاجتماعية، والمثقفين، والحوار البليغ مع الجميع لمواجهة العناصر المتطرفة[٨٥].

ألوان الأدب المختلفة :

تنّوع نشاط أبي الحسن الندوي الدعوي الأدبي، وبرز في ألوان متعددة من الأجناس الأدبية المختلفة، تمثّلت في الخطبة والمحاضرة، والمقالة الكتابية، والرسالة، والقصّة وما يلحق بها من تراجم وسير. ونتناولها بالحديث فيما يلي :

أ - الخطبة والمحاضرة :

من أبرز صفات أبي الحسن المعدودة، أنه خطيب مصقع، وأنه صاحب موهبة عالية في الحديث والمحاضرة، وقد تهيأ لها وتهيأت له منذ مرحلة الطفولة، ولابد أن نشير هنا إلى ما كان يفعله وهو طفل في الثامنة من العمر، حيث جمع له محتويات مكتبة صغيرة، ضمّت كتباً ورسائل صغيرة بالأوردية في السيرة النبوية وقد قرأها، ونفذت مضامينها إلى قلبه وعقله، وقد أنشأت في نفسه رغبة أن يعقد جلسة للأطفال يتحدث إليهم عن السيرة أو يقرأ لهم في بعض تلك الكتب، وكان حريصاً على دعوة الأطفال من أترابه، وحريصاً على حضورهم تلك الجلسة[٨٦] ، يقول عن ذلك : «فدعوت الأطفال الصغار مثلي ومن أترابي، ومررت لأجل ذلك على بيوتهم واحداً واحداً، ولاثت لي إحدى أختيّ عمامة صغيرة على رأسي، وكنت لم أتجاوز الثامنة من

عمري وأخذت كتاباً من تلك الكتب المجموعة عندي، وقد كانت معرفتي وعلمي بالموضوع بحيث كنت أدعو سيد قريش وجدّ نبينا محمد ﷺ عبد المطلب، بعبد المطْلب، بإسكان الطاء وفتح اللام، وكان الوالد رحمه الله - قد وقف بجانب هذا المجلس يسمع ابنه وهو يقرأ من هذا الكتاب، ولا تسأل عن موجة الفرح التي كانت تغمر جوانحه، فقد رزقه الله حظاً وافراً من حبّ النبيّ ﷺ، وبه تتحلّى كتابته بما تتحلّى من رونق ورواء، وطلاوة وجمال، ويمكن أن تقدّر سروره بابنه الصغير، ولسانه -على صغر سنه- يلهج بذكر النبي الحبيب، عليه الصلاة والسلام، الذي هو مصدر كل خير وبركة، ورشد وهداية، وهو بذلك يفسح المجال في الدخول في السعداء الذي يكتب لهم الاشتغال بالسيرة العطرة حديثاً وتأليفاً»[٨٧].

وقد وضع أبو الحسن قدمه - منذ ذلك اليوم - في طريقه الصحيح الذي سار عليه طيلة حياته، ذلك الطريق اللاحب الطويل، في سبيل الدعوة الواضحة الصريحة، ذلك الطريق الذي شرّق به وغرّب في أرجاء أغلب الأرض، فظل معتلياً منابر الخطابة، والمحاضرة، والحديث إلى الناس، يمارس ذلك في رغبة وإقبال وسعادة، فلا يسنح موقف، أو مناسبة، أو لقاء، أو ندوة، أو مؤتمر، وما أكثر ذلك في حياته، وما أوسع مداه المكاني الذي كان على امتداد العالم - إلا ويطير إليه على جناح السرعة، ويكون له فيه القِدْح المُعلّى بياناً وحديثاً حسناً يهدي بإذن ربه إلى صراط مستقيم.

وقد تنوّعت خطاباته ومحاضراته؛ من محاضرات عامة، وكلمات في مؤتمرات وندوات، وخطابات عامة في تجمعات جماهيرية، ولقاءات طلابية، أو حشود شعبية، وحوارات ونداءات، أو أحاديث إذاعية ومحاضرات تعليمية. ونجد أنفسنا أمام تراث خطابي ضخم، خلّفه الشيخ رحمه الله، ويمكن الإشارة إلى ذلك بإجمال قدر الإمكان على النحو الآتي :

أ - محاضرات عامة :

من أهم المحاضرات التي ألقاها في بداية عهده بالمحافل العلمية الكبيرة، محاضرته عن «الدين والمدينة» عام ١٩٤٢م، بناء على دعوة تلقاها من مجلس الإسلاميات بالجامعة الملية الإسلامية في دلهي، وكان يقر أنها خطوة جريئة، وعمل يتطلب - على حد تعبيره - «همة كبيرة عالية» وأنه لذلك اختار موضوعاً يسترعي الانتباه، وأعده إعداداً جيداً وطالع من أجل ذلك الكتب التي في متناول يده[٨٨] . كما ألقى محاضرة تفصيلية بعنوان : «المد والجزر في تاريخ الإسلام»[٨٩] استعرض فيها حال العرب قبل الإسلام، والتغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في معتقداتهم وعقليتهم وضميرهم، وعزائمهم، والدلالة على أسباب هذا التحول الحقيقية، الكامنة في البعثة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وتنفيذ العرب للتعاليم الإسلامية، وقوة إيمانهم ويقينهم، ثم ذكر الانحطاط الذي تجلّى في أوضاع المسلمين، وطبيعة الأمة الإسلامية المعاصرة، وكشف النقاب عن أسبابه الداخلية والخارجية ونتائجه الظاهرة، وذكر علاجها الصحيح[٩٠] .

وفي أعقاب حدث تقسيم الهند إلى دولتين، وما أحدثه ذلك من آثار وآلام في نفوس المسلمين في الهند عام ١٩٤٧م، وكان الشيخ يرى «أن التقسيم سيفقد المسلمين نفوذهم السياسي وتأثيرهم الديني في الهند ويجني على حركة الدعوة الإسلامية» وفي تلك الأثناء عقدت عدة اجتماعات دعوية مهمة في لكهنؤ، وألقى فيها الشيخ عدة محاضرات، وكان أهمها وأشدها تأثيراً الخطاب الذي ألقاه في ٦ ديسمبر ١٩٤٩م بعنوان : «بين الصورة والحقيقة» بالأردية، وقد نقله إلى العربية، ابن أخيه الأكبر (محمد الحسني)[٩١] وقد بيّن في هذه المحاضرة أن هناك فرقاً كبيراً بين الصورة والحقيقة، وأن حقيقة صغيرة انتصرت دائماً على الصورة، مهما كانت كبيرة، وقدّم أمثلة

من تاريخ العهد الإسلامي الأول على ذلك[٩٢].

وفي زيارته لمصر عام ١٩٥١م كانت أول كلمة ارتجلها في اجتماع ضم أعضاء البعثة التركية إلى الأزهر وطلبة سوريا وفلسطين، كانت كلمة فياضة بليغة عبّرت عن فكره الإسلامي النيّر في عصر الحضارة والعلم[٩٣]. وقد ألقى فيهم عدة محاضرات كذلك، يقول الشيخ: «ولقد وجدت فرصة طيبة للخطاب في الطلاب السوريين والأندونيسيين والأريتريين»[٩٤]. كما ألقى محاضرة عن محمد إقبال في دار العلوم[٩٥]، بعنوان: «شعر إقبال ورسالته» وكان من أهم المحاضرات التي ألقاها أمام جمع من الفضلاء في قاعة جامعة دمشق، خطابه حول قضية فلسطين بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٥١م وكانت بعنوان «العلم والتاريخ في قضية فلسطين»[٩٦]. كما ألقى عدداً من المحاضرات في الهيئة العلمية الإسلامية، وجمعية التمدن الإسلامي، والجمعية الغراء، قدّم فيها تجاربه وآراءه في الدعوة العامة والاتصال بالناس، وأهمية العمل الدعوي في المدارس والكليات ونبه إلى خطورة أن يبقى العلماء بمعزل عن العامة، دون اتصال بهم وإيقاظ لشعورهم الديني[٩٧].

وبعد عودته من دمشق إلى الحجاز في أغسطس عام ١٩٥١ ألقى محاضرات في المعهد السعودي، وكلية تحضير البعثات، وكلية الشريعة بالطائف، وبعد عودته إلى الهند، ألقى في مستقبليه في لكنهؤ، كلمة عن انطباعاته عن رحلته، بناءً على طلبهم، فألقى فيهم كلمة موجزة وأنشد بيتين من شعر محمد إقبال يقول فيهما[٩٨]: «لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتجفت له الجبال بالأمس، إنّ السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض، لقد طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد، كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر».

وفي زيارته الثانية إلى الشام عام ١٩٥٦م بدعوة رسمية، أستاذاً زائراً ألقى عدة محاضرات مهمة في كلية الشريعة في الجامعة السورية، وكانت المحاضرة الأولى بعنوان «التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي» والثالثة بعنوان «الإمام الحسن البصري وخلفاؤه» وكانت المحاضرة الثامنة والأخيرة بعنوان «حجة الإسلام الغزالي، مصلحاً اجتماعياً» وكان مجموع سلسلة محاضراته ثماني محاضرات، تمت بنجاح وقبول[٩٩].

وأثناء إقامته في سوريا، قام بزيارة للبنان، وألقى خطاباً أمام الشباب كما ألقى في خلية الملك سعود[١٠٠] ببيروت محاضرة في موضوع «الشعوب لا تعين على أساس المدنيات، بل تعين بالرسالات، وتعضدها روحها وخصائصها»[١٠١].

كما قام أيضاً بزيارة لتركيا في تلك الأثناء وفي طريقه إلى تركيا أقام ليلة في حلب، وألقى هناك محاضرة في مركز الإخوان بعنوان «حاجتنا إلى إيمان جديد» في أسلوب دعوي، صارح فيها العرب في مرارة شديدة، وانتقد فيها القومية العربية بقوّة، يقول عن ذلك: «كأنني قلت لهم: إنكم لو اتخذتم القومية العربية دينكم وإيمانكم فكأنكم تخدعون المسلمين في شبه القارة الهندية الذين لم يزالوا على مدى تاريخهم الطويل متمسكين بالقومية الإسلامية، إذ دعوتموهم إلى الإسلام ورجعتم أنفسكم إلى جاهليتكم القديمة» ويقول: «ولما انتهى الخطاب فكأنما قد سال سيل الحب، وقلّما رأيت في جمع مثل هذا الحب والودّ وإبداء عواطف التقدير والثناء، وهذا دليل على رحابة صدر العرب، وسعة أفقهم وأريحيتهم، يصعب أن يوجد له مثيل بعد هذا الانتقاد اللاذع الشديد في أي شعب أو بلد آخر»[١٠٢].

وحين قام برحلته إلى أوربا في سبتمبر عام ١٩٦٣م ألقى هناك أحاديث ومحاضرات منها حديث في المجلس الإسلامي بجامعة (إيدمبرا) وخطاباً في قاعة الاتحاد الطلابي بجامعة لندن، وكانت أهم محاضرة في جامعة لندن بعنوان «بين الشرق والغرب»[١٠٣].

وفي رحلته الثانية إلى أوربا عام ١٩٦٤م، ألقى خطاباً مهماً في المركز الإسلامي في لندن أمام الطلاب والشباب، وألقى خطاباً في برلين للشعب الألماني في جامعة الهندسة بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٦٤م ، وفي طريق عودته عرّج على تركيا حيث ألقى في إستانبول خطاباً في مجموعة طيبة من صفوة المستمعين[١٠٤] .

وفي إقامته بمكة المكرمة في شعبان عام ١٣٨٧هـ، ألقى محاضرة في نادي الوحدة الرياضي بعنوان : «ميزان الربح والخسارة» ألقى فيها الضوء على موازنة الأرباح والخسائر، والنجاح والإخفاق، بعد هزيمة ١٩٦٧م واستيلاء اليهود على القدس والضفة الغربية وكيف ديس المجد والكرامة العريقة، وذكر أن طريقة استعادة هذا المجد الضائع، وسبيله إنما هو بالعودة إلى الإسلام، وأهاب بالعلماء العرب أن يتقدموا في المضمار وأن يضربوا أمثلة تحتذى، وكان له خطاب في شعبان من العام التالي ١٣٨٨هـ في قاعة المدرسة الثانوية في المدينة المنورة، حول هذا الموضوع نفسه، بعنوان «نظامان إلهيان للغلبة والانتصار» وقد عرّج في هذا العام على الكويت وألقى خطاباً في الموضوع نفسه، كان جوهره : «أن العالم العربي ليس في خطر من إسرائيل، بل من ذلك الضمير الذي ترك عمله وتخلّى عن مسؤوليته» وقد صرّح فيه بأن التغاضي عن الحقائق والواقع وتعطّل الضمير الإسلامي، وعدم احتساب القادة ومحاسبتهم، وقلة الاتعاظ والاعتبار بالحوادث والوقائع خطر حقيقي كبير وهذا هو الخطر الذي يواجهه العالم العربي»[١٠٥] .

وحين عصفت العصبية اللغوية والحضارية في باكستان وأدت إلى حادث انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية عام ١٩٧٢م كان ذلك حادثاً زلزل المسلمين ورجال الفكر، ظل الشيخ يترقب فرصة مناسبة حتى يخفف عن ألم قلبه وجرح فؤاده ، وفاجأته دعوة من كلكتة، فانتهزها، وتحدث بمشاعره الجريحة في محاضرة قوية مؤثرة[١٠٦] .

وفي زيارته للأردن عام ١٩٧٣م ألقى خطباً ومحاضرات في مختلف المدن والأماكن وخاصة السَّلْط وإربد[١٠٧] . وفي ١٩ أغسطس ١٩٧٣ كانت للشيخ تجربة مؤثرة في حياته، حين زار مركزاً للقوات المسلحة في المملكة العربية السعودية، وطلب منه أن يخاطب الجنود، يقول عن هذه التجربة : «فلما اصطف الشباب المسلحون، وحيونا بتحية إسلامية غمرتني موجة من سرور إيمان ونشوة، وأخذتني هزّة لم أعرفها من قبل، فأدمعت عينيّ، وفتقت قريحتي، فتكلمت بلسان القلب قبل أن أتكلم بلسان الفم»[١٠٨] .

وفي سفره هذا كان له خطاب آخر في المكتبة العامة بدبي بدولة الأمارات العربية المتحدة، وكان عنوان خطابه " كيف دخل العرب التاريخ ؟»[١٠٩] .

وحين سافر إلى الخليج عام ١٩٧٦م ألقى كلمة في الديوان الأميري بأبو ظبي، كان موضوعها: «نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة»[١١٠] .

وفي زيارته للمغرب عام ١٩٧٦م حضر حفلة تأبين الزعيم (علال الفاسي)[١١١] رحمه الله ، وألقى كلمة في هذه الحفلة، ذكر فيها أنه بدأ حياته عالماً دينياً، إذ كان أستاذاً فاضلاً في جامعة القرويين، قبل أن يكون زعيماً سياسياً، وذكر ما بينه وبين علماء شبه القارة الهندية من شبه كبير، من حيث قيادة حركة التحرير للبلاد، ثم بيّن خصيصته الثانية، وهي دراسته للنظم والفلسفات المعاصرة بعمق ، ثم نوّه بخصيصته الثالثة المتمثلة في أنه كان أعرف بعلماء الهند ومفكريها من غيره من العلماء والمفكرين العرب[١١٢] .

وتهيأت للشيخ فرصة السفر إلى أمريكا في أبريل عام ١٩٧٧م وفي هذه الرحلة ألقى عدة خطابات متنوعة وصلت إلى عشرين خطاباً ومحاضرة، منها خطاب في

المركز الإسلامي في واشنطن، فألقى عدة محاضرات في خمس جامعات أمريكية، وألقى خطبة الجمعة في قاعة الصلاة بالأمم المتحدة، وجوامع تورنتو، ودترويت، وتحدث في هذه الخطب والمحاضرات بصراحة وواقعية(١١٣) .

وفي عام ١٤٠١هـ وهو بمكة المكرمة طلب منه الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي - أنذاك - الشيخ محمد بن علي الحركان - رحمه الله - أن يفتتح دورة في المحاضرات لذلك العام، فقدّم محاضرة في موضوع «دور الحديث الشريف في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته»(١١٤).

وفي مناسبة منحه الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير، ألقى محاضرة بعنوان: «مكانة المثقفين الجامعيين ومسؤولياتهم» وكان ذلك في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٨١م(١١٥) .

وفي سيلان ألقى كلمة في حفلة توزيع الشهادات العربية في الجامعة النظمية(١١٦)، وكانت له أيضاً أحاديث متعددة أمام الطلاب والمدرسين وأهل البلاد، وكان ذلك عام ١٩٨٢م(١١٧).

وفي رحلته إلى بريطانيا عام ١٩٨٣م تلبية للدعوة للمشاركة في تأسيس المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد، ألقى محاضرة قيمة في موضوع «الإسلام والغرب»، وزار خلال إقامته المراكز الإسلامية، وألقى عدة خطابات ومحاضرات كان موضوعها المشترك عن مسؤولية المسلمين المقيمين في بريطانيا، والتنبيه إلى المنهج الصحيح، والنظر في الأخطار ومقاومتها. والحفاظ على الشخصية الإسلامية(١١٨) .

وفي زيارته إلى إمارة الشارقة، ألقى خطاباً(١١٩) في حفل افتتاح مكتبة الشيخ عبد الله العلي المحمود وتحويلها إلى مكتبة عامة في الشارقة وذلك في ١٢ صفر من عام ١٤٠٤هـ، ومكث أسبوعاً ألقى خلاله خطباً ومحاضرات، كان من أهمها محاضرته في جامعة العين بعنوان «أزمة هذا العصر الحقيقية»، وخطابه في كلية البنات بالجامعة نفسها بعنوان «دور البنات المسلمات في المجتمع الإسلامي» وخطابه في مسجد سيدنا سعد بن أبي وقاص في «أبو ظبي» بعنوان «إلى الإسلام من جديد» وخطابه في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب في الشارقة في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾(١٢٠) .

وبعد ذلك توجه إلى الكويت حيث ألقى محاضرة بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري، بعنوان «الإسلام والمدنية الإنسانية» في جامعة الكويت، كما ألقى محاضرة أخرى بعنوان «الإسلام والحضارة الإنسانية»(١٢١) .

وفي زيارته للأردن عام ١٩٨٤م ألقى خطباً ومحاضرات عامة كان موضوعها الرئيس «الإسراء والمعراج» وما في ذلك من المعاني والأغراض والنتائج، والإشارة إلى انتقال الإمامة والقيادة، ومنصب الإرشاد والهداية من بني إسرائيل إلى المسلمين، وإعلان سيدنا محمد ﷺ للشعوب والأمم. وكان خطاب طويل في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالزرقاء شهده جمع غفير، وألقى محاضرته الثانية في جامعة اليرموك، تناول فيها معركة اليرموك ودعا إلى أخذ الدروس منها، وألقى خطاباً في كلية العلوم العربية بعمان، وجّه الدعوة فيه إلى استعادة القوة المعنوية للمسلمين والحفاظ على خصائص الشخصية الإسلامية، كما ألقى كلمات في مجمع البحوث، وفي مسجد صلاح الدين بعد صلاة الجمعة كان موضوعها شخصية صلاح الدين وسيرته وخصائصه، وكان خطاباً حماسياً قوياً، وألقى كلمة في مركز الدعوة والتبليغ بعمان، أشار فيها على المشتغلين بهذا الطراز من الدعوة أن يراعوا البلد والجوّ ومتطلبات العصر، والمقتضيات المعاصرة، وأشاد بأهمية الأخلاق والمعاملات مع أهمية العبادات والأذكار ونبّه إلى المسئوليات الفردية والاجتماعية للعاملين في مجال الدعوة، وعدم التغاضي عن حاجات العصر ومقتضياته وأخطاره.

وفي زيارته لليمن عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ألقى خطاباً في جامعة صنعاء، تحدّث فيه عن شلّال الإيمان والإخلاص الذي أكرم الله به هذه الأمة الإسلامية عامة، وأكرم به بلاد اليمن خاصة، حين شهد لهم لسان النبوة حيث قال رسول الله ﷺ، حين جاء وفد اليمن : «أتاكم أهل اليمن، أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية»[١٢٢] .

وكانت ثلاث محاضرات أخرى، إحداها في كلية الطيران، والأخرى في مركز المدرعات، والخطاب الثالث كان في جامع المشهد[١٢٣] . وفي بيت أحد تجار أهل تعز قدّم حديث شكر وتوجيه، وكان له في المساء خطاب في المسجد الجامع (جامع المظفّر) وكان موضوعه كلمة فاتح مصر سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه، التي خاطب بها الجيش الإسلامي الفاتح والمسلمين عامة، وهي قوله : (إنكم في رباط دائم لكثرة الأعداء حولكم، وتشوّق قلوبهم إليكم)[١٢٤] . وفي الحديدة موطن شيخه خليل بن محمد اليماني، ألقى خطاباً موجزاً في مركز الدعوة والتبليغ هناك، وخطاباً آخر طويلاً في المعهد العلمي، أفاض فيه، وتحدث عن عالمية اللغة العربية بفضل نزول القرآن الكريم[١٢٥] .

وفي سفره إلى بنغلاديش في مارس عام ١٩٨٤م ألقى خطابات في اجتماعات كبيرة، وكان أول خطاب في الجامعة الإسلامية، كان عنوانه «الحاجة إلى قدر نعمة الإسلام والشكر عليها» ، وكان أهم خطاباته ما ألقاه في المؤسسة الإسلامية، وكان موضوعه «الفتح للحب الصادق والإنسانية المخلصة» تناول فيه الخصائص والمميزات للشعب المسلم عن غيره من الشعوب؛ من حيث «الإخلاص، والعاطفة الإيمانية، وعاطفة التضحية والفداء، والبساطة، والشجاعة...»[١٢٦] ، وألقى خطاباً في الجامعة الإمدادية، وجّه فيها دعوة قويّة للعلماء للتبريز والبراعة في اللغة البنغالية، لما في ذلك من القيادة الأدبية والتفوق على أقرانهم في البلاد وألا يقصروا اهتمامهم وملكاتهم على الأردية والعربية فحسب، وأهمية اقتدارهم على الأساليب الأدبية الجديدة، وألا يتخلفوا عن ركب العلم والأدب والثقافة[١٢٧] . وألقى خطبة بالأردية في مسجد «بيت المكرم» قبل خطبة الجمعة، صارح الناس فيها بأن مصير هذه البلاد مرتبط بالإسلام، وأشار عليهم بما يحفظ إيمانهم وصلتهم بالتعاليم الإسلامية والحياة الإسلامية[١٢٨] .

وحين زار كراتشي وأقام بها أربعة أيام ألقى هناك ستة خطابات، كان الخطاب الأول في جامع بنوّري تاون الكبير قبل خطبة الجمعة بعنوان "الحاجة إلى إقامة مجتمع إسلامي على نطاق الشعب كله والبلاد كلها" وألقى محاضرة ثانية ، أثبت فيها أن المجتمع الصالح القوي هو أساس الحضارة والسلطة ومنبعها الأصيل، وفي المحاضرة الثالثة، كانت النقطة المركزية هي "مسؤولية السلطة الإسلامية الصالحة وبركتها وخيرها". ثم كان له خطاب رابع في جامعة كراتشي أمام طلبتها وأساتذتها ومسؤوليها، ركّز فيها على موضوع سيرة الشباب وصلاحهم ودورهم القيادي، وقدرتهم على المحافظة على البلاد والإسهام في رقيها ورفع مستواها، ثم ألقى خطابه الخامس في الجامعة الإسلامية ببنوري تاون، ألقى فيها الضوء على مسؤولية العلماء وصفاتهم المطلوبة، ثم كان خطابه الأخير في جمعية نشر القرآن الكريم في مسجد الفرقانية حيدر أباد وكالوني، وكانت نقطة الخطاب المركزية كلمة سيدنا عمرو بن العاص " إنكم في رباط دائم»[١٢٩] .

وفي زيارته إلى المدينة المنورة عام ١٤٠٥هـ، ألقى محاضرة في نادي المدينة المنورة الأدبي بناءً على مطالبة سابقة من النادي في أن يلقي محاضرة فيه في موضوع أدبي، وقرّروا أن يكون موضوعها «دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر» وكان له خطاب آخر في الجامعة الإسلامية، في موضوع «أزمة إيمان عالمية ومسؤولية

العلماء المسلمين» كما ألقى في هذه الرحلة خطاباً في نادي مكة الثقافي ، وألقى كلمة قيمة في حفل الاستقبال الذي نظمه ترحيباً بالشيخ عبد المقصود خوجة في يوم ١٥ ربيع الآخر عام ١٤٠٥هـ، نادى فيها بلسان محمد إقبال «قم يا باني الحرم وسادنه، قم لبناء العالم من جديد» تدبّر فيها قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[١٣٠] . وذكر أن العبرة بالقيمة لا بالقامة وقال: «لمن يقال هذا؟» لهذه الحفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار، تألفت من الأنصار أصحاب الدار والمهاجرين المغتربين، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة وألف، ولقد حثّ الله على المؤاخاة الإسلامية، وربط المهاجرين بالأنصار، والأنصار بالمهاجرين، وأثار فيهم روح الأخوّة الصادقة، وحثهم على أن يكونوا وحدة جديدة، وحدة تقوم على الإيمان وعلى الكلمة، وعلى الترحّم للإنسانية، تقوم على المبدأ والعقيدة، فقال لهم: إذا قصّرتم في إنشاء الأخوة، وفي تكوين هذه الوحدة التي جهلها العالم وتناساها التاريخ - وبكلمة أصح - نسيها التاريخ منذ مئات السنين، إذا قصرتم في إنشاء هذه الوحدة التي تقوم على الرسالة الفاضلة وعلى الأخوة الصادقة المخلصة، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾.

«وما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثرب التي سُمّيت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ، ما وزن هذه القلة وما عدد أفرادها ؟ ما وزن هذه القلة في الميزان السياسي، وفي الميزان الدولي، وفي الميزان الاجتماعي، حتى في الميزان العلمي؟ إنهم - كما اعتقد - لم يبلغ عددهم ألفين، وقد أجرى إحصاؤهم ثلاث مرّات كما ورد في صحيح البخاري، وكان عددهم في آخر إحصاء بلغ خمسمائة وألف نسمة[١٣١] .

فلمن يقال هذا ؟ هل يقال للرومان الذين سيطروا على نصف الأرض، والذين كانوا يتمتعون بأكبر إمبراطورية، وأكبر حضارة قامت في ظلّها، وبأكبر قوّة حربية وقوة دولية، وقوة سياسية، هل يقال هذا للفُرس الإيرانيين الذين كانوا توزعوا الرومان في بسط نفوذهم بالاستيلاء على الأرض المعمورة، كان هؤلاء الرومان والفُرس هم المؤثّرين في مصير الإنسانية، وهم الذين كانوا يجدّفون سفينة الحياة، وسفينة الحضارة، وهم الذين كانوا يتصرفون في وسائل الأمم - إذا صحّ هذا التعبير- وفي أوضاع العالم، هل يقال لهم : ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ؟ ﴾ .

قيسوا سادتي وإخواني، قيسوا أولاً حجم الكلمة وروعتها، كلمة «فتنة في الأرض» ما أكبر حجمها وما أثقل وزنها، لم يقل «فساد» فحسب، بل «فساد كبير» .

إنه يقال لهذه المجموعة الصغيرة التي قام عليها الإسلام، وقامت على أعناقها رسالة الإسلام، إن قصرتم أيها المسلمون في تكوين هذه الوحدة الإسلامية الإيمانية الرحيمة العادلة، وإن لم تقيموا هذه الوحدة على الإخلاص، وعلى أساس الإيمان والتضحية والإيثار والتفاني، فلا نتيجة لذلك إلا أن تكون ﴿ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

هذه قيمة الأمة المسلمة حين كانت في عدد المئات، في عدد ألف أو ألفين، هذا هو التصوير الصادق، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير، وهذه القيمة الكبيرة، وهذه المكانة الرئيسة في خريطة العالم، ومجموع الأمم، فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته، وأن الأمة المسلمة برسالتها وإيمانها وعقيدتها وفضلها الخلقي، وضميرها الحيّ، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير، قيمة هذه الأمة في هذه الخصائص التي أكرمها الله بها، ليست بكثرة العَدد والعُدد، وبكثرة المساحة المكانية التي تسيطر عليها وتحكم فيها، ولا بالفخامة وبحجم المساحة الزمانية التي تؤثر

فيها. إنني أنظر إلى هذه المجموعة بهذا المقياس، وبمكبِّرة الإسلام، المكبِّرة التي أعطانا الإسلام ..»[١٣٢] .

وفي رحلته إلى بريطانيا لافتتاح المركز الإسلامي في أكسفورد عام ١٩٨٥م ألقى كلمة مختصرة بالعربية[١٣٣] في جلسة الافتتاح في ١١ أكتوبر ١٩٨٥م، وكان جوهر خطابه «إن قيام هذا المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد مبشِّر بالخير، تنفتح به أبواب جديدة من المعرفة الصحيحة والتفاهم، وتنكشف سبل جديدة للبحوث والدراسات العلمية، لا بد من تعميم الوعي الصحيح لما قدَّمه الإسلام من دروس الإنسانية والسعي لرفع الإنسان نحو الذروة السامقة والقمة العالية، كانت البشرية تئن تحت وطأة الدمار والهلاك، وكادت تلفظ نفسها الأخير، فقام النبي ﷺ، ونفخ فيها روح الحياة وبعثها من جديد، وإن التقدّمات الهائلة التي أحرزها الإنسان في القرون التالية، تدين لهذا الجهاد العظيم في سبيل إنقاذ البشرية، والرسول ﷺ هو الرائد لهذا الجهاد والقائد لهذا الكفاح، ولولا قيامه بهذه الجهود للأخذ بيد البشرية، لما كان لهذه الجامعات والمؤسسات عين ولا أثر، ولا تزال أياديه رحمة للعالم إلى يومنا هذا، فتأسيس هذا المركز الإسلامي ليس فضلاً من الجامعة ومنة منها، وإنما هو اعتراف بالجميل، وأداء للواجب، وإنما هي هدية الحب والتقدير وتقدّم إلى الإسلام عن طواعية وطيب نفس»[١٣٤]. وقدّم سماحته قبل مغادرته لندن خطابات في «المركز الخيري الإسلامي» و«مركز المسلمين الخيري» و «المركز الإسلامي»[١٣٥] .

وفي احتفال عام لهيئة قوانين الأحوال الشخصية، عقد الاحتفال العام في أبريل ١٩٨٥م في ميدان «منارة الشهداء» وقدّر عدد الحاضرين بنصف مليون إنسان، وخاطب الشيخ جميع المسلمين هناك بصفة خاصة، وحاسبهم بصراحة، ونبههم إلى أن مخالفة القوانين الإلهية، والتقصير في طاعة الخالق وتجاوز حدوده يؤدي إلى الفساد والمحن[١٣٦] . وفي زيارته لتركيا عام ١٩٨٦م، كان له لقاء مع الطلبة العرب وألقى فيهم كلمة وجيزة، وكانوا في شوق وأمل[١٣٧] .

وفي طريق العودة أقام مدة قليلة في كراتشي ألقى فيها خطابين: الأول بعنوان «الأخطار على المجتمع الإسلامي وطريق مقاومتها» والثاني خطاب مفصّل في موضوع الديانات والملل والأخلاق، وتاريخ سقوط الأمم وانحطاطها ورقيها، ونفسية المجتمع البشري وأوضاعه، وكان خطاباً مؤثراً[١٣٨] . كما ألقى أيضاً خطاباً في المسجد الجامع بحي سينّوري تاون في موضوع «الشكر على النعم» ثم كانت له محاضرات أخرى في مدارس وجامعات ومراكز دينية واجتماعات إسلامية[١٣٩] .

وفي سفره إلى ماليزيا عام ١٩٨٧م ألقى عدة محاضرات، فألقى في تركانوا خطاباً بالعربية قبل صلاة الجمعة ونقله إلى الماليزية الشيخ عبد الهادي، وكان بعنوان «إلى الإسلام من جديد» ، ثم خطب بعد صلاة العصر في قاعة زين العابدين خارج المدينة ، ثم ألقى في مركز التبليغ بكوالاترفكانو ويقع في مسجد كبير محاضرة عن أهمية التعليم الديني، ثم زار مقر الجامعة الوطنية وألقى خطاباً حول موضوع تعليمي، كما قدّم خطاباً في يوم ٥ أبريل ١٩٨٧م في قاعة المدينة الكبيرة، وفي مدينة قدح ألقى خطاباً يوم ٦ أبريل أمام طلاب معهد التربية الإسلامية وأساتذته ، كما ألقى في المساء خطاباً في مؤسسة الشؤون الزراعية المركزية، وبعد أن عاد إلى كوالالمبور قدّم خطابين: أحدهما في مركز جماعة التبليغ، والثاني في مركز حركة «أبيم»[١٤٠] . وفي زيارته للجامعة الإسلامية العالمية ألقى خطاباً، وبعد العصر ألقى خطاباً في مركز «الحزب الإسلامي»[١٤١] .

وحينما زار المملكة المتحدة عام ١٩٨٧م ألقى محاضرة بالعربية في جامعة أكسفورد بعنوان : «دور

الإسلام التاريخي في نشر العلم النافع الصحيح وقيادة البشرية وإصلاحها عن طريقه»(١٤٢) وفي دولة الإمارات ألقى عام ١٩٨٨م عدة محاضرات: منها محاضرة بعنوان «ترشيد الصحوة الإسلامية» ألقاها في المجمع الثقافي(١٤٣)، كما كان له محاضرة في اليوم نفسه في كلية الدراسات الإسلامية بدبي، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ وألقى محاضرة بعد المغرب في قاعة المحاضرات بالشارقة تحدث فيها عن انطباعاته عن المدنيات والحضارات(١٤٤).

وفي زيارته لأكسفورد عام ١٩٨٩م ألقى في قاعة المركز الإسلامي محاضرة أثبت فيها أنّ منة سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله، ﷺ، ليست على المسلمين فحسب وإنما كانت على الإنسانية بأسرها(١٤٥).

وفي عام ١٤١٠هـ كان في الرياض وألقى كلمة في الطلبة المتخرجين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية دعا فيها المتخرجين إلى الشعور بمسؤوليتهم، وكان فيهم طلبة من دول العالم الإسلامي، فحثهم على تأدية هذه المسؤولية بعد عودتهم إلى بلادهم وأن يمثلوا العلم والدين تمثيلاً صحيحاً، وأن يقاوموا الأخطار والتحديات التي تحدق بالمجتمع الإسلامي، وأن يشتغلوا بالدعوة والإرشاد(١٤٦). وفي منزل الشيخ عبد الله علي بصفر في جدة ألقى الشيخ كلمة مفصلة في موضوع «حاجة العالم الإسلامي إلى مجتمع مثالي»(١٤٧).

وحينما شرّف محمد صيام الإمام السابق للمسجد الأقصى دار العلوم ندوة العلماء في ١٢ شعبان ١٤١٢هـ - ١٧ فبراير ١٩٩٢م، أقام الشيخ له استقبالاً حافلاً وألقى كلمة ترحيبية بهذه المناسبة، وأعيدت في هذا الاحتفال كلمته المسجلة التي ألقاها في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمناسبة حضور السيد ياسر عرفات زعيم حركة فتح لتحرير فلسطين، أبدى فيها مشاعره ومشاعر المسلمين إزاء قضية فلسطين(١٤٨).

وفي رحلته لإنجلترا عام ١٩٩٢م ألقى في المؤسسة الإسلامية محاضرة جعل موضوعها آية في القرآن الكريم، وكانت المحاضرة عن «دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية» فتحدث بالعربية أولاً، ثم خاطب الحاضرين بالأردية، ثم قدمت خلاصة باللغة الإنجليزية(١٤٩).

كما ألقى خطاباً عاماً في المركز الإسلامي بلندن عن واجب الجالية الإسلامية ودورها البلاغي والنموذجي، ركّز فيها على قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه في مواجهته الدعوية للقائد الفارسي رستم، التي تعبر عن إيمانه وجرأته واعتداده بسمو رسالته(١٥٠).

ب - كلمات وخطابات في ندوات ومؤتمرات وملتقيات:

في إطار اهتمامات الشيخ أبي الحسن بقضايا المسلمين، دعا المثقفين المسلمين والمسؤولين من مختلف المؤسسات والمدارس الفكرية إلى ندوة استشارية تبحث قضايا الملّة الإسلامية تعقد في ندوة العلماء في شوال عام ١٣٦٧هـ، وقدم مقالاً مهماً معبراً حدّد فيه معالم الطريق(١٥١).

وفي المهرجان التعليمي لدار العلوم بمناسبة مرور ٨٥ عاماً على نشوئها، الذي أقيم في شوال عام ١٣٩٥هـ، قدّم كلمة مهمة اشتملت على دراسة تاريخية، وتحليل علمي في ضوء فلسفة التاريخ للعهود الإسلامية في الهند، ودعا فيها للتأمل والتفكير، خاطب فيها الضيوف من العرب ومندوبي العالم الإسلامي، وخاطب فيهم مستوى الداعية الرفيع بالنسبة لأي مستوى آخر فيهم، وقدّم لهم تجارب مسلمي الهند وحميتهم الدينية(١٥٢). وألقى في المؤتمر الإسلامي بدمشق في ٢٦ يونيو ١٩٥٦م كلمة بعنوان «ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي»(١٥٣)، وفي مؤتمر رابطة العالم الإسلامي الأول في ذي الحجة عام ١٣٨٤هـ ألقى مقالة بعنوان "تمثيل الحياة الإسلامية

الصحيحة مسؤولية البلد الأمين" وأنه يجب أن يحافظ دائماً على خصائصه ومكانته(١٥٤) .

وفي مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية التي عقد في الرباط في مايو ١٩٧٦م، ركّز في كلمته على أن الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنساني، والحركة التأليفية والكتابيّة الكبرى في النوع البشري إنما نبعا من نبّوة نبيٍّ أميٍّ ﷺ، وذكر أن «ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة – التي كانت هذه الأمة حاملة لواءها – بهذه الأميّة يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابة مقنعة عليه»(١٥٥) .

وفي لقاء ضيوف المؤتمر بالملك الحسن، ألقى الكلمة نيابة عن الضيوف، وقال بعد التحية بالسلام : «إنني أسعد بتبليغ رسالة كريمة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانة في عنقي، ومسؤولية على عاتقي، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، ينتظرون بفارغ الصبر، أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد، يعلقون به آمالهم، وإنهم يعيشون وضعاً متردياً عصيباً عجيباً، يحتاجون فيه إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ، وقلبه الواثق»(١٥٦).

وفي رحلته لأمريكا بدعوة من المنظمة الإسلامية الأمريكية لحضور مؤتمرها السنوي في مايو ١٩٧٧م ألقى خطابه في موضوع: «العلاقات بين العاملين للإسلام»(١٥٧).

وفي المؤتمر الآسيوي لرابطة العالم الإسلامي في باكستان عام ١٩٧٨م، أسند إليه الخطاب في الجلسة الأخيرة، وبدأ كلامه بثلاثة أبيات: بيت عربي ، وبيت فارسي، وبيت أردي؛ وكان البيت العربي :

حمامة جَرْعى دومة الجندل اسجعي

فأنت بمرأىً من سعاد ومسمع

ثم ذكر أن الرسالة التي ينبغي أن يحملها المؤتمر والحاضرون، وهي روح المؤتمر وجوهره، كانت تلك الكلمة الجليلة، التي صدع بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، خليفة رسول الله ﷺ وهو قوله: (أَيُنْقَصُ الدين وأنا حيّ؟!!)(١٥٨).

وأسند إليه في مؤتمر السيرة العالمي في قطر(١٥٩) كلمة الوفود، وكان خطابه مرتجلاً، تحدّث فيه بما فتح الله عليه، ويحدثنا عن تلك اللحظات وما فيها من مشاعر خاصة ، فيقول : «وجاءت نوبتي في الخطاب فشعرت بأن عقلي وقلبي تغمرهما عنوية هذا الموضوع، وحب ذلك النبي الطاهر الذي انتسب إليه، والشعور بعظمته ومكانته، فكأنني أشعر بلحظات صفاء وإشراق، وتنهال عليّ الكلمات والمعاني، وهناك علمت بحكمة كوني لم أعد المقال أو المحاضرة من قبل... وقلت: إن هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام، وألا تكون كنوداً، اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة : ألا تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة، التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول، ومن عالم التناحر، ومن عالم الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة، الموغلة في السفالة والجهالة، أخرجت هذه البعثة المحمدية، هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كل شيء؛ فكل ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمدية، وإنني أستحضر الآن بيتاً لشاعرنا وشاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلامية، وللشهادة الإسلامية، محمد إقبال، اسمحوا لي أن أنشده أولاً بلغته التي قال فيها هذا الشعر، فإن هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين :

ازدم سيراب آل أُمّي لقب

لا له رُست دَرِيَل صحراء عرب

يقول : «لقد هبّت نفحة من نفحات محمد النبي الأمي – عليه الصلاة والسلام – وفاضت قطرة من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلا بالوحي، فنشأت جنّات وحدائق، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب»(١٦٠) .

وفي الندوة العالمية للأدب الإسلامي، التي عقدت في

ندوة العلماء بلكنهؤ في أبريل عام ١٩٨١م، وكان موضوعها «البحث في الأدب العربي وآداب اللغات الأخرى عن العناصر الإسلامية»، ألقى سماحته الكلمة الافتتاحية[١٦١]، وفي مؤتمر «الإسلام والمتشرقون» بدار المصنفين بأعظم كره ، الذي عقد في المدة من ٢٦- ٢٨ ربيع الآخر ١٤٠٢هـ/ ١- ١٩٨٢، قدم كلمة بالأصل باللغة العربية، ونظراً لأن أكثر الحاضرين لا يفهمون العربية، ألقى كلمة بالأردية[١٦٢]، وفي الملتقى السادس عشر للفكر الإسلامي في الجزائر الذي انعقد في ١٠ شوال ١٤٠٢هـ قدم محاضرته في موضوع «طبيعة هذا الدين وسماته البارزة» ألقى فيها الضوء على مكانة النبوّة ودورها، وأهمية العقيدة الصحيحة، والحاجة إلى الحديث والسنة الشريفة[١٦٣] . وفي الندوة التي عقدت بدلهي في المركز العالمي في ١٩٨٦/٥/٤م عبّر في كلمته عن أحاسيسه ومشاعره، وقال: «يبدو أنه دق جرس الخطر الكبير في طول البلاد وعرضها»[١٦٤] ، وفي مؤتمر رابطة العالم الإسلامي الثالث، الذي عقد بمكة المكرمة في ١٨-٢٢ صفر ١٤٠٨هـ/١٩٨٧، كانت محاضرته بعنوان «الجبهات الحاسمة للدعوة الإسلامية في العصر ومجالاتها الرئيسية» وكان له أيضاً خطاب في موضوع «حرمة الحرمين الشريفين» وكان مسروراً لأهمية هذا الموضوع ومناسبته لأن يتقدم ببعض الكلمات المهمة الضرورية ، ويقول : «وقد شعرت في هذا الخطاب ببركة عجيبة، لعلها بركة هذا المكان، وشعرت بنفحات طيبة منعشة من نفحات الحرم، بدأت خطابي بآية من سورة الحج[١٦٥] ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١٦٦] ، كما ألقى خطاباً أخيراً في المؤتمر يوم الأربعاء ١٤٠٨/٢/٢١هـ [١٦٧] . وألقى سماحته خطبة مرتجلة في الاحتفال العام بكلكتة في المدة من ٦-٨ أبريل ١٩٨٥م الذي نظمته هيئة قوانين الأحوال الشخصية[١٦٨]. وفي الاحتفال الثامن للهيئة في بمباي في المدة من ١٥-١٦ ديسمبر ١٩٨٦م، استعرض في كلمته الأوضاع والظروف، وقدّم إنذاراً صريحاً من خطر قوانين الأحوال الشخصية المشتركة، أو القانون المدني الموحد، وكان استعراضه واقعياً وشاملاً[١٦٩] .

وألقى الكلمة الافتتاحية في الندوة العلمية التي عقدها مكتب رابطة الأدب الإسلامي في الهند ، عن المدائح النبوية[١٧٠]، وكان موضوعها «جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية»[١٧١] ، وفي ١٥ نوفمبر ألقى كلمة أعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي[١٧٢] .

وفي ندوة «تأثير حركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد على الأدب الأردي»[١٧٣] ألقى خطاباً في الجلسة الأخيرة[١٧٤] ، كما قدّم مقالاً بعنوان «مأثرة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الكبرى» في الندوة العلمية عن ابن تيمية في الجامعة السلفية ببنارس[١٧٥]، وبيّن أن تلك المأثرة تمثّلت في التركيز على أن النبوّة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة[١٧٦] .

وفي ندوة رابطة الأدب الإسلامي بتركيا[١٧٧]، في موضوع «الأدب الإسلامي للأطفال»، ألقى كلمته التي بيّن فيها حقيقة الأدب ودوره القيادي ، وذكر أن كلمة الأدب، انتقلت من اللغة العربية إلى اللغة الأردية والتركية ، وقال: «فينبغي للأدباء والكتّاب ألا يغفلوا هذا الجانب للأدب، ويضعوا الخلق موضع عنايتهم وتقديرهم، ولاسيما في هذه الأيام التي يستعمل فيها الأدب ، كأداة قوية مؤثرة للهدم والبناء، والإفساد والإصلاح، والخير والشر، ويجب علينا أن نقوم بدعم صلة الأدب بالخلق إذا تسرّب إليها الضعف والذبول»[١٧٨] .

وفي أعقاب الغزو العراقي للكويت، انعقد مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وقصر مقاله الذي

قدّمه لهذا المؤتمر على الإشارة إلى هذا الغزو غير الديني، وغير الخلقي، وغير المبدئي، الذي لا مبرر له، والمتنافي مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة، والقوانين الدولية، فضلاً عن التعاليم الإسلامية السامية النبيلة، وأكّد على ضرورة إيقاظ الوعي الديني، وإنشاء الحركة الإصلاحية، وأشار إلى حياة البذخ والترف، ودعا إلى هجرها، واستعرض هذا الاحتلال، ودرس أبعاده، وملابساته الخطيرة، التي تبعث على القلق، وتهدد سلامة المناطق المقدسة، وتنذر بتمزيق الوحدة العربية الإسلامية[١٧٩].

وتحدث سماحته في المؤتمر الذي عقدته جمعية المثقفين المسلمين احتجاجاً على عدوان العراق على الكويت في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م، واستنكر في حديثه المفصّل، ذلك العدوان وكان مما قال: «إن المأساة الكبرى التي ظهرت بإجراء صدام حسين هي أن السُّمعة الخلقية، والدعوة الإنسانية للإسلام قد أصيبت بضرر، لا يمكن أن تعود إلى حالتها في مدة قريبة، وقد نكست رؤوس المسلمين خجلاً وحياءً، وكيف يسوغ لهم أن يشكو ظلم غيرهم، بعد أن اعتدى بلد كبير على بلد صغير مجاور، يتكلم لغته، ويتّبع دينه، واستولى عليه..» وقال أيضاً: «إن العراق هو البلد الذي عاش فيه الفقهاء والمحدّثون، كالإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، والمشايخ الربّانيون .. فجّروا روافد العلم، ونوّروا العالم بروحانياتهم...»[١٨٠]، وألقى كلمة ضافية عن العلمانية، وأهميتها للمجتمع في ٦ أكتوبر ١٩٩١م في ندوة تحت إشراف جمعية المثقفين المسلمين لعموم الهند في مدينة لكنهؤ، ووصف العلمانية بأنها شجرة تذب الحيات[١٨١].

وفي مؤتمر السيرة النبوية، الذي انعقد تحت إشراف الجامعة الإسلامية في بنارس، (دار العلوم المركزية)[١٨٢]، أعدّ مقالاً باللغة العربية، بحث فيه الدور القيادي لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن مجهوده العلمي المتميز في إثبات أن النبوة هي المصدر الوحيد لعلم حقائق الدين، ومعرفة الذات الإلهية، ومعرفة صفات الله تبارك وتعالى، وأن جميع المصادر الأخرى تحتمل الظن، وهي موضع الشك والارتياب[١٨٣].

وفي الاجتماع السنوي العاشر لهيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامي الذي انعقد في دلهي[١٨٤]، قدّم الكلمة الرياسيّة المفصلة[١٨٥]. وفي الندوة العلمية لرابطة الأدب الإسلامي السابعة التي عقدت في مدينة بوفال[١٨٦]، وكان موضوعها «أدب الإصلاح والدعوة» قدّم كلمة ضافية عن الكلمة الطيبة مستشهداً بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[١٨٧]، كما ألقى الكلمة الاختتامية للندوة[١٨٨]. وفي مؤتمر التعليم الديني في مراد أباد ألقى كلمة الرياسة[١٨٩].

وفي الجلسة الأولى للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي[١٩٠]، ألقى كلمة الرياسة لهذه الجلسة[١٩١]. كما ألقى كلمة في الجلسة الختامية[١٩٢]. وفي الخامس من سبتمبر، عقد اجتماع إسلامي باسم «دولة الأمة»[١٩٣] اشترك فيه، وقدّم مقالته حول «مساوئ الحضارة الغربية، ونقدها، وإظهار اليأس منها، وقد عدّ الشيخ هذا المقال، وما أتيح له في هذا المؤتمر من التعبير عن تصوراته، حصيلة رحلته إلى شيكاغو[١٩٤]. وكان المقال قوياً قد أعد إعداداً جيداً[١٩٥].

وفي مناسبة الاحتفال بإقامة مركز علمي في سمرقند في جوار المسجد الواقع بغرب الإمام البخاري، تذكاراً وتخليداً لخدماته في تدوين الحديث، وتعريفاً بها[١٩٦]، ألقى كلمته في الاجتماع باللغة العربية، أشار فيها بما ساوره من شعور غامر بأن جو المؤتمر لا يليق بمكانة إمام الحديث، والذي كان يجب أن يسوده جو من الحب والاحترام، وقال: «.. إن الاحتفال الذي يعقد لتخليد ذكرى بطل من الأبطال تلقى فيه كلمات، وتستخدم فيه لغة يشعر بها المستمعون بالفروسية والفتوّة والبطولة.. وإذا

عقد احتفال للتعريف بأديب وشاعر، أو التنويه به، تسود البيئة الأدبية والبلاغة ويشعر الحاضرون بتلك المزايا، كذلك إذا عقد احتفال في ذكرى مصلح أو داعي انقلاب، فلكل مناسبة لغة وتعبير، وجو يعكس على المستمعين مزايا تلك الشخصية التي تقدّم كنموذج، ولكن مع الأسف أشاهد من البداية أن الإمام البخاري - رحمه الله - يذكر في هذا المجلس الموقر، وتعرض خدماته، ويعرّف بشخصيته، ولكن لا يخيّم على الجو موضوعه ومزاياه، ولم يقدّم بحث، ولم تبيّن حقيقة ترشد على منهج الحياة، وتحدث عاطفة لقضاء الحياة في ضوء النبوة والرسالة، والأحاديث النبوية الشريفة، ولذلك أقرأ عليكم الحديث الأول في صحيح البخاري ، وإني اعتذر أنه لا يمكن تمهيد أو تقديم أفضل منه، لأي كتاب، وقد أوضح الإمام البخاري - رحمه الله- بإيراد هذا الحديث سبب تأليف هذا الكتاب ونيته، وأرشد طلبة العلم إلى المنهج الذي يجب أن يقضوا به الحياة، وما هي النيّة التي يجب أن يحملوها، ويقصدوها، وذلك الحديث الأول هو الحديث الآتي: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[197]» . إنّ هذا الحديث يطالبنا بأن تكون سائر أعمالنا لرضا الله، وأن يكون الحصول على الأجر والثواب بُغيتنا، ودستور حياتنا، ومبدأ أعمالنا.

«وفي الختام قرأت الحديث الآتي، وهو الحديث الذي ختم به البخاري كتابه: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[198] .

وفي جلسات المؤتمر، ألقى الشيخ مقالة بعنوان : «الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري، مكانتهما في تاريخ الإسلام والدين والعلم والمكتبة الإسلامية العالمية»[199] .

ج - خطابات عامة في تجمعات جماهيرية شعبية :

لما كانت الصفة الغالبة على الشيخ - رحمه الله تعالى - هي الدعوة ، والمهمة التي ارتضاها لنفسه وجعلها عمله الأساسي في حياته ، هي مهمة الداعية ؛ فإنه لا يكاد يترك فرصة يجد فيها تجمعاً إلا ويكون له فيه حديث ، مهما كان يومه مزدحماً باللقاءات الرسمية، والمحاضرات المبرمجة، والخطابات المجدولة في مواعيد محددة؛ ولهذا نجد له تراثاً ضخماً من الخطابات والكلمات، ولهذا كان يحرص على الرحلات الدعوية، وما يحصل فيها من لقاءات دعوية وسط الناس وتجمعاتهم؛ وما ينتج عنها من تأثير وتأثر.

وغالباً ما تكون هذه الخطابات مرتجلة مباشرة، ومن ذلك خطابه في الاحتفال العام بالسيرة النبوية في بشاور[200] ، وكانت نقطته المركزية، دعاء الرسول ﷺ، في بدر، وهو يناجي ربه : «اللهم إن تَهْلك هذه العصابة لن تعبد»، ويصف حال استرساله في الكلام، وحال مستمعيه بقوله: «ولا أدري من أين كانت تنثال علي المعاني، ومن أين جاءتني تلك القوة والطلاقة في اللسان، حتى كنت أنا أيضاً أجري في كلامي، وأندفع في تيار المعاني، وكان الجمع في تأثر وإعجاب غامر، وانفعال عجيب، وقد ذكر لي بعض المشاهدين أن السردار عبد الرب نشتر[201] ، كان قد غطّى وجهه بمنديله، من شدة وجده وبكائه، ولما انتهى الخطاب جاء عدد من الأفغان، وقالوا : بما تأمر؟ مرنا بما تشاء، فنحن في خدمتك[202] .

«كان الخطاب قد أحدث في بشاور جوّاً أدبيّاً خاصاً، وكان هو حديث المحافل والنوادي.. فاستفدت من هذا الجو للدعوة إلى العمل الدعوي على طريقة حركة التبليغ..»[203].

وفي زيارته إلى الشام[204] ، ألقى في مركز الإخوان المسلمين بحمص خطاباً حماسياً مثيراً، وكان له خطاب آخر مثله، في اجتماع كبير بحلب، ذكر فيه سرّ

انتصار العرب وغلبتهم في الماضي، وميزة الدعاة المسلمين والفاتحين في القرن الأول[٢٠٥] .

وبعد عودته من مصر والشام، عقد احتفالاً عاماً مشتركاً، حضره المسلمون وغير المسلمين[٢٠٦]، في عدد كبير، وألقى فيه خطاباً بعنوان «عبادة الله أو عبادة النفس؟» ذكر فيه المنهجين المتعارضين للحياة والديانات العالمية التي اقتسمت العالم البشري، وشرح نتائجهما وتأثيرهما على الحياة الإنسانية[٢٠٧] .

والدعوة في المجال الشعبي، وفي هذه الاجتماعات المشتركة بين المسلمين وغيرهم تجربة جديدة، واتجاه جديد قاده إليه جهازه الفكري والتربوي، وكان يهدف من مخاطبة غير المسلمين وخاصة المثقفين منهم، مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم، أن يعرّفهم بالإسلام، وأن يزيل ما في نفوسهم من وحشة منه، أو سوء فهم، وأن يحثهم بهذا الأسلوب على دراسة الإسلام وسيرة نبيه عليه الصلاة والسلام بعمق وإنصاف، وأن يلفت أنظارهم إلى الأخطار المحدقة بالبلاد والمجتمع، الذي يعيشون فيه معاً، بسبب الإفلاس الروحي والعقائدي، والانهيار الخلقي، وسيطرة الشره للمال والنظرة المادية[٢٠٨] .

وفي رحلته الثالثة لإنجلترا، وكانت رحلة طويلة[٢٠٩]، زار فيها مدناً كثيرة منها (برمنجهام، مانشستر، بليك برن، شيفلد، ديوزبري، ليدز) ألقى خطابات في تجمعات المسلمين في تلك المدن، وكانت عامة خطبه وأحاديثه " تدور حول تذكير المسلمين بمسؤوليتهم الدعوية، وإثبات وجودهم ونفعهم للبلاد، والحفاظ على خصائصهم ومعتقدات الجيل الناشئ في هذه البلاد وتربيته على الأسس الإسلامية"[٢١٠]، كما زار جلاسجو، وألقى بعض الخطب بالأردية والعربية[٢١١].

وفي زيارته لأمريكا ألقى عدة خطابات ، منها كلمة أمام الأخوة العرب ، وكلمة أخرى عامة في صورة حديث حر[٢١٢] .

وألقى أمام الجمع الحاشد العظيم الذي جاء للمشاركة في احتفال دار العلوم ديوبند الندوي خطاباً بالأردية وكان المقرر أن يكون الخطاب بالعربية، ولكنه رأى أن الخطاب بالعربية، أمام هذا الجمع الذي يمتد مدّ البصر «عمل صناعي ميكانيكي، لم يوافقه ضميري، وكنت أشعر – وقد علمت بذلك إلى حدٍ ما – بأن هذا الجمع الذي جاء من كل صوب وحَدَب من الهند لم يسمع حتى الآن شيئاً يرجع به، ويكون زاد سفره، وشحنة جديدة في إيمانه وعقيدته، وقوي عندي الدافع برؤية هذا الجمع إلى خطاب يرجع بسماعه هؤلاء الناس البسطاء، الذين اجتمعوا من البقاع والأماكن النائية، وهم في شوق للقاء العلماء والصالحين، وسماع كلام الله تعالى، وحديث الرسول ﷺ بشعور بمسؤوليتهم وواجبهم، كأمة ذات دعوة ورسالة، وصاحبة شريعة ونظام، وبثقة جديدة، وعرض نماذج حياة إسلامية في الهند، وإلا نحمل – نحن الدعاة والعلماء – وزر السؤال غداً عند الرب تبارك وتعالى، لماذا دعوتم هؤلاء الناس؟ ولماذا جمعتموهم على هذه الأرض؟

«فقلت بضع كلمات بالعربية اعتذرت فيها إلى الضيوف عن الخطاب[٢١٣] بالعربية، وقلت : إن هذا الجمع العظيم يستحق الخطاب في لسانه، وجاءني شوق وحنين إليه، ولذلك فإني أخاطبهم بالأردية، فبدأت الخطاب، وكنت أشعر أن المعاني تنثال عليّ، وأن ذلك لسبب هؤلاء المستمعين البسطاء الطيبين، الذين جاؤوا لسماع حديث الدين[٢١٤] .

ومن خطاباته العامة، خطابه للطلبة العرب الذين يقيمون بها للدراسة في جامعة (ناكبور) الهندية ، في عدد كبير[٢١٥] .

وفي السعودية كان للشيخ حديث في مجلس نظمه الشيخ عبد الله علي بصفر ، ثم كان له محاضرة موسعة باللغة الأردية، وجهها إلى الإخوان الهنود والباكستانيين، وكان جمعهم حاشداً امتلأ بهم مسجد

الجوهرة في العزيزية[٢١٦]، وكانت المحاضرة تدور حول تفسير قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٢١٧] .

ولما كان في تركيا عام ١٩٨٩م في شهر أغسطس[٢١٨] ، سنحت له فرصة إلقاء كلمة عامة أمام تجمّع كبير من المسؤولين في المدارس الدينية، وكذلك العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، والمنتمين إلى جماعة الدعوة والتبليغ، وذلك في مسجد واسع يدعى (سلام)[٢١٩]، وألقاها باللغة الأردية، ونقلها إلى التركية عالم تركي[٢٢٠] ، وقد أبدى فيها الخدمات العظيمة، والبطولات والتضحيات، التي قام بها الشعب التركي الأبي، الذي سبق أن تشرّف بتولي الخلافة الإسلامية لعدة قرون[٢٢١] .

وحين وصل وفد زائر من تركستان إلى دار العلوم وندوة العلماء بلكهنؤ، ألقى فيهم عدة كلمات منها الكلمة الترحيبية بهم في المسجد بالعربية، أبدى فيها سروره بتحرير تلك المناطق من مخالب الشيوعية، وعودتها إلى حظيرة الإسلام من جديد، وفي اليوم التالي، ألقى كلمته في حفل التكريم لهؤلاء الضيوف تحدث فيها بإسهاب عن أهمية هذا الانقلاب وخلفياته[٢٢٢] .

وعلى هامش مؤتمر السيرة في الجامعة السلفية ببنارس في أكتوبر ١٩٩١م انتهز هذه الفرصة ليتحدث في اجتماع حضره عدد كبير من المسلمين والهندوس من بنارس وضواحيها، حول رسالة الإنسانية، التي يراها الشيخ – رحمه الله – مسألة ذات أهمية وقيمة كبيرة في الظروف السائدة في الهند[٢٢٣] .

وفي الجلسات التي تعقدها دار المبلغين بمدينة لكهنؤ باسم شهداء الإسلام، دعا الشيخ في الجلسة الأخيرة دعوة خاصة، تقوم على أساس المطالعة غير المتحيّزة للتاريخ الإسلامي، وبيّن أن الترتيب الذي تولى به الخلفاء الراشدون إمارة المؤمنين لم يكن صدفة، أو بناءً على رغبات شخصية، أو أحداث مفاجئة، وإنما كان مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢٢٤] ، ثم تناول عهد الحسنين – رضي الله عنهما – وقال بأن كلاً منهما مثّل الدور المطلوب لمصلحة الملّة الإسلامية[٢٢٥] .

وفي رحلاته المتعددة إلى مدينة (بهتكل)[٢٢٦] كان يتحدث فيها إلى أهلها[٢٢٧]، وسافر إليها أيضاً مرّة أخرى في نوفمبر ١٩٩١م، وعقد فيها جلسة لرسالة الإنسانية في ٢٩ نوفمبر ١٩٩١م، كما عقدت جلسة ثانية في منجلو في أول ديسمبر ١٩٩١م، وتحدث فيها الشيخ ولاقت الجلسات نجاحاً كبيراً، وقد ألقيت الكلمات باللغة الأردية، وتم نقلها إلى اللغة المحلية مما زاد تأثر المستمعين بها[٢٢٨] ..

وتجاه ما لقيته الهند في مجتمعها من طوفان الحقد والعنصرية، وما يفرزه ذلك من حوادث عنف وانفجارات، كانت تدمي قلب أبي الحسن وتهزّ مشاعره، تجاه ذلك كان لا يترك مناسبة أو تجمعاً حاشداً أو فرصة، إلا ويستغلها لتوجيه انتباه القادة المعتدلين، ويبعث بكل نداءات قلبه، في جراءة وصراحة ووضوح، وكان بيانه، وخطاباته سلاحه المتاح؛ ففي ١٦/١/١٩٩٣م، ألقى كلمة في قاعة باره دربي (القصر الأميري السابق) أمام حشد عظيم من الناس[٢٢٩]، كما ألقى كلمة أخرى في ٨/٧/١٩٩٣م في مديرية رائي بريلي، في الساحة الفسيحة للكلية الرسمية، وحضر تلك الكلمة أكثر من ٥١ ألف نسمة من مختلف الجاليات وأتباع الأديان المختلفة[٢٣٠] ، بعنوان «الاستقلال الحقيقي للبلاد وجدواه» وحين حدثت في بومباي في ١٢ مارس ١٩٩٣م، خلال صلاة الجمعة ١٧ رمضان ١٤١٣هـ ثلاثة انفجارات عنيفة في أماكن مختلفة، ألقى بتلك المناسبة المؤسفة بعض الخطب والكلمات التوجيهية، منها خطابه الذي ألقاه في قاعة اتحاد الطلبة في ندوة العلماء في ١٤ مايو ١٩٩٣م في موضوع «الوضع الجديد ومواجهته» وخطاباً آخر في موضوع «الاحتفاظ بالشخصية الملّية»[٢٣١] .

د – حوار ومحادثات :

من صور خطاباته وأحاديثه الدعوية المتنوعة منهجه في الحوار البليغ مع الآخر سواءً كان هذا الآخر مسلماً أو غير مسلم؛ كما يفعل في حواراته مع غير المسلمين في حركة رسالة الإنسانية التي أنشأها سماحته، مؤمناً بأن الحوار البليغ له أثره البالغ في النفوس، وأن الاتصال بالمعارضين بالمحاورة الحكيمة تحقق نتائج مفيدة، وأن اللين في معالجة الأمور، إنما هو اتباع لقول الله تعالى : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(٢٣٢) وقوله جلّ وعلا للرسول ﷺ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢٣٣)، والشيخ أبو الحسن، يجد في طريقة المحبة والحوار الحكيم، والعبارة المؤثرة، واللين في القول، مع عدم الإخلال بالقيم والعقائد، وقد نجح في هذا السبيل إلى حد كبير(٢٣٤).

وطريق الحوار والنقاش سبيل من سبل التعارف والتعرّف حتى بين أصحاب الملة الواحدة، وسبيل من سبل التواصل، وإيجاد الصلات والعلائق الشخصية، ويذكر لنا الشيخ طرفاً من ذلك في بداية زيارته للحجاز، وكيف نشأت صلته بطبقة الخواص والمثقفين والأدباء وأصحاب الأقلام؛ وأنها إنما تحققت، عن هذا السبيل، حين تعرّف الشيخ بأحمد عبد الغفور عطار عن طريق محمود حافظ؛ وتولّى عطار تنظيم دعوة لجمع من أصدقائه الأدباء على الغداء، ودعا الشيخ وأصحابه.

وكان من بين المدعوين : سعيد العامودي، وعبد القدوس الأنصاري، وعلي حسن فدعق، ومحسن أحمد باروم، وحسين عرب(١٣٥) .

ويقول الشيخ عن تلك الجلسة: «وبدأت الجلسة كأنها جلسة نقاش لأحد الطلاب، فقد أراد الضيوف الكرام أن يقدروا مدى معرفة هذا الضيف الغريب باللغة العربية ويسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة، فكانوا يسألونه تارة عن طه حسين، وعباس محمود العقاد، وأدباء مصر المعروفين، ويقدّرون من إجابته هل قرأ كتبهم أو لا ؟، وتارة أخرى يسألونه عن رأيه في الاشتراكية، وحيناً عن الحضارة الغربية، وآخر يقيسون اطلاعه على اللغة الإنجليزية، وقد شعرت في ذلك بقيمة تلك الدراسة ، وذلك المنهج للتعليم والمطالعة الذي هيأ الله – تعالى – أسبابه في الهند، ولم أكن أقدرها حق قدرها في ذلك الحين»(٢٣٦).

وحين زيارته لمصر عام ١٩٥١م، كانت للشيخ أحاديث حوارية، تبادل فيها الأفكار والآراء مع كل من الحاج أمين الحسيني «مفتي فلسطين»، رحمه الله، ومع سيد قطب، رحمه الله، ومع الشيخ الأكبر محمود شلتوت رحمه الله(٢٣٧).

وفي لندن التي زارها لأول مرّة عام ١٩٦٣م، كان له حوار في إذاعة (B.B.C) حول موضوع الإمكانيات لرقي اللغة العربية وتقدّمها، وصلات البلدان الإسلامية بها(٢٣٨) .

وحين كان في الأردن، عقد كامل الشريف مجلساً خاصاً في بيته، ضم فيمن ضمّ إسحاق الفرحان، وعمر بهاء الدين الأميري، وإبراهيم شقرة، وكمال أبو المجد، وسواهم، وكان موضوع الحديث في هذا اللقاء حواراً تمّ فيه استعراض تجارب الحركات الإسلامية ومواقفها(٢٣٩)، كما كانت للشيخ لقاءات وحوارات ومجالس خاصة في تلك الزيارة مع كل من مهدي بن عبود ، وأحمد بن عبد العزيز المبارك، وعمر بهاء الدين الأميري ، ويوسف القرضاوي، ومحمد الغزالي(٢٤٠) .

هـ – أحاديث إذاعية :

وفي زيارته للحجاز عام ١٩٥٠م وبعد أن تعرّف على الأوساط الأدبية هناك، أتيحت له الفرصة أن يقدم أحاديث في الإذاعة السعودية(٢٤١)، بناءً على طلب الإذاعة، فألقى سلسلة من الأحاديث، اختار لها بعد رويّة وتفكير – على حد تعبيره – عنوان : «بين العالم وجزيرة العرب» ويقول عن ذلك : «كنت أتوقع أنني سوف أبدي فيه آرائي وانطباعاتي بأسلوب مناسب، وأعبر عن قلبي وضميري على لسان

العالم، ثم أرد عليه بلسان جزيرة العرب، فكان عنوان حديثي الأول "من العالم إلى جزيرة العرب» .. ونحمد الله تعالى - على أن هذه الخطب تُلقيت باستحسان وقبول، واستمع إليها في رغبة وشوق، وشاع ذكرها في الشباب والأدباء .

وفي زيارته الأخرى عام ١٩٥١م كان له حديثان في الإذاعة السعودية؛ أحدهما بعنوان «من غار حراء» ألقى فيه الضوء على استنارة الدنيا بطلوع شمس الإسلام وكيفية ذلك، وكان الحديث الآخر بعنوان «محمد إقبال حياته ورسالته» وقد استهدف الشيخ - رحمه الله - من ذلك، توجيه شباب العرب إلى دراسة الإسلام، وقراءته من جديد، لتجديد الصلة به، والاعتزاز بهذه الصلة[٢٤٢].

وفي زيارته لدمشق عام ١٩٥٦م طلب منه المسؤولون في الإذاعة السورية عدداً من الأحاديث؛ فقدّم حديثين؛ الأول بعنوان «اسمعي يا سوريا»، والثاني بعنوان «محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ التي طار فيها على جناح الشوق واللهفة والحب في عالم الخيال»[٢٤٣].

ولما زار لندن عام ١٩٦٣م قدّم خطابين في إذاعة (B.B.C) أحدهما بعنوان «انطباعات لأحد زوار لندن» والثاني كان حواراً عن إمكانات اللغة العربية وتقدمها، وصلات البلدان الإسلامية بها[٢٤٤] .

وحين تلقى الشيخ نبأ وفاة المفتي عتيق الرحمن بجدة عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م قدّم عنه - رحمهم الله جميعاً - حديثاً من إذاعة جدة، تحدث فيه عن جلائل أعماله، وما قدمه من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، وذكر خصائصه ومزاياه، والفراغ الكبير الذي خلفه في حياة المسلمين في الهند[٢٤٥] .

كما قدّم أثناء زيارته لليمن عام ١٩٨٤م حديثاً في التلفزيون والإذاعة في اليمن أشار فيه إلى علاقته القديمة باليمن، ونوّه بعلاقته العلمية بالشيخ خليل بن محمد اليماني؛ ونظراً لقرب حلول شهر رمضان أنذاك، فقد نبّه في حديثه إلى أهمية استقبال ذلك الشهر المبارك الاستقبال اللائق به وأداء حقه[٢٤٦] .

و - محاضرات تعليمية :

كان الشيخ رحمه الله منذ بداية حياته التعليمية، وللبيئة التي نشأ فيها، داعية معلماً، ومعلماً داعية، وقد تلازم هذان الخطان في حياته، بصورة موضوعية متوازنة، وقد منحته فرصة التعليم النظامي الدقة والمنهجية، وتصوّر المسائل والقضايا تصوّراً علمياً دقيقاً محكماً.

وكان الشيخ رحمه الله قد بدأ حياته التدريسية النظامية؛ بإعطاء دروس في القرآن الكريم، فقد أسند إليه بعد العام ١٩٣٤م دروس القرآن الكريم في دار العلوم، وقد أحس في المدة من ١٩٣٩-١٩٤٠م أن الطلاب يجهلون كثيراً من الأصول والأسس اللازمة لدراسة القرآن الكريم، بحيث تظل دراستهم له دراسة سطحية غير متعمقة، وحين بدأ يدرّس للسنوات العليا في التفسير، أعد مقالات خاصة تساعد الطلاب على تدبر القرآن الكريم وإدراك إعجازه وبدأ يملي عليهم تلك المحاضرات في العام الدراسي (٣٨-١٩٣٩م)، وكانت عناوينها على النحو الآتي[٢٤٧] :

١ - القرآن يتحدث عن نفسه (أو تعريف القرآن بالقرآن) .
٢ - شروط الاستفادة وموانعها من القرآن الكريم .
٣ - إعجاز القرآن الكريم .
٤ - الموضوع الأساسي في القرآن الكريم .
٥ - نبوءات القرآن الكريم، ونبوءة غلبة الروم بصفة خاصّة.

ويذكر الشيخ أيضاً أنه بدأ يملي عليهم أيضاً محاضرات حول العقائد الأساسية : التوحيد والرسالة والمعاد، والأركان الأربعة إلا أنها لم تتم في ذلك الوقت[٢٤٨] .

ومن أمثلة خطاباته الدينية التعليمية، خطابه أمام مدرّسي مادة الدين في الجامعة السورية التي ألقاها أثناء زيارته للشام عام ١٩٥٦م[٢٤٩] . كما ألقى في زيارته لأمريكا عام ١٩٧٧م درساً في القرآن الكريم[٢٥٠] .

ونجد صورة ناضجة، ونموذجاً لدروسه التعليمية الدعوية، المستقاة من نصوص القرآن الكريم، والتي كشفت مهارة الشيخ في العرض وبلاغته في القول، فيما قدّمه من دراسات علمية وأدبية لخدمة القرآن الكريم، والواردين لمنهله العذب، تكشف لهم من جوانب البلاغة والحكمة[٢٥١] .

ونجد مثالاً حياً لتلك الدروس والمحاضرات في كتابه القيّم «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة» جمع محاضراته أمام طلبة «المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي» في مادة «أسلوب الدعوة في القرآن الكريم»[٢٥٢] . واشتمل على المحاضرات الثمان الآتية[٢٥٣] :

١ - حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر[٢٥٤].

٢ - نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٢٥٥].

٣ - نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام[٢٥٦] .

٤ - نموذج من دعوة سيدنا موسى عليه السلام وحكمته النبوية[٢٥٧] .

٥ - موسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل[٢٥٨] .

٦ - دعوة مؤمن يكتم إيمانه، نموذج لدعوة غير نبي[٢٥٩] .

٧ - نموذجان من دعوة خاتم الرسل وحكمته[٢٦٠] .

- النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصفا[٢٦١].
- مثال بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية[٢٦٢] .

٨ - تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام والمسلمين في مجلس النجاشي ملك الحبشة[٢٦٣] .

٢ - المقالة الكتابيّة :

منذ المراحل الأولى لظهور بواكير نشاط أبي الحسن الدعوي في بداية حياته العلمية التعليمية، من حيث انطلاقة لسانه، وطلاقة بيانه في الوعظ والمحاضرة والتوجيه الخطابي المباشر إلى الناس، ظهرت أيضاً بواكير قوية الملامح لبروز كاتب أديب، يحمل موهبة أدبية عالية في الكتابة النثرية .

فقد أبدعت هذه الموهبة تراثاً أدبياً ضخماً يتمتع بروح الأدب القوي المعبر عن روح حيّة، تنبض بالعاطفة والإخلاص. والواقع أن إنتاج أبي الحسن الأدبي جاء صورة صادقة عن حياته الشخصية، الحافلة بالعاطفة والإخلاص.

ولا شك في أن مهمة الإبداع الكتابي ليست مهمة سهلة؛ ولكنها تتطلب مع الموهبة قدراً كافياً من التأهيل، والدقة، وروح المسؤولية من جهة، وقدراً من الصبر وتحمل تبعات الكتابة ومعاناتها.

ولا بد أن نشير إلى أن النضج المبكر لتجربة أبي الحسن الندوي الأدبية، الذي ظهر في كتاباته الأولى كان مردّه إلى البيئة الأدبية العلمية التي نشأ فيها، وإلى ما أتيح له من برنامج لغوي أدبي مركّز، تلقاه على أيدي معلمين أكفاء، سواءً في الأردية أو العربية، ابتداءً من البيت والأسرة، ومروراً بأساتذيه في العربية خاصّة؛ تقي الدين الهلالي ، وخليل محمد اليماني، ووصولاً إلى ندوة العلماء بما فيها من برامج وأساتذة وطلاب، وجوّ علمي أدبي يفيض بالحركة الحيويّة[٢٦٤] .

والشيخ يعترف صراحة بأثر ذلك التعليم المبكر إيجاباً على موهبته الأدبية، في قوله : «لقد كان من حسن حظي أنني قرأت في سنيّ المبكرة وأيام دراسة اللغة العربية الأولى كتباً تعتبر في القمة في اللغة الأردية وآدابها، ومعلوم أنّ الدعاة والعلماء الذين لا تسع لهم الفرصة في سنيّهم المبكرة لدراسة لغة البلاد وآدابها والتذوّق لها، أو يطالعون كتبها في الكبر، يواجهون صعوبة كبيرة في القيام بدعوة مؤثرة، وتفسير المفاهيم الدينية وتعليمها، وشرح الفكرة الإسلامية وغرس المقاصد والأهداف الدينية في نفوس الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وتخلو كتاباتهم وإنشاؤهم من القوّة والتأثير والروعة والجمال الذي لا بد منه في هذا العصر»[٢٦٥] .

ويذكر فضل ابن خاله السيد / حبيب الرحمن

المدرس في الجامعة، والمهتم بالشعر، في مساعدته له في فهم الأردية وتنوقها بما كان يعقده للصغار من مسابقات كتابية وخطابية في الأردية، كذلك فضل ابن خاله الآخر السيد أبي الخير في هذا الشأن، وقد كان شغوفاً بمناهج اللغة، وحجة في التعبيرات اللغوية[٢٦٦] .

وينوّه بتأثره في الكتابة الأردية " أولاً بأسلوب الوالد رحمه الله التاريخي الأدبي، الذي هو نموذج جميل لكتابة متينة رصينة، يحمل مع جدّيه التاريخ ودقته رونق اللغة ورواءها، وقد تجلّى أثر تقليد هذا الأسلوب في مقالي الأول في أردو وكان عنوانه «الأندلس»[٢٦٧] .

وإذا كانت (الأندلس) بذرة (الأديب المتطلع إلى السبق)[٢٦٨]، فقد «دفعته همته الذاتية إلى كتابة مقال تاريخي .. يتحدث عن المجاهد أحمد بن عرفان؛ شهيد الإسلام وإمام أهل التوحيد»[٢٦٩] وبعثه فيما بعد إلى الشيخ محمد رشيد رضا الذي أعجب به، ورآه جديراً بالنشر في «المنار»[٢٧٠]، وظهرت نشرة مستقلة له عام ١٣٥٠هـ «فأحدثت صدىً قوياً بين العلماء والباحثين وكانت بمثابة فجر صادق يبشر ضوؤه المشع بقدوم صبح مبين»[٢٧١]، وقد كتب أبو الحسن مقالته تلك وهو في سن ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة.

وقد جاءت تلك الرسالة منشورة في مصر بعنوان «ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» وقد نيّف على السادسة عشرة من العمر ، وفرح بها فرحاً عظيماً[٢٧٢] .

وكانت هذه الرسالة وعلاقتها بالإمام الشهيد منعطفاً مهماً في حياته الفكرية، وتوجيه ذوقه المعرفي، واهتماماته الدعوية؛ فقد كانت منطلقاً لسلسلة من المطالعات لحياة الشهيد، التي زادته به إعجاباً، وشعوره بضرورة القيام بعمل علمي حول سيرته وجهاده وإصلاحه بأسلوب عصري، وقد ذاكر في ذلك مسعود الندوي، الذي كان يشاركه الإعجاب بالإمام وجماعته، ومن هنا اتفقا على أن يتولى أبو الحسن الكتابة عن سيرة الإمام وحياته، ويتولى مسعود الكتابة عن الجماعة والحركة[٢٧٣] .

وسافر إلى «طونك» وكان بها فرع من أسرة الشيخ من أعقاب الإمام الشهيد، ظفر فيها بكتاب «وقائع أحمدي» وهو أوثق مصدر وأكبره عن حياة الإمام، وفي هذه المرحلة، وعلى شاطئ نهر «بناس» كتب مقدمة «سيرة أحمد الشهيد» ويحسن أن نترك أبا الحسن يصف تلك اللحظات ، ويقدم لنا نموذجاً من كتابته في تلك المقدمة، وتأثر حياته بذلك العمل: «في هذه المرحلة عندما كنت مقيماً مع شيخنا [حيدر حسن خان الطونكي] على شاطئ نهر «بناس» الذي لعل الإمام الشهيد وجماعته المجاهدين الأبرار توضؤوا منه مرات وكرات، جلست في وقت الصباح الصافي قبل طلوع الشمس على صخرة ورجلاي في النهر، وكتبت مقدمة «سيرة أحمد الشهيد» وعليها تاريخ مايو عام ١٩٣٦م، والتي أدرجت في الكتاب بعنوان «نظرة إجمالية على سيرة الإمام الشهيد» ولا أحب هنا أن أتقدم قبل أن أنقل مقتطفاً من هذه المقدمة ، فإنها تلقي بعض الضوء على مؤلف ناهض ومنهج تفكيره وأسلوب كتابته .

لقد هبت رياح الإيمان واليقين المباركة الطيبة مراراً وتكراراً في تاريخ الإسلام، ولكن هذه الريح الطيبة الرخية السعيدة للإيمان واليقين والإخلاص والربانية التي هبت على يد الإمام الشهيد، لم نرَ لها مثيلاً – في حدود علمنا – قبلها في هذه البلاد، ولا شاهدنا قبل ذلك مثل هذه النماذج الرائعة وعلى هذا النطاق الواسع، للتوكل والعزيمة، والإيمان والاحتساب ، والحنين إلى الجهاد والشهادة، والإيمان بالآخرة، وإن لم تكن مثل هذه الحوادث المدهشة المميزة للعقول لصناعة الرجال، وتربية الأجيال، والإصلاح وانقلاب الأحوال، فإنها نادرة قليلة الوجود في تاريخ الإصلاح والتربية[٢٧٤] .

لقد كانت هذه بداية مباركة سعيدة، يبدأ بها في حياتي عهد جديد، وما كنت أتوقع نفسي أيضاً أن هذا العمل سوف يحدث في حياتي تغييراً، ويفتّح عهداً جديداً، وأن هذا الكتاب سوف ينال من القبول والحظوة في الناس ما ناله، ويكون سبباً للتعريف بي في الأوساط الدينية والتقرب لدى عباد الله الصالحين.

عدت من طونك عند نهاية الإجازة الصيفية، ورجعت إلى لكهنؤ وقد صحّت عزيمتي على إكمال هذا الكتاب الذي كان حجة الوقت، ونداء الضمير»[٢٧٥].

ومن بواكير إنتاجه أيضاً، مقالته عن «القيمة الأدبية في الحديث النبوي» وكانت أول مقال كتبه لأول عدد من مجلة الضياء، ونشر عام ١٩٣٢م[٢٧٦] .

وفي عام ١٩٣٤م نشر رسالته عن شاعر الهند أكبر الإله أبادي[٢٧٧] ، وبدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية، وظهر أول كتاب فيها بعنوان «مختارات من أدب العرب» عام ١٩٤٠م وقصص النبيين للأطفال «والقراءة الراشدة عام ١٩٤٤م»[٢٧٨] .

وقد كان من أول مقالاته التي كتبها مخترقاً حدود الدائرة الأدبية - على حد تعبيره - إلى الأوضاع والظروف الحاضرة وحال المسلمين، مقالة بعنوان «دعوتان متنافستان» شرح فيه الفرق بين الإسلام والجاهلية، وتجلّت فيه لأول مرّة الروح الدعوية للفكر الإسلامي[٢٧٩] .

ويذكر الشيخ أنه بعد كتابته مقال «دعوتان متنافستان» انعطف عنان قلمه إلى كتابة المقالات والرسائل بالعربية ومخاطبة العرب[٢٨٠] .

ويذكر مقالاً دعوياً آخر نشر بمصر وكان في الأصل محاضرة بعنوان «المد والجزر في تاريخ الإسلام» ثم نشر بعد ذلك في دمشق[٢٨١]، استعرض فيه أحوال العرب قبل الإسلام والتغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام فيهم[٢٨٢].

ومن أهم إنجازاته الأدبية الدعوية في نطاق التأليف والكتابة كتابه الشهير العظيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فقد شعر أبو الحسن نفسه برغبة ملحة، لم يستطع مغالبتها بأن يؤلف كتاباً يتحدث عن ماذا خسر النوع البشري بانحطاط المسلمين، وماذا ربح العالم والمدنية والشعوب برقيهم، وقرر أن يكتب ذلك بالعربية، ويذكر أنه ظلّ مستمراً في إعداده وتكميله من عام ١٩٤٣ إلى ١٩٤٧م[٢٨٣] .

ونشر كتابه في مصر[٢٨٤] فتلقاه العلماء والأدباء والناس بقبول وحسن وتأثّر وإيجاب لا نظير له، ولنقرأ هذه الشهادة من أحد الأدباء الكبار التي يقول فيها: «.. ولكن أبا الحسن أصدر كتابه باللغة العربية «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» في مطلع حياته الفكرية، فكان حدثاً هائلاً في دنيا الفكر؛ لأنه رجّ القرّاء رجّاً، وكأنه نفخ في الصور فأحيى نفوساً، وأشعل أرواحاً وأخذ الناس يقرأون مبهورين، يخافون أن تنفد صفحات الكتاب، فلا يستشعرون هذه اللذة الروحية، بعد انقضاء الصفحات، وفيهم من كان يقرأ الصفحة والصفحتين ثم يطوي الكتاب دقائق معدودة، ليُصعِّد زفرة مكتومة، أو يعلن آهة موجعة، وأشهد أمام الله أن بعض الصفحات التي كانت تصوِّر فجائع المسلمين على أيدي أعدائهم، وطغيان العتاة على بلادهم، كانت تضع فوق كاهلي وأنا أقرأ أطناناً من الحديد الصلب، فلا أستطيع أن أتحرك إلا بعد أمد يقصر أو يطول. هذا الكتاب الخالد قد رجّ القرّاء...» «لم يُتح لأبي الحسن أن يكتب هذا السفر الرائع في مطلع شبابه دون أن يعتمد على موهبة رائعة ممتازة، جرت من عقله مجرى الماء في فروع السَّرْحة الفينانة ذات الظل الوارف، دون أن يعتمد على نشأة علمية باهرة في أعرق منازل الفضل بالهند، وأخصب منابت العزة والكرامة والشموخ، ودون أن يعتمد على اطلاع شامل محيط في كتب متعددة، ولغات متنوعة، اطلاع نافذ يعرف سطور الحق فيجتبيها، ويطرد سطور الباطل إذ يحتويها، ومن وراء ذلك كله روح إسلامية

عالية هي قبسة من قبسات رجال الصدر الأول من تاريخ الإسلام، فقد عايش أبو الحسن هؤلاء الرجال معايشة العاشق المولع بكل ما يقرأ من أمثلة لتضحية وفداء، ونماذج الإيمان والإيثار، فكانت سير هؤلاء ومن تبعهم بإحسان ضياءً لروحه قبل أن تكون غذاءً لفكره، وقل ما شئت في تلميذ نابغة، أساتذته الأكرمون رسول الله وصحابته المختارون.. مع من وليهم أئمة السلف الصالح، خلفاً عن سلف، حتى انتهت السلسلة الرائعة إلى والده الكريم، وكلهم خيارٌ من خيار ..»[٢٨٥] .

وانطلق قلم أبي الحسن سيّالاً في سبيل توعية المسلمين بدينهم وتربية شعورهم الديني، ولم يقتصر في ذلك على الكتب والرسائل وإنما اتجه إلى إصدار جريدة باسم «تعمير»[٢٨٦] ونشر في هذه الجريدة مقالات قوية مثيرة، تبعث روح الإيمان، وتنير الفكر والوجدان، ومن مقالاته التي نشرها فيها «العالم في حاجة إلينا»، وصدر له أيضاً مقال بعنوان «مواضع ضعف في سيرتنا وشخصيتنا القومية» انتقد فيه مواضع الضعف العامة، بصراحة وشدة، ونبّه إلى نتائج ذلك[٢٨٧] .

وكتب مقالات صريحة وقوية في الرد على تلك الاعتراضات التي تغمز المسلمين في الهند باعتزازهم بالشخصية الإسلامية والارتباط برموزها الدينية عربية وغيرها، وعدم انجرافهم في التيار القومي الهندي، ونشرت في جريدة «تعمير» ومجلة «الفرقان» فكانت مؤثرة نافعة[٢٨٨] . وفي إطار انغماسه في معايشة قضايا المسلمين وأوضاعهم المؤلمة، كتب مقالاً[٢٨٩] ، وهو في حالة خاصة من التألم والتوجع، نشر بعنوان «نشان راه» (معالم في الطريق)، استعرض فيه ماضي المسلمين وحاضر أوضاعهم، وقدّم فيه الحلول الناجعة[٢٩٠] .

ومن مقالاته الجريئة، التي تعكس معايشته لهموم الأمة في كل أقطارها وليس فقط في بلده الذي يعيش فيه في الهند، مقالة بعنوان «اسمعي يا مصر»، فقد شعر بعد وصوله إلى مصر، أن يذكرها برسالتها ودورها ومكانتها، وأن يشعرها بأنها تستطيع أن تقوم بالدور القيادي والتوجيهي ليس للعالم العربي فحسب بل للعالم الإسلامي، وماذا تأخذ من الغرب، وماذا تعطيه، وأن على مصر أن تقدم أنفس أشيائها وهو رسالة الإسلام إلى الغرب، وتأخذ منه ما تفوّق فيه وهو التكنولوجيا الحديثة وعلومها، وقد انثالت عليه المعاني في هذا المقال الذي أشاد فيه أولاً بدور مصر الديني والعلمي والقيادي، ومآثرها العظيمة في النشر والعلم والأدب، وتاريخ أزهرها ومآثره في خدمة الدين والعلم[٢٩١]، ومما قال :

«يا مصر إن لك يدين، فخذي بإحداهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة، وقدّمي إلى الغرب تحائف الإيمان والإسلام، ولا تنسي هذه الحكمة النبوية : «إن اليد العليا خير من اليد السفلى»[٢٩٢].

وبعد جولته في مصر والسودان والشام عاد إلى الحجاز في أغسطس عام ١٩٥١م ونشر مقالاً مهماً في صحيفة «الحجاز» الصحيفة الدينية الوحيدة، بعنوان «كيف توجّه المعارف» ولقد لقي اهتماماً من كبار العلماء وأصحاب الفكر وحظي بتعليقاتهم[٢٩٣] .

من الأمور التي كانت تؤلم أبا الحسن ما شعر به من أن كثيراً من الشباب المثقف المتحمس للإسلام، يعتقدون أن جهود الإصلاح والتجديد ليست متصلة متسلسلة في تاريخ الإسلام، وأن هناك فجوات عميقة لم تظهر فيها شخصيات إصلاحية قوية، وأنه ليس هناك إلا العلماء والمشايخ والمؤلفون السائرون مع التيار في سبيل السلطة وميول العصر، ولخطورة مثل هذا التصور، الذي قد ينتهي ببعض الشباب المسلمين إلى سوء الظن بالإسلام، وضعف إنتاجه وصلاحيته الداخلية، مع أن الأمر بالعكس من ذلك تماماً، ولكن المشكلة تكمن في منهج

التأليف والتدوين[٢٩٤]. ويروي لنا الشيخ قصة الكلمة التي أثارت في ذهنه هذا الخاطر في قوله : «وقد أثار في ذهني هذا الخاطر كلمة (بسيطة) قالها المربّي الكبير مولانا عبد القادر الرائي يوري لرجل هندوكي كان يزوره ويجله : (إن من الأدلة الواضحة على صدق الإسلام، أنه كلما احتاج هذا الدين في أي عصر أو مصر إلى أي نوع من رجال الفكر والدعوة، أوجدهم الله تعالى وقيضهم لحراسة هذا الدين وتقويته. وكلما ظهرت الفتنة خلق الله لها رجالاً يدحضونها ويقضون عليها). وقد حشرت هذه الكلمة الصغيرة من الشيخ جنداً من الأدلة والبراهين على ذلك أمامي، وَوَجَدْتُ فيَّ اندفاعاً إلى الكتابة في هذا الموضوع»[٢٩٥] . فانصرف الشيخ بعقله وقلبه إلى تأليف سلسلة كتب «رجال الفكر والدعوة في تاريخ الإسلام»[٢٩٦].

وفي سياق اهتمامه بمشكلات الأقطار الإسلامية، كتب مؤلفه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»[٢٩٧]، استعرض فيه قصة الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الإسلامية في البلدان الإسلامية، ونتائج هذا الصراع، وموقف البلاد الإسلامية، وقد كتب في تصديره لذلك الكتاب «إنني أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطار الإسلامية، وأن الجواب على هذا السؤال؛ وهو أنه أي موقف تتخذه هذه البلاد من هذه الحضارة، وأي منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعها بالحياة العصرية، وتحقيق مطالب العصر الحديث، وإلى أي مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة ؟ إن الجواب على هذه الأسئلة هو الذي يحدّد مكانة هذه الشعوب في خريطة العالم، ويعرف به مستقبل الإسلام في هذه البلاد ومدى وفائها لرسالة الإسلام الخالدة العامة»[٢٩٨] . ويرى المؤلف، وهو محق، أن كتابه هذا من أهم مؤلفاته؛ لأنه يدعو الطبقة المثقفة الذكية في العالم الإسلامي للتأمل والتفكير، وأنه جدير بالاهتمام والدراسة[٢٩٩] .

ومن الموضوعات الإسلامية المهمة التي شغلت باله أيضاً وكانت موضوعاً حيوياً في كتاباته، موضوع التربية الإسلامية، والآثار الضارة للأنظمة التعليمية الغربية ومناهجها التي تستورد من الخارج، التي تؤدي إلى اقتلاع عقائد الأمة والقضاء على عواطفها الدينية، فتصبح البلاد الإسلامية، مثل المركب الذي يسوقه فرسان من جهتين متقابلتين، ومن أجل ذلك صدر كتابه «نحو التربية الإسلامية الحرّة في الحكومات والبلاد الإسلامية»[٣٠٠] .

وهجس في خاطره، أنه ربما تسلل إلى نفوس القرّاء المسلمين إحساس اليأس من المستقبل الزاهر، فرأى أن يكتب مقالاً يبعث في النفوس الأمل والطموح، وأن الأعداء عامة، واليهود خاصة مهما انتصروا في بعض المواقع والفترات فإن البقاء للأنفع كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[٣٠١] . فكتب مقالاً بعنوان «الفتح للعرب المسلمين» .

وكان كذلك مهموماً بقضايا بلده الهند، ومنخرطاً في حلها بجهوده الميدانية، والكتابية أيضاً؛ فقد نشر مقالات شديدة الانتقاد على وجهة بلاده الجديدة في جريدة «ندائي ملت» أشار فيها على المسلمين بأن يعرفوا حياة العزّة والكرامة في هذه البلاد، ويحثهم بأن يتقدموا للقيادة الخلقية، وينبههم إلى الأخطار المحدقة[٣٠٢] .

وأثناء زيارته للمغرب عام ١٩٧٦م بدأ بكتابة مقال بعنوان «نحن الآن في المغرب» وبدأه بقوله : «قدّرت لي زيارة أكثر الأقطار الشرقية الإسلامية في شرخ الشباب وفي فجر الحياة وظهرها، وتأخرت زيارة المغرب الإسلامي العربي الحبيب – لحكمة يعلمها الله – إلى أن دنا الأصيل ومالت شمس الحياة إلى المغرب .

لقد تأخرت زيارة المغرب الحبيب جسدياً، وبحساب الشهور والأعوام، ولكن لم تتأخر زيارته والتعرف به في ظلال العلم والدراسة، وفي رحاب المكتبة الإسلامية العالمية

الواسعة، التي يشغل فيها المغرب الإسلامي حيزاً كبيراً، وله فيها ركن خاص هو من أغنى أركان المكتبة وأجملها، وقد عشت في أطيانه، وعشت في أعلامه ونوابغه ردحة من الزمن، وتقلبت بين مدنه وعواصمه، وجوامعه وجامعاته، وحكوماته وحضاراته، وبطولاته ومغامراته، وعثرته ونهوضه، وسايرت ركب تاريخه الطويل المليء بالألوان المختلفة، والأحداث الجسيمة، التي تمر بها جميع الشعوب الحية الكريمة القوية الراجحة في ميزان الشعوب والأمم الغيورة على رسالتها وشخصيتها المحاطة بالأعداء والمنافسين من كل جانب»[٣٠٣].

ثم تحدث عن الأمور التي تساعد على استعادة ذلك المغرب الأقصى من جديد، والحصول على فتوح وانتصارات، وبيّن في هذا المقال أهمية المدينة الإسلامية، وآثارها على الحياة الإسلامية[٣٠٤] .

وفي إطار انشغاله بقضايا المسلمين في الهند، وخاصة قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين، واهتمامه بمسألة الحوار بشأن هذه القضية، طبع مقالاً بعنوان «حاولوا فهم قضايا المسلمين وعواطفهم»[٣٠٥] ذكر فيها خصائص المسلمين، وصلتهم برسولهم محمد ﷺ وصرّح بأهمية قوانين الأحوال الشخصية في حياتهم، وأشار إلى حكمة الزعيم غاندي وبُعد نظره، وواقعيته إذ أيّد قضية الخلافة التي كانت تخص المسلمين، وأحدث بذلك جواً من الوحدة العجيبة بين المسلمين والهندوس والثقة المتبادلة فيما بينهم[٣٠٦] .. وكان له مقال آخر بعنوان «إن البلاد والمجتمع على مفرق خطير ولا بد من الإسراع إلى إنقاذهما والتفكير في أمرهم»[٣٠٧] .

وحين كتب مقدمة لكتاب الشيخ محمد منظور النعماني «الثورة الإيرانية والإمام الخميني والشيعية»، وهو الكتاب الذي أورد فيه المؤلف شواهد كثيرة من كتب الفرقة الاثني عشرية المشينة من الصحابة والخلفاء الراشدين خاصة، وعقائدهم المنحرفة في الإمامة والأئمة، وتحريف القرآن، وأثبت فيه من كتب الخميني أنه يعتقد بتلك الأباطيل، شعر الشيخ أبو الحسن بالحاجة إلى تأليف كتاب آخر مستقل بغير أسلوب الجدل والمناظرة، وإنما يقوم على منطق العقل السليم، والفطرة البشرية الصحيحة، الذي سيكون مرشداً ودليلاً للقرّاء ذوي الإنصاف من أصحاب الفطرة السليمة، وأهل العقل والحكمة ؛ ممن تَخَلَّوا أذهانهم من الخلفيات والرواسب المذهبية، أو يتحرروا منها طلباً للحق واتباعاً للحق لدواعي البصر والبصيرة، فألّف كتابه القيم، ودرته الرائعة، في منطق واع وحكمة بالغة «صورتان متضادتان» واستخدم في عرض الحقائق التي أثارها النصوص القرآنية والشواهد التاريخية، وأقوال العلماء والمؤرخين والغربيين، ثم وجّه سؤالاً إلى القارئ[٣٠٨] (أي الصورتين أبعث على الأمل وأدعى للجرأة والشهادة بالنظر إلى رفعة مكانة النبي ﷺ ومقاصد البعثة الأساسية الجليلة، والطفرة البشرية الصالحة وتقبلها للخير والصلاح ؟ وفي ضوء شواهد التاريخ المحايد المنصف، هل تلك الصورة القاتمة المظلمة التي يقدمها أولئك الذين يحكمون على النبي بالإخفاق في مهمته وتربيته، والانخداع بأصحابه أو الصورة الأخرى المشرقة الشفّافة التي تعرض النماذج البشرية الرفيعة والنّتاج العظيم لتربية النبي الجليلة المغيرة للنفوس ؟)[٣٠٩] وقد نجح هذا الكتاب وأقنع طبقة علمية، ممن لا يألف البحوث العلمية وأسلوب الجدل وأثّر فيها[٣١٠].

ويأتي في هذا السياق، وفي نظام اهتمامه بهذه القضية تأليفه كتاب "المرتضى" عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣١١] .

وظلت روح الداعية الساعي إلى الإصلاح تدفع بأبي الحسن إلى الكتابة في هذا الاتجاه، فكتب مقالاً بعنوان «نحو مجتمع إسلامي معاصر»[٣١٢] ، كما كتب مقالاً بشأن أوضاع الهند تحت عنوان «درس من انتقال الحكم،

والمنهج الصالح لقيادة البلاد»[٣١٣]. وبعد أن رجع من مشاركته في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في أعقاب الغزو العراقي للكويت ١٩٩٠م كتب رسالة بعنوان «كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة ويحافظون عليها»[٣١٤] وبسبب ظروف الأوضاع المضطربة في الهند عام ١٩٩٠م كتب رسالة مستقلة، في موضوع «نصيحة إلى المسلمين في ظروف البلاد فوق العادة»[٣١٥] كما أبدى موقفه بشأن حرب الخليج ومقاومة صدام حسين عام ١٩٩٠م، في مقال نشرته صحيفة "تعمير حياة"[٣١٦].

وهناك مقالات كثيرة نشرت في صحف ومجلات مختلفة يصعب الإحاطة بها في مثل هذه العجالة، نشير إلى بعضها من مثل مجلة «المسلمون»[٣١٧] ومن ذلك مقاله فيها بعنوان «بين الصورة والحقيقة»[٣١٨] ومجلة اللغة العربية، التي يصدرها المجمع العربي بدمشق، ونشرت له «نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي»[٣١٩]، ومجلة الرائد، ومقاله فيها «أدب محمد والمناجاة»[٣٢٠] ومقالة «أدب الرسائل والخواطر»[٣٢١]. كما كان له مقالات في الأدب والدعوة والفكر في كثير من المجلات العربية في مصر ودمشق مثل الرسالة لأحمد حسن الزيات، والفتح للأستاذ محب الدين الخطيب وحضارة الإسلام لمصطفى السباعي، كما كان مشرفاً على إصدار جريدة «نداي ملّت» الأردية، ومجلة «البعث الإسلامي» العربية، ومجلة «تعمير حياة» الأردية[٣٢٢].

والواقع أن تراث أبي الحسن الأدبي المكتوب كثير غزير لا يمكن الإحاطة به في مثل هذا المقام المحدود، وما كان ما قدمناه فيما سلف إلى إشارات وصور، وقد خُصِّصَ جناح في مكتبة ندوة العلماء العامة بمؤلفات سماحة الإمام أبي الحسن، ضم جميع تلك المؤلفات بالعربية والأردية، بطبعاتها المتكررة، وبلغ عدد العناوين التي ضمّها الجناح ما يقارب (٧٠٠) عنوان، مع ملاحظة أن ما ألف بإحدى اللغتين نقل إلى الأخرى، أو إلى لغات أجنبية أخرى[٣٢٣].

وقد أعد محمد طارق زبير الندوي، كتاباً عن الشيخ الندوي ومؤلفاته العربية، بعنوان: «الإمام الندوي ومؤلفاته العربية» اقتبست منها مكتبة حراء قائمة، اقتصر فيها على المؤلفات التي زادت صفحاتها على خمسين صفحة، كما لم تذكر المؤلفات التي ضمت إلى غيرها، وقد تضمنت هذه القائمة المختارة (٦٧) عنواناً[٣٢٤].

٣ - الرسالة :

حرص أبو الحسن في حركته الدعوية التي لا تهدأ أبداً، ألا يترك وسيلة من وسائل الإبلاغ والتواصل، دون أن يستخدمها، ودون أن يسخِّر إمكاناتها في تحقيق أهدافه الدعوية الإصلاحية، ومن ذلك وسيلة كتابة الرسائل، التي حاول أن يتفاعل من خلالها، في الاتجاه الصحيح مع الملوك والقادة والمفكرين العرب وغيرهم، بأسلوب لا تغيب عنه الحكمة، والحوار بالتي هي أحسن، فتبادل الرسائل مع الحكام من أمثال الملوك سعود وفيصل وخالد أبناء الملك عبد العزيز رحمهم الله جميعاً، ثم مع الملك فهد بن عبد العزيز، والأمير عبد الكريم الخطابي، والأمير مساعد بن عبد الرحمن آل سعود، والأمير الحسن ابن طلال، وحسن بن عبد الله آل الشيخ.

كما راسل المفكرين والمثقفين العرب، ومن أهم من راسلهم أبو الحسن، الشيخ عبد الله بن حميد وعبد العزيز ابن عبد الله بن باز، ومحمد بهجت البيطار، ومحمد بهجت الأثري، وعبد الله بن علي الحمود، وأحمد عبد العزيز المبارك، وعبد الفتاح أبو غدة، ويوسف القرضاوي، والبهي الخولي، ومصطفى السباعي، وسيد قطب، ومحمد الغزالي، وعلي الطنطاوي، ومحمد أسد، ومحمود محمد شاكر، وأنور الجندي، وأبو بكر القادري وسواهم[٣٢٥].

كما راسل رؤساء الحكومات في الهند، ولفت الأنظار

إلى مواطن الضعف والتقصير[٣٢٦].. وحثّ زعماء الحركات والمنظمات الشعبية والاجتماعية والسياسية، والمثقفين على تفهم الظروف ومواجهة العناصر المتطرفة[٣٢٧] .

وهناك الرسائل الذاتية الشخصية التي تصف أشواقه وسروره وصحبه وهم في طريقهم إلى الحج لأول مرّة عام ١٩٤٧م والتي بعث بها إلى الشيخ محمد زكريا[٣٢٨] ، والرسائل التي بعث بها إلى أقربائه وأحبائه[٣٢٩]، وحملها انطباعاته عن رحلة أوربا، فقد جاء في رسالة بعث بها إلى محمد الحسني، من باريس عن المرأة عام ١٩٦٣م «لقد تحطّم طلسم مكانة المرأة وكرامتها في أوربا وزال سحرها.. إلى قوله : نوازعهم الفطرية الميتة" وجاء في رسالة أخرى له مؤرخة في ١٥ أكتوبر ١٩٦٣م من لندن «ليس الخبر كالعيان، وقد صدق من قال : أصبحت السيئات والحسنات شهود عيان . إلى قوله : في حقيقة أسمى وأرفع»[٣٣٠].

وبعد عودته من رحلة الحج والحجاز ، تواصلت سلسلة مراسلاته مع أحبابه وأصدقائه من العلماء الذين تعرّف عليهم[٣٣١] .

وعندما رجع من الحجاز عام ١٩٤٨م ، ملكت عقله وقلبه ومشاعره، دعوة العرب إلى الإسلام من جديد، وأن يقوموا العالم كله بدورهم الدعوي والقيادة، واستعادة مكانتهم المفقودة، بحيث فكّر أن يجعل ذلك هدف حياته، ويمكن تصوّر هذه العاطفة والحماس من الرسالة التي كتبها إلى صديقه العزيز مسعود الندوي، حينما كان مقيماً في العراق[٣٣٢] ، وجاء فيها :

«لا تأل جهداً في بذر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقم حجة الله عليهم، وصلِ الليل بالنهار، وحرّق القلب، وأذب الجسم، وأهرق دموع العين، ودماء الكبد، أهرقها سيلاً مدراراً، حتى تبكي دجلة والفرات، على قصر باعها، وقلة بضاعتها، أمسك بتلابيب كل شخص، وقل له : يا أيها الغزال الضال في صحراء العرب، ويا كرامة العالم وشرف الأمم، ويا أمل إبراهيم ومحمد، عليهما الصلوات والتسليمات ، أين أنت؟ ، أهذه هي حصيلة دعاء سيدنا عمر بن الخطاب وإنابته بالأسحار ، ودماء سيدنا مثنّى بن حارثة الغزار، وبوس أبي عبيد الثقفي، وتحطّم عظامه، ورفع سيدنا سعد بن أبي وقاص راية القتال والجهاد، وحرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكاؤه وتململه وخطابته المثيرة المؤثرة، وتأثيره البليغ، وعطش سيّد الشهداء، فلذة كبد الرسول ﷺ ، ورخص دماء أهل البيت ، وتفكير أبي حنيفة وفقهه وتأمله، وتعذيب أحمد بن حنبل وتضييق الخناق عليه، وحماية ابن الجوزي للسنة والدفاع عنها، وتألم الشيخ عبد القادر الجيلي ولوعته، أن تخضع لأئمة الضلال ودعاة الانحراف، وتمشي في ركابهم، وتكون ذرّة تائهة من غبار طريقهم، انفخ في الصور في مقبرة العراق، وأحدث فيهم جلبة القيامة، وزلزلتها فيا لضياع «أهل الحرم» وغفلتهم، ويقظة الأعداء وسهرهم»[٣٣٣] إنها رسالة لا تحتاج إلى تعليق، فهي قادرة على تصوير هذه اللوعة على العرب وعلى مجدهم الضائع، والشوق إلى عودة الروح فيهم من جديد ! .

وفي هذا الاتجاه كتب رسالة إلى عمر بن حسن، رحمه الله، وطلب منه أن يقرأها على الملك سعود رحمه الله، وتتعلق بالمرحلة الانتقالية التي تمّر بها المملكة في ذلك الوقت[٣٣٤] . وكتب لأخيه رسالة تجد فيها ما يشعر به من تأثر البلدان العربية تأثراً قوياً بالحضارة الغربية[٣٣٥] .

وأثناء زيارته لمصر عام ١٩٥١م قدّم آراءه ومقترحاته مرتبة، لمكتب الإرشاد للإخوان بعنوان «أريد أن أتحدث إلى الإخوان»[٣٣٦] .

وفي نطاق اهتمامه بقضايا بلده الهند، كتب رسالة تاريخية لرئيسة الوزراء آنذاك (أنديرا غاندي) عام ١٩٧٦م بسبب الأوضاع الشاذة وحالة الخوف والإرهاب[٣٣٧] .

وفي عنفوان الجهاد الأفغاني ضد الشيوعيين والغزاة

الروس، كتب في ديسمبر ١٩٨٢م رسالة تأييد وتهنئة إلى المجاهدين في أفغانستان لما ضربوه من مثل رائع في مقاومة الحملة الشيوعية الشرسة ، والقوة العالمية الطاغية في ذلك الحين، وكان عنوانها «كلمة للمجاهدين الأفغان»[٣٣٨] .

ومن رسائله الدعوية المخلصة ما بعثه إلى الملك فهد ابن عبد العزيز، وقد رد عليها الملك بتوقيعه رداً كريماً واقعياً جدّد فيه - كما يقول أبو الحسن- ذكرى الملك فيصل بن عبد العزيز الشهيد، وتسلم هذا الرد من السفارة السعودية في (دلهي الجديدة) باهتمام بالغ[٣٣٩] .

٤ - القصة :

من أهم العناصر الأساسية في تراث أبي الحسن الأدبي اللافت، اهتمامه بالجانب القصصي في مسيرته الكتابية والدعوية، واعتماده على القصة وسيلة فاعلة في حمل أفكاره ومنحها قدراً من القوة والحيوية والتأثير، ولا عجب في ذلك، نظراً لما في الأسلوب القصصي من متعة وجاذبية، واستجابة لميول الإنسان المفطور على حب المعرفة والتطلع لمعرفة ماذا سيحدث في المستقبل، ثم إنه أسلوب متبع في المصادر الأساسية للأدب الإسلامي ألا وهو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إلى جانب إحساسه بأن الموجود من أدب الأطفال بعيد عن العاطفة الدينية[٣٤٠] .

وقد وجدنا استخدامه للعنصر القصصي في نشاطه الدعوي المتنوع، متعدّداً في مجالات كثيرة يمكن الإشارة إليها في عجالة على النحو الآتي:

أ - القصّة للأطفال :

اهتم أبو الحسن بأدب الأطفال في سياق اهتمامه بالتنشئة الصالحة للأطفال، وفي إطار اهتمامه التربوي والتعليمي الذي كان يشغل باله أساساً[٣٤١] ، ولأهمية القصة من حيث تأثيرها في جذب اهتمام الطفل، قدّم مادة تعليمية تاريخية للأطفال في إطار قصصي، وأعد سلسلة «قصص النبيين للأطفال» في خمسة أجزاء كان الخامس منها عن «سيرة خاتم النبيين للأطفال»[٣٤٢]، والتزم في كتابته تيسير القصص لتكون في متناول الطفل وعرضها بطريقة مقبولة لديه، بحيث تحبّب إليه الإيمان، وترسخ فيه العقيدة ، وتعمّق في نفسه عظمة الأنبياء عليهم السلام[٣٤٣]. وذلك في أسلوب الداعية ، المفعم بالصدق، المتدفق بالعاطفة وسمو الرّوح[٣٤٤] .

وإلى جانب هذه المجموعة القصصية للأطفال قدّم مجموعة مهمة أخرى بعنوان «قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال» تعنى بقصص الصحابة رضي الله عنهم، وقد درس «سعد أبو الرضا» ملامح القصّة في هذه المجموعة، ولحظ غلبة أسلوب الخطيب الداعية، وتوجيه القصص لتحقيق غرض الكاتب الدعوية[٣٤٥] . ومن قصص المجموعة القصص التالية[٣٤٦]: (المضيف الجائع، شهامة اليتيم، من دون أحد، على الخشبة، رسالة رسول الله ﷺ ، الغرم بدل الغنم، رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس، قدر الشيء حق قدره والجزاء الأوفى عليه، لا حاجة إلى ذكر اسمي ، جواب كان السبب في إسلام مئات الوف من الناس).

وقد شهد سيد قطب - رحمه الله - لجهد أبي الحسن في هذا المجال حين قال: «ولكني أشهد في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي هي بين يدي، جاء أكمل في هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة، وحوادثها، ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، وكلها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار ، جزى الله السيد أبا الحسن خيراً وزاده توفيقاً»[٣٤٧].

ب - الاستشهاد بالقصص في سياق آثاره :

من الملامح الموجودة في عرضه الخطابي أو الكتابي استخدامه للقصة، واستشهاده بها في مواضع خطبه أو

كتاباته، لقصد التأثير بها على المتلقي، وجذب انتباهه ومن ذلك تركيزه المستمر في عرضه الدعوي لقصة الصحابي «ربعي بن عامر» رضي الله عنه، إنه يوظف هذه القصة القوية المؤثرة، ويكرر عرضها، بحيث يحلو لبعض الباحثين أن يطلق على ذلك أنه نموذج للدعوة ابتكر عرضه سماحة الشيخ وأبدع في تمثيله(٣٤٨) .

وأثناء حديثه عن صلة مسلمي العجم بالنبي العربي ﷺ، يذكر قصة ذلك المخمور الذي انتفض فيه الإيمان فجأة، غيرة على حرمة رسول الله ﷺ، ومقامه أن يذكر اسمه، أو يسأل عنه رجل، مذنب مثله(٣٤٩). ومثل استخدامه لقصص بني إسرائيل في خطبته التي ألقاها في الجامعة الإسلامية في بنغلاديش(٣٥٠) . ومثل استشهاده بقصة من قصص ألف ليلة وليلة، في حديثه مع قادة جنتا وكانت القصة تتحدث عن ذلك القاضي الذكي من علماء النفس الذي استخرج المال من الشخص الذي جحد الأمانة التي أودعت عنده(٣٥١). أو قصة العبرة والعظة التي ذكرها من عهد سيدنا موسى عليه السلام وقصّها القرآن الكريم(٣٥٢)، أو قصة الشجرة التي تذب الحيات والحشرات السامة وتدفعها، التي يذكرها في حديثه مع المثقفين المسلمين في عموم الهند، ويشبه العلمانية في الهند بهذه الشجرة، ويحكي القصة في هذا السياق(٣٥٣) .

وأحياناً يجد من المناسب أن يقص القصة لمجرد دفع السأم، يقول : «وقصصت أخيراً على المستمعين لأرفع شيئاً من السأم والملل.. قصة خفيفة مسليّة»(٣٥٤) .

ج - التراجم والسيَر :

قدّم أبو الحسن كثيراً من التراجم وسير الشخصيات، وقد اتسمت كتاباته تلك بأسلوب قصصي، وعرض سردي مشوّق وممتع، ومن ذلك تأليفه «سيرة السيد أحمد الشهيد» ، ويقول عن عمله في تلك السيرة : «.. حياة قائد هذه الدعوة والحركة السيد الإمام أحمد عرفان الشهيد وسيرته وأصحابه، ورفاقه، وأخلاقهم، في أمانة تاريخية، وأسلوب قصصي ...» وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢هـ ، ١٩٥٣م، لأن أختار روايات هذا التاريخ العجيب، فأصوغها في العربية في أسلوب أدبي قصصي شائق، لا يشوبه شيء من المبالغة فضلاً عن الكذب..»(٣٥٥) ولأنه يختار شخصيات ذات أثر فعّال قوي، تقدم صدراً من التضحيات والفداء، فإنه بذلك يحبب تلك المواقف إلى القارئ «ويجعله يعيش متعة روحية من خلال حياة الأشخاص الذين يترجم لهم بطريقة تنفذ إلى أعماق النفس، وتؤثر في الوجدان»(٣٥٦) . وهذه بحق وظيفة الأدب الخالص، الذي يملك خاصية الإيحاء والتأثير.

وفي ترجماته للشيخ محمد إلياس، ومحمد زكريا، يحرص على التركيز على الجهاد في سبيل الدعوة(٣٥٧)، فهو يقدم التراجم لتكون سنداً لعمله الدعوي، وهو يختار الشخصيات المترجم لها من الشخصيات ذات الأثر الفاعل المرتبطة بالعمل من أجل الإسلام، ليقتدى بها وبمنهجها(٣٥٨) .

ومن ذلك موسوعته الأدبية عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام، وهي كما يقول محمد رجب البيومي : «موسوعة أدبية حافلة .. ولكن تراجم أبي الحسن ذات نبض حيّ ، حتى ليصلح أن يكون شعراً منثوراً ..»(٣٥٩) .

وهدفه المؤكد من كتابة التراجم والسير، هو استخدام موهبته الأدبية في دعوته، وفي مسعاه الإصلاحي العظيم، ولذلك أقدم على كتابة قصة حياته، التي هي في واقع الأمر تأريخ لفكره ودعوته، ومجهوداته، ومجهودات من تواصل معهم لخدمة الإسلام والمسلمين والإنسانية، ولهذا يقول عن تأليفه كتاب «في مسيرة الحياة»(٣٦٠) قلت في نفسي إنه لو مرّت بالقراء ضمن قصتي المتواضعة هذه الحقائق الجليلة لكانت زاداً للعبرة والعظة، ودافعاً إلى علوّ الهمة والطموح(٣٦١) . والكتاب كما قال عنه أديب العربية الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله

«كتاب أبي الحسن ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند»[٣٦٢] .

٥ - الترجمة :

من ميزات أبي الحسن إجادته الفائقة للأردية والعربية والإنجليزية وكذلك الفارسية، ولذلك فهو يضيف هنا موهبة أدبية أخرى، إلى ألوان إنتاجه الأدبي الذي وظّفه لخدمة عقيدته ودعوته الإسلامية، تلك هي ما قدّمه من ترجمات من العربية وإليها وخاصة ما ترجمه من الأردية، وعلى وجه الخصوص ترجمته لأشعار محمد إقبال، شاعر الإسلام المتميز، كان من بواكير ترجماته، ترجمة قصيدة «القمر» لإقبال عام ١٩٢٩م[٣٦٣] ، ويذكر الشيخ أن الشاعر نظر فيها عند سفره الأول إلى لاهور[٣٦٤] ؛ ولم يكن الشيخ في ذلك الوقت يرى في شعر إقبال ذلك السمو الفكري، والتحليق المعنوي، إلا بعد أن اطلع على شعره الأخير في «ضرب كليم» حيث تفتحت عينه، على سحر شعر جديد، فيه سمو الفكر، ثم زاد إعجابه به وتأثره بشعره لما قرأ «بال جبريل» إذ وجد فيه كما يقول عنه: «مع سمو الأفكار وجمال النغمة وحلاوة الجرس، وقرأت دواوينه الشعرية الأخرى في الفارسية، وتأثرت به عقليتي، وتفكيري وقلبي تأثراً لا أعرفه في حدود الأدب والشعر والفكر الإسلامي القوي بأي شخصية معاصرة أخرى»[٣٦٥] وقد بلغ إعجابه بشعر إقبال حداً جعله يقول عنه : «.. ولكن تراءى لي أن مصدر آراء إقبال وأفكاره وخواطره، ومنبع نغماته وأناشيده فوق قدرتي ووراء إدراكي، وكنت أشعر بسماعها أو قراءتها كأنها خواطر عالم آخر وأفكاره، وأن علاقتها ليست بالعلم والذكاء وسعة المطالعة وكثرة المعلومات، إنما هو فيض ربّاني، ورشحة من الرشحات العلوية، إنها عبقرية لا تدين للذكاء وسعة العلم وقوة التعبير، وإنما هي هبة من هبات الله التي لا نهاية لها»[٣٦٦] .

وقد بيّن في كتاب «روائع إقبال»، الذي نقل لنا فيه نماذج كثيرة من أشعار إقبال التي رأى فيها أبو الحسن صفة الروعة والجمال، بيّن أسباب إعجابه بشعر إقبال بالدرجة الأولى ما وجده عنده من الطموح والحب والإيمان، وأن هذا المزيج الجميل قد تجلّى في شعره، وفي رسالته أعظم مما تجلّى في شعر معاصر لأحد غيره ، كما أحبه لما فيه من حرص على سيادة الإسلام، وأنه شاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ، يراه أعظم ثائر على الحضارة المادية ، وناقد لها[٣٦٧] ، كما يراه شاعراً صاحب دور في التوجيه وتغيير الاتجاهات والميول ؛ بسبب تأثيره في القلوب والنفوس، ومرد ذلك إلى أنه أدب يصدر من القلب الحيّ، ويرتوي من دم هذا القلب الذي هام بحب الرسول الأعظم ﷺ[٣٦٨] .

٦ - الآراء الأدبيّة والنقدية :

لقد أدرك أبو الحسن منذ البداية أهمية اللغة والأدب في حمل الرسالة وتبليغها[٣٦٩]، وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى أن الإنسان كائن لغوي يفكر باللغة ويتواصل بها مع غيره؛ ولهذا وجدنا القرآن نفسه، ورسول الإسلام يهتم باللغة والأدب، ووجدنا اللغة الأدبية العالية هي وعاء الرسالة، ولذلك ليس من المستغرب أن تكون اهتمامات أبي الحسن الأدبية مسايرة لاهتماماته الدعوية، بل هي جزء منها، وفصل من فصولها، دون نبوّ أو نشاز ، وكان بحق شخصية إسلامية متكاملة، فجاءت آراؤه الأدبية والنقدية مكملة لجهوده الدعوية الإصلاحية، وفي الوقت نفسه خادمة لها.

ولهذا وجدنا آراءه الأدبية والنقدية مبثوثة في كتبه المتعددة؛ ووجدناها موجودة في مسيرته منذ البداية ولم تكن نتيجة مرحلة معينة، أو بسبب تطور فكري أو أدبي خاص، وظلت هذه الآراء والملحوظات تنمو في تراثه، وتتكاثر مع تواصل مسيرة الحياة وتكاثر تجاربها، ولعل

الوقت المتاح لمثل هذه العجالة لا يسمح بالبحث المتقصّي لهذه الآراء، وتوضيحها وتحليل أبعادها لأنها كثيرة متشعبة، وتستدعي مناقشة أفكارها الجزئية وتناصّها مع آراء آخرين من الأدباء والنقاد، توافقاً أو تقاطعاً، أو سبقاً ومتابعة ، ولهذا فسنكتفي بالإشارة فقط، إضافة إلى أن الهدف من هذا البحث يتجه إلى إبراز توظيف الأدب في نشاط أبي الحسن الدعوي أكثر منه دارساً للجوانب الأدبية والنقدية عنده بصورة مباشرة. إضافة إلى أن هناك رسالة علمية قد اعتنت بشكل مباشر بجهود أبي الحسن في تأصيل منهج الأدب الإسلامي، وقدّمت في هذا الصدد دراسة جادة متميزة(٣٧٠) .

كانت روح المعلم النابه والداعية المخلص، والناقد اللمّاح، وراء تمييزه بين أدب الصنعة والتكلف، وأدب الطبع والفطرة، ورفضه لذلك، وسعيه لإتاحة الفرصة لهذا لكي يحدث الأثر، ويحمل الرسالة، وأدرك أهمية ذلك في بناء التعليم على أساسه، ومن هنا اتجه إلى تأليف كتاب يحوي ذخيرة من النماذج العالية لهذا الأدب المختار(٣٧١) ، الجدير بأن يتتلمذ عليه الطلاب والدارسون، ففكر في وضع مختارات من النثر الأدبي في اللغة العربية تحتوي على النماذج الأدبية العالية من القرن الأول إلى العصر الحاضر، تتحرر من قيود السجع والتكلف، وتعبر عن العواطف والمشاعر والوجدان التصورات السليمة الصالحة والمقاصد والغايات السامية»(٣٧٢) ونلاحظ هنا أن همّه قد اتجه إلى جانبي العمل الأدبي المتعانقين الشكل والمضمون.

ونبّه إلى خطورة تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على الأدب الذي يتخذونه حرفة ، وطغيانه على كل ما يؤثر عن الأمة، وما تحويه مكتبها الغنية، من أدب طبيعي مرسل وتعبير بليغ(٣٧٣) ، مما أدىّ إلى أن يغفل مؤرخو الأدب، وأن يقصروا نظرهم عن الالتفات إلى ما أنتجته الأمة عبر تاريخها الطويل، وما حوته مصادرها من ألوان متنوعة من الأدب الفطري الجميل، هذا الأدب الذي نجد أمثاله ونماذجه في كتب الحديث والسيرة المشتملة على روائع من البيان المعبر الجميل المشحون بالعواطف والانفعالات والبلاغة السامية في مبناها ومعناها(٣٧٤).

وكما كان رائداً في إعادة استعراض الأدب العربي والتأريخ له من جديد، وبعث كنوزه المطمورة، كان رائداً في الاهتمام بأدب الأطفال وتقديم نماذج حيوية، وكانت له آراؤه القيمة في كيفية الكتابة للطفل، واختيار اللغة المناسبة، وأن تكون حاملة للمضمون المقصود الذي يزود الطفل بما يكرّه لهم الكفر والمعاصي، ويُحبب إليهم الإيمان والعقيدة، كل ذلك بطريقة ضمنية غير مباشرة .

وفي الوقت الذي ينادي إلى أن يحمل المضمون الإسلامي لغة فنية جميلة، يحس بالغيرة على العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم، وتحدث بها الرسول ﷺ أن تسخر للأغراض التافهة، كمثل ما قرأ في روايات الأغاني، وأدبها الساحر، وتعبيرها الجميل وتصويرها البارع لخواطر النفس وأشكال الحياة، ويرى أن الأولى أن تستخدم مثل هذه الملكة البيانية، وهذه الثروة اللغوية الفذة، وهذا الأسلوب القصصي الخفيف الجميل في مقاصد شريفة وأغراض نبيلة ، وفي تصوير مشرق من تاريخ جميل مشرق(٣٧٥) .

اهتم سماحته منذ وقت مبكر بالدعوة إلى الأدب الإسلامي، الذي يحمل الرسالة الإسلامية ويعبر عنها، ويواجه الأدب المنحرف، منطلقاً من موقف الإسلام، ومعبراً عن المشاعر الإسلامية(٣٧٦) ، وواكب هذه الدعوة من خلال حركتها وتطورها بجهوده المستمرة، بأثره الفاعل، ورفده المستمر لحركة هذا الأدب فكراً وقولاً وتأليفاً(٣٧٧) ، ونقداً وعملاً، واحتضاناً للقاءاته وندواته ومؤتمراته، وحضوراً لدوراتها المتعددة .

ويشير إلى خطورة التيارات الفكرية الجديدة

الوافدة من الغرب، وأنها ذات طبيعة منبثقة مع طبيعة اتجاهات أدباء الغرب وحياتهم المادية والمسيحية والعلمانية والإلحادية ، ولكنها بطبيعة الحال تتفق مع طبيعة العرب واتجاهاتهم وظروف بيئتهم[٣٧٨] ، ويقول : «لقد مضى علينا قرن كامل، وأوربا تغتصب شبابنا وعقولنا، وتنبت في عقولنا الشك والإلحاد والنفاق، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية، والإيمان بالفلسفات الجديدة، الاقتصادية والسياسية، ونحن معرضون عن مقاومتها، معتمدون على ما عندنا من تراث مضربون عن الإنتاج الجديد، حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي»[٣٧٩] .

ومن أهم كتب أبي الحسن التي ضمت خلاصة مركزة جامعة لآرائه الأدبية والنقدية كتابه القيم العميق «نظرات في الأدب» وكتب عبد الباسط بدر تقديماً له ، ذكر فيه أن هذا الكتاب يتميَّز بميزتين نادرتين ، الأولى: أنه نتاج قلم يحمل في تكوينه ثلاث سمات متكاملة متداخلة : الأدب والفكرة والدعوة إلى الله. الثانية : أنه في مجمله كتاب تنظير وتقعيد أقرب إلى أن يكون بيان مبادئ للأدب الإسلامي، يؤصل بشكل مباشر، وغير مباشر مجموعة من الأعراف الأدبية والنقدية»[٣٨٠] .

يؤكد أبو الحسن في مناسبات كثيرة على أن الأدب رسالة سامية، يجب أن يسودها الإخلاص والصدق، وأن يحفل بالحياة، ويعبر عن العاطفة والوجدان[٣٨١]، وأن الأدباء الذين يكتبون عن فكرة أو عقيدة يستجيبون «لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين ، فتشتعل مواهبهم، وينبض خاطرهم، ويتحرّق قلبهم، فتنهال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها؛ لأنها أخرجت من القلب فلا تستقر إلا في القلب، أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين..»[٣٨٢] .

٧ - جهوده في خدمة الأدب الإسلامي:

إن الجهود التي بذلها أبو الحسن في خدمة هذا الأدب، كثيرة وشاملة وابتدأت مع نشاطه العلمي والدعوي، أي من قبل أن يدعو للأدب الإسلامي، وقبل أن يستخدم هذا المصطلح في مجمع اللغة العربية في دمشق، ولكنها برزت بشكل منظم حين أسس مجموعة من الفضلاء رابطة الأدب الإسلامي، التي احتضنها، ورعاها فكرة، ثم حقيقة واقعة، ورعى ندواتها وشارك في مؤتمراتها، وأصّل الأدب الإسلامي، في مجاليه : الفكري التنظيري، والإبداعي بما قدمه من تراث أدبي ضخم في مجالات وأجناس متعددة كما اتضح في الصفحات السابقة.

٨ - أسلوبه الأدبي وبلاغته :

لقد كان لثقافته اللغوية والأدبية الواسعة، ولنفسه المرهفة وأحاسيسه الشاعرة، العامل القوي في أن يتذوق بلاغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ونصوص البلغاء من نثر وشعر في العربية والأردية والفارسية، وانعكس ذلك على أسلوبه المتميز سواءً في الكلمات والألفاظ، أو في العبارات والتراكيب، أو في روح نصوصه العامة، التي جاءت سهلة جميلة ممتعة، يمكن أن نطلق عليها في سهولتها واسترسالها ودقة بنائها وسلامة معانيها، وتأثير بلاغتها بأنها السهل الممتنع.

وكان حريصاً على أن يستخدم العربية الفصيحة في تعبيرها الجميل وتصويرها البارع لخواطر النفس وأشكال الحياة، وكان معجباً بأسلوب الأصفهاني في لغته البيانية، وتصويره المشرق، وكان يتمنى أن تستخدم تلك اللغة وفي أسلوبها الجميل في المقاصد الشريفة، والأغراض النبيلة، ولهذا سعى من أجل أن يحاكي مثل هذا الأسلوب، تحقيقاً لغاياته الدعوية النبيلة، ويقول عن هذه الناحية : «وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الاسلوب في هذه القصص التي أخذتها على عجل من

تاريخ الإصلاح والتجديد في الهند، فإن لم يتحقق لي نجاح الأصفهاني وغيره – وأنى أن يدرك الضالع شأو الضليع– فلا يفوتني فائدة التقليد لأسلوب ساحر، ولا يفوتني نية القاصد وأجر العامل»[٣٨٣]. وكانت الكتابة بأسلوب أدبي بليغ هدفاً يسعى إليه، ومسألة انتبه لها واعتنى بها، واحتفل بها، ومصداق ذلك نجده في كتاباته ومؤلفاته، كما أنه اعترف لنا بهذا الهم الذي يشغله في هذا الجانب مثل قوله : «.. ولم يكن أمامي إذْ ذاك مثال أو أنموذج لمثل هذه المقالات التي تجمع بين قوّة الدعوة، والعاطفة الدينية، والقلم القوي البليغ، واللغة العذبة السلسة».

«وقد كانت اللغة العربية – إلى ذلك الحين – تنقصها مقالات ورسائل، دعوية تمتاز بالثقة والحماس، والاندفاع الداخلي، والحرارة الإيمانية المتدفقة، وخوطب فيها من مستوى الداعية العالي الرفيع، وتجمع في نفس الوقت ، قوة الاستدلال والجد والرزانة والعذوبة والسيلان».

«ولما عزمت على بدء هذه السلسلة من المقالات حمدت الله – تعالى – على منهج التعليم الذي اختير لي، ومقررات اللغة العربية وآدابها التي درستها والبيئة التي عشت فيها ..»[٣٨٤] .

وقد شهد الأدباء والدارسون لتفوق أبي الحسن الأدبي، وبلاغة أسلوبه[٣٨٥]، فيقول محمد المجذوب مثلاً : «ومتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأن لعباراته الأدبية سحراً، لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمقوا في سر الكلمة، وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه، وتلك الخاصة الرئيسة»[٣٨٦] ويرون أن له نزعة أدبية وأسلوباً بليغاً، وتذوقاً للعربية وآدابها[٣٨٧]. وأنه وفق إلى إنشاء مدرسة أدبية تخرج فيها كثير من الكُتّاب والأدباء الإسلاميين[٣٨٨].

الهوامش

١ – في مسيرة الحياة ٣/٩ .

٢ – انظر : النّدْوي ؛ في مسيرة الحياة ١/٢٨–٢٩ .

٣ – له ترجمة في المجلد الخامس من كتاب «نزهة الخواطر» ص٢٨٦–٢٨٨ للسيد عبد الحي الحسني .

٤ – أبو الحسن الندوي ، في مسيرة الحياة ، ١/٢٩ .

٥ – انظر السابق ١/٢٩ .

٦ – انظر السابق ١/٣٠ .

٧ – انظر السابق ١/٥٨–٥٩ .

٨ – انظر السابق ١/٤٧–٤٩ .

٩ – انظر السابق ١/٤٩ .

١٠– السابق ، ١/٥٦ .

١١– علق الشيخ الندوي على ذلك بقوله: «وكانت عادة منتشرة في البلاد خارج أسرتي التي لم تقتبس هذه العادة ولم تكن من أعرافها» انظر في مسيرة الحياة ١/٧٥ (الهامش).

١٢– نفسه ، ١/٥٧–٥٨ .

١٣– انظر السابق ١/٤٢ و ١/٧١، ٧٦، ٧٧ ، وكان أخوه يعنى بمراقبته ومتابعته بشأن المحافظة على الصلاة وكان يراقبه في نوعية الكتب التي يطالعها، بل كان يختار له الجيّد النافع، وكان أوّل كتاب ناوله إياه من هذه الكتب هو كتاب «سيرة خير البشر» ثم قرأ بعده كتاب «رحمة للعالمين» في السيرة النبوية أيضاً، انظر في مسيرة الحياة ١/٧٦ .

١٤– انظر السابق ١/٧٢ .

١٥– انظر السابق ١/٧٨، ٧٩ .

١٦– انظر السابق ١/٨٠ . وقد أتقن دراسة الأدب العربي وتخصص فيه على يد تقي الدين الهلالي المراكشي، عند مجيئه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م ، انظر «ملامح من حياة أبي الحسن» بقلم : سيّد عبد الماجد الغوري في كتاب (المدخل إلى الدراسات القرآنية) ص ٦ ، دار ابن كثير.

١٧- أبو الحسن ، السابق ٨٩/١ .
١٨- انظر : سمير عبد الحميد إبراهيم؛ الأدب الأردي الإسلامي، جامعة الإمام محمد، ١٩٩١م.
١٩- انظر : سيد عبد الماجد الفوري ، ملامح من حياة السيد أبي الحسن، كتاب المدخل ، ص٦ .
٢٠- انظر السابق ص٧ ، انظر : في مسيرة الحياة ٨٧/١ .
٢١- رئيس ندوة العلماء .
٢٢- سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .
٢٣- مقدمة الأديب على الطنطاوي لكتاب في مسيرة الحياة ١٤/١-١٥ .
٢٤- انظر : الشيخ علي الطنطاوي في مقدمته لكتاب (في مسيرة الحياة ٩/١-١٤) ، وعبد الباسط بدر في مقدمته لكتاب (نظرات في الأدب) ص٧-٨ ، وأحمد عبد العزيز الجليبي؛ جهود أبي الحسن الندوي في الفكر الإسلامي المعاصر - الشيخ أبو الحسن الندوي - بحوث ودراسات ص٣٠٨ وسواهم .
٢٥- في مسيرة الحياة ٨٠/١ .
٢٦- انظر السابق ١٨٥/١ .
٢٧- انظر : محمد رجب البيومي ؛ أبو الحسن الندوي ... ، مجلة الأدب الإسلامي (العدد الخاص عن أبي الحسن ، ١٤٢١هـ ، ص٢٣ .
٢٨- أبو الحسن ، في مسيرة الحياة ١٢٨/١ .
٢٩- منشئ حركة الدعوة الدينية الشعبية التي تعرف بحركة التبليغ، وقد كان للندوي على الرغم من هذه العلاقة الدعوية بعض الملحوظات ، وكان له موقف منها أشار إليه في كتابه في مسيرة الحياة ١٩٢/١ .
٣٠- مسيرة الحياة ١٦٢/١ .
٣١- انظر السابق ١٨٦/١ .
٣٢- كان من قادة العصبة الإسلامية قبل التقسيم .
٣٣- أبو الحسن ؛ في مسيرة الحياة ١٨٩/١-١٩٠ وأثر خطابة الشيخ أبي الحسن في سامعيه حق وقد عشت هذه التجربة فأحسست بأثرها، واستمتعت بجمالها الأخاذ حيث كنت طالباً في بداية المرحلة المتوسطة في معهد الرياض العلمي، حيث ألقى أبو الحسن في إحدى زياراته للرياض محاضرة ضافية رائعة في قاعة الاحتفالات في مبنى المعهد والكليتين في شارع الوزير بجوار مصلى العيد، وأذكر أنه تحدّث في ذلك اللقاء عن التاريخ الإسلامي وجهود الدعاة الفاتحين من الصحابة وشنّف أسماعنا وأمتع أرواحنا بقصة ربعي بن عامر وكلامه البليغ المؤثر في خطابه لرستم قائد الجيوش الفارسية .
٣٤- انظر : محمد اجتباء الندوي، الشيخ أبو الحسن؛ مجلة الأدب الإسلامي العدد الخاص بأبي الحسن ، ص٦٦.
٣٥- انظر : سيِّد عبد الماجد الفوري؛ ملامح من حياة العلامة .. ، المدخل إلى الدراسات القرآنية ، ص٧ .
٣٦- أبو الحسن؛ في مسيرة الحياة ١٢٠/١ .
٣٧- انظر : يوسف القرضاوي، الإمام أبو الحسن .. ، مجلة الأدب الإسلامي (العدد الخاص بأبي الحسن) ص١٥٠.
٣٨- انظر: محمد كاظم الظواهري؛ الشيخ أبو الحسن الندوي، بحوث ودراسات، ص٢١٩.
٣٩- انظر كتاب «نظرات في الأدب» ، و«مختارات من أدب العرب» و«روائع إقبال» .
٤٠- انظر الندوي ، نظرات في الأدب ص١١٥، ١١٨، وانظر الظواهري ؛ بحوث ودراسات ، ص٢١٩-٢٢٠.
٤١- انظر : قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ، ص١٣٧ .
٤٢- أبو الحسن الندوي في سيرته الذاتية؛ الشيخ أبو الحسن الندوي بحوث ودراسات ، ص٢٨ .
٤٣- سماحة الشيخ أبي الحسن ، بحوث ودراسات ، ص٤٠٦ .
٤٤- مقدمة في مسيرة الحياة ١٣/١، وانظر سمير عبد الحميد ، أدب الرحلة (الشيخ أبو الحسن الندوي بحوث ودراسات .. ص١٤٩ ، وانظره نفسه في كتابه «الأدب الأردي الإسلامي» ، ص٦٥٧) .

٤٥- انظر : الندوي ؛ في مسيرة الحياة ١/١٥٩ .

٤٦- الندوي ؛ مختارات من أدب العرب، ص١٥-١٦ .

٤٧- انظر الندوي ؛ نظرات في الأدب ص ١٠٥-١٠٦ .

٤٨- السابق ، ص١٠٦ ، وانظر : عبده زايد ، أضواء على آثار الشيخ .. مجلة الأدب الإسلامي العدد

٤٩- الشيخ علي الطنطاوي ، تقديم كتابه الطريق إلى المدينة ، ص١٢ .

٥٠- انظر : أحمد بن عبد العزيز الجليبي ؛ جهود أبي الحسن ؛ أبو الحسن ... بحوث ودراسات ، ص٣٥ . وانظر: في مسيرة الحياة ١/١٧٢ .

٥١- أبو الحسن ، ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ص٢٩٥-٢٩٨.

٥٢- انظر كتابه: إلى الإسلام من جديد.

٥٣- انظر : الندوي ، في مسيرة الحياة ١/٢٠٩ .

٥٤- انظر تقديمه لكتاب أبي الحسن في مسيرة الحياة ١/١٤ .

٥٥- الظواهري، خواطر ولمحات ؛ الشيخ أبو الحسن .. ؛ بحوث ودراسات ص٢٠٨-٢٠٩ . وانظر : في مسيرة الحياة ١/١٥٩، ١٦٠ .

٥٦- محمد هيشور، أبو الحسن الندوي..؛ مجلة الأدب الإسلامي (العدد الخاص عن الشيخ) ص ١٢١. وانظر الندوي، في مسيرة الحياة ١/ ٣١٥-٣١٦ .

٥٧- محمد هيشور السابق .

٥٨- الندوي، نظرات في الأدب ص٢٣. وانظر الوشمي ؛ جهود أبي الحسن .. ص ٣٧٩ .

٥٩- الندوي في مسيرة الحياة ٢/٢٢٢، وانظر الصفحات ٢٢٣-٢٢٤ .

٦٠- انظر : سعيد الأعظمي الندوي ؛ سماحة العلامة..؛ الشيخ أبو الحسن.. بحوث ودراسات ص١٣١.

٦١- أبو الحسن : في مسيرة الحياة ١/١٥٤ .

٦٢- السابق ، ١/١١٩ .

٦٣- السابق ١/١٧٢ .

٦٤- انظر : محمد الرابع الحسني الندوي ؛ قضايا المسلمين في الهند.. الشيخ أبو الحسن .. ، بحوث ودراسات ص٦٢ .

٦٥- انظر : محمد رجب البيومي ؛ أبو الحسن الندوي ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد الخاص عن الشيخ ص٢٥. وانظر : سعيد الأعظمي الندوي، سماحة العلامة..؛ الشيخ أبو الحسن .. ، بحوث ودراسات ص ١٢٥-١٢٧ . وانظر : في مسيرة الحياة ٣/٥-٦. وانظر : سيّد عبد المجيد الغوري ، ملامح من حياة العلامة ، المدخل إلى الدراسات القرآنية .

٦٦- انظر : جابر قميحة ؛ في مسيرة الحياة الأبعاد والمنهج ؛ مجلة الأدب الإسلامي (العدد الخاص عن الشيخ) ، ص٧٩ .

٦٧- في مسيرة الحياة ١/١٨٧-١٨٨ .

٦٨- انظر السابق ١/١٩٤ .

٦٩- انظر السابق ١/١٧٣ .

٧٠- انظر: محمد اجتباء الندوي ، منهج سماحة الشيخ ، الشيخ أبو الحسن الندوي، بحوث ودراسات.. ص٤٠٦.

٧١- قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ، ص٣٧ .

٧٢- انظر : محمد واضح رشيد الندوي، المنهج السياسي الشيخ أبو الحسن ، بحوث ودراسات ص ١٣٦-١٣٧.

٧٣- في مسيرة الحياة ١/٢٤٧ .

٧٤- انظر : محمد واضح رشيد الندوي، المنهج السياسي .. ، الشيخ أبو الحسن ، بحوث ودراسات ص١٣٧.

٧٥- كان من كبار زعماء الهند السياسيين وأحد الخطباء المقتدرين بالإنجليزية . انظر هامش ٢ في مسيرة الحياة ١/ ٢٥٠ .

٧٦- في مسيرة الحياة ١/ ٢٥٠ .

٧٧- انظر السابق ١/ ٢٥٠ -٢٥١ .

٧٨- انظر السابق ١/٣٣٧-٣٤٠ ، وانظر : محمد الرابع الندوي؛ قضايا المسلمين في الهند؛ الشيخ أبو الحسن ..؛ بحوث ودراسات ص٦٤-٦٥ .

٧٩- في صفر عام ١٤٠٨هـ .

٨٠- انظر : محمد اجتباء الندوي، منهج سماحة الشيخ .. ، الشيخ أبو الحسن ، بحوث ودراسات

ص٢٩٩-٤٢٣ (فقد اقتبس هذا الإيجاز منه مع تصرف يسير) ، وانظر: عبد الحليم عويس ؛ الشيخ: أبو الحسن الندوي وقضايا الأمة العربية؛ الشيخ أبو الحسن .. ، بحوث ودراسات ص٦٩-١٠٩ . وانظر : يوسف القرضاوي ؛ ركائز الفقه الدعوي عند العلامة أبي الحسن ، الشيخ أبو الحسن ... ، بحوث ودراسات ص٣١-٤٢ ، حيث بلغت العشرين ركيزة .

٨١- انظر : محمد رجب البيومي ، أبو الحسن ، ص٢٣-٢٤ .

٨٢- سورة الأنفال ، الآية : ٧٣ .

٨٣- في مسيرة الحياة ١/٣٢١-٣٢٢ .

٨٤- انظر: محمد الرابع الندوي، قضايا المسلمين في الهند ؛ الشيخ أبو الحسن.. بحوث ودراسات ص٦٣.

٨٥- انظر : محمد واضح رشيد الندوي، المنهج السياسي .. ، بحوث ودراسات ص١٣٥. وانظر: في مسيرة الحياة ١/٣٣٣-٣٣٤ و١/٣٤٠-٣٤١ .

٨٦- انظر: مسيرة الحياة ١/٥٧ .

٨٧- السابق ١/٥٧-٥٨ . وكان للقائه بالداعية محمد إلياس الرائد في دعوة التبليغ التي تقوم على الوعظ والإرشاد الخطابي، وإعجابه بطريقته التي تقوم على اللقاء المباشر، أثره في أن يندفع في نشاطه الدعوي القائم على الخطابة وبيان اللسان: انظر: محمد رجب البيومي، أبو الحسن...؛ الشيخ أبو الحسن ...، بحوث ودراسات ص١٤، وانظر : الندوي ، في مسيرة الحياة ١/١٦١ ، ١٨٥-١٩٤ .

٨٨- انظر : الندوي : في مسيرة الحياة ١/١٦٥-١٦٦ .

٨٩- نشرت أولاً في مصر ثم نشرت في دمشق والهند. انظر: في مسيرة الحياة ١/١٧٣ .

٩٠- انظر السابق ١/١٧٣-١٧٤ .

٩١- كان عمره آنذاك لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة، ويقول الشيخ عن هذه الترجمة : «ولم تفقد الترجمة شيئاً من قوة الخطابة وطلاقتها وحماستها، مما كان ينبئ باستعداد هذا الشاب النجيب الموهوب وصلاحيته للكتابة والإنشاء ...» في مسيرة الحياة ١/٢٠٨.

٩٢- انظر في مسيرة الحياة ١/٢٠٨ .

٩٣- انظر : سعيد الأعظمي الندوي ، سماحة العلامة .. ؛ الشيخ أبو الحسن ...؛ بحوث ودراسات ، ص١٢٨.

٩٤- انظر : في مسيرة الحياة ١/٢٢٥.

٩٥- انظر : سعيد الأعظمي الندوي، سماحة العلامة، ص١٣١. وكان للشيخ أيضاً محاضرات أخرى منها : محاضرة في جامعة فؤاد الأول ، جامعة القاهرة، بعنوان «الإنسان الكامل في نظر إقبال» ومحاضرة في دار الشبان المسلمين بعنوان : «العالم على مفترق الطرق» وكانت خطبة مرتجلة، ومحاضرة أخرى، نشرت بمصر أثناء إقامته بها بعنوان «الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند» . انظر : في مسيرة الحياة ١/٢٢٢.

٩٦- انظر : في مسيرة الحياة ١/٢٤٠، وقد نشرت بعد ذلك بعنوان «العوامل الأساسية في كارثة فلسطين»، ونشرت في بيروت في رسالة مستقلة، كما نشرت ضمن كتاب المؤلف «المسلمون وقضية فلسطين».

٩٧- انظر السابق ١/٢٤١ .

٩٨- انظر السابق ١/٢٤٤ .

٩٩- انظر السابق ١/٢٥٥-٢٥٩ .

١٠٠- كان الملك سعود - رحمه الله - قد تبرّع لهذه المؤسسة بمبلغ من المال فسميت باسمه .

١٠١- انظر : في مسيرة الحياة ١/٢٦٠-٢٦٢ .

١٠٢- انظر السابق ١/٢٦٢ .

١٠٣- انظر السابق ١/٢٨٩ .

١٠٤- انظر السابق ١/٢٩٧ .

١٠٥- انظر السابق ١/٣٢٥-٣٢٦ ، وقد ألقى خطاباً في الموضوع نفسه في العام التالي ١٣٨٩هـ في المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة .

١٠٦- انظر السابق ١/٣٤٤-٣٤٦ . وانظر : ٢/٤٠ ونشر الخطاب

بعنوان "مأساة الجاهلية اللغوية والحضارية ودروسها" في عدة لغات هي العربية والأردية والإنكليزية والبنغالية .

١٠٧- انظر السابق ١/٣٥٣ .

١٠٨- السابق ١/٣٥٣ .

١٠٩- انظر السابق ١/٣٥٣ .

١١٠- انظر السابق ١/٣٥٣ .

١١١- كان الشيخ يعرفه شخصياً، وزامله في جلسات الرابطة .

١١٢- انظر السابق ١/٣٧٧ .

١١٣- انظر السابق ١/٣٨٠-٣٨١ .

١١٤- انظر السابق ١/٤٠٨ .

١١٥- انظر السابق ١/٤٠٩ .

١١٦- مؤسسة تعليمية كبيرة في سيلان مؤسسها الحاج محمد نظيم .

١١٧- انظر السابق ١/٤١٩ .

١١٨- انظر السابق ١/٤١٩ .

١١٩- نشر الخطاب في كتاب الشيخ «أحاديث صريحة لإخواننا العرب».

١٢٠- انظر السابق ١/٤٢٨- ٤٢٩ . وانظر : سورة هود ، الآية : ١١٦.

١٢١- انظر السابق ١/٤٢٩ .

١٢٢- صحيح البخاري ، كتاب المغازي.

١٢٣- انظر : في مسيرة الحياة ٢/٢١-٣١ .

١٢٤- انظر السابق ٢/٣٥-٣٦ .

١٢٥- انظر السابق ٢/٣٧-٣٨ .

١٢٦- انظر السابق ٢/٤٣ .

١٢٧- انظر السابق ٢/٤١-٤٤ .

١٢٨- انظر السابق ٢/٤٥-٤٦ .

١٢٩- انظر السابق ٢/٤٧-٥٥ .

١٣٠- سورة الأنفال، الآية : ٧٣ .

١٣١- انظر صحيح البخاري ١/٤٣ ، الطبعة الهندية، باب كتابة الإمام الناس / كتاب الجهد . وفي بعض الروايات أن الأنفال نزلت في غزوة بدر، وعدد المسلمين وقتها أقل (انظر: في مسيرة الحياة ١/٧٦ - الهامش).

١٣٢- في مسيرة الحياة ٢/٧١-٧٨ . أثرت نقل هذا الجزء من الخطاب ليكون نموذجاً، ثم لمناسبته للمرحلة الحالية من تاريخ الأمة .

١٣٣- ترجمها إلى الإنجليزية في الجلسة فرحان نظامي .

١٣٤- السابق ٢/٨١، وذكر الشيخ أنه قام بعده ممثل الجامعة ك. ب كريفن فقال في كلمته : «إن تأثير الإسلام على الحضارة البشرية والمدنية الإنسانية تأثير عميق خالد، وذكر شيئاً عن المساجد في منطقة صينية لعلها (سنكيانك) - حيث كان قد أقام برهة من الدهر- وأنها أسست في القرن الرابع عشر المسيحي، وقال إن محمداً ﷺ كان في الصين قبل (ماو) و(ماركس) ولن يزال هناك بعد زوالهما وانقضائهما، وقد كان من الضرورة بمكان أن يقام مثل هذا المركز الإسلامي في رحاب هذه الجامعة .

١٣٥- انظر السابق ٢/٨٣ .

١٣٦- انظر السابق ٢/٨٧-٨٨ .

١٣٧- انظر السابق ٢/١٢٤ .

١٣٨- انظر السابق ٢/١٢٤-١٢٦ .

١٣٩- انظر السابق ٢/١٢٧-١٢٩ .

١٤٠- انظر السابق ٢/١٧٨-١٨٦ .

١٤١- انظر السابق ٢/١٧٨-١٨٦ .

١٤٢- انظر السابق ٢/٢٠١-٢٠٣، وقد نقلها إلى الإنجليزية محيي الدين بسرعة وإجادة وإتقان كما يذكر الشيخ. وانظر طرفاً منها في كتاب الشيخ: في مسيرة الحياة ٢/٢٠٣.

١٤٣- انظر السابق ٢/٢٤٩، ٢٥٢-٢٦٤. وانظر ٣/٢٧-٣١ .

١٤٤- انظر السابق ٢/ ٢٥٠ -٢٥١. وانظر ٣/٢٤-٢٦ .

١٤٥- انظر السابق ٣/٤٤-٥٠ .

١٤٦- انظر السابق ٣/٦٤ .

١٤٧- انظر : ٣/٦٦-٧٢ ، وكانت في ١٨ فبراير عام ١٩٩٠م .

١٤٨- انظر السابق ٣/١٤٦-١٥١ .

١٤٩- كانت القاعة مكتظة بالحاضرين من الأساتذة والطلبة والباحثين والشباب العربي، إضافة إلى الهنود والباكستانيين المقيمين في بريطانيا ، انظر في مسيرة الحياة ٣/١٦١-١٦٩ .

١٥٠- انظر السابق ٣/١٧٠-١٧١ .

١٥١- انظر السابق ١/٢٠٦-٢٠٧، نشر فيما بعد بعنوان «نشان راه» (معالم الطريق) .

١٥٢- انظر السابق ١/٣٥٧-٣٦١ .

١٥٣- انظر السابق ١/٣٦٣ .

١٥٤- انظر السابق ١/٣٠٦ .

١٥٥- انظر السابق ١/٣٧٥-٣٧٦ .

١٥٦- انظر السابق ١/٣٧٨ .

١٥٧- انظر السابق ١/ ٣٨٠ .

١٥٨- انظر السابق ١/٣٨٥-٣٨٦ .

١٥٩- كان في الفترة من ٥-٩ محرم عام ١٤٠٠هـ ، الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩م .

١٦٠- انظر السابق ١/٣٩٤-٣٩٥ .

١٦١- انظر السابق ١/ ٤٠٧ .

١٦٢- انظر السابق ١/ ٤١١ . وقرأ العزيز سلمان الحسيني مقتطفات منها بالعربية. وقد طبعت المحاضرة بالعربية المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ، وطبعت أيضاً في بيروت باسم «الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين» نشر مؤسسة الرسالة. وقد أصدر المجمع الإسلامي العلمي ترجمتها إلى الأردية والإنجليزية .

١٦٣- انظر السابق ١/ ٤١٣ .

١٦٤- انظر السابق ٢/ ٥٦ .

١٦٥- سورة الحج ، الآية : ٢٥ .

١٦٦- انظر السابق ٢/٢٠٧-٢٠٩ .

١٦٧- انظر السابق ٢/٢١١-٢١٣ .

١٦٨- انظر السابق ٢/٨٧.

١٦٩- انظر السابق ٢/ ١١٠، ١١٤، ١١٥.

١٧٠- كانت الندوة في رحاب جامعة كاشف العلوم الواقعة في جامع أورتك أباد في ٢٥-٢٧ صفر ١٤٠٩هـ / ٧-٩ أكتوبر ١٩٨٨م.

١٧١- انظر السابق ٢/٢٣٢-٢٣٤ ، وانظر ٣/١٥-١٦ .

١٧٢- انظر السابق ٢/ ٢٤٧ .

١٧٣- عقدت في المدة من ١١-١٢ نوفمبر ١٩٨٧م.

١٧٤- انظر السابق ٢/ ٢٢٦ .

١٧٥- كانت في المدة من ٢٢-٢٤ نوفمبر ١٩٨٧م .

١٧٦- انظر السابق ٢/٢٢٨-٢٣٠، ألقى هذه المحاضرة بالعربية، كما ألقى خطاباً عاماً في الاحتفال بالليل حضره عدد كبير من أهل البلد.

١٧٧- في المدة من ١٢-١٦ أغسطس ١٩٨٩م .

١٧٨- انظر السابق ٣/٣٥-٣٧ .

١٧٩- انظر السابق ٣/٧٣-٨٥ .

١٨٠- انظر السابق ٣/ ١١٠-١١١ .

١٨١- انظر السابق ٣/١٣١-١٣٢ .

١٨٢- في المدة من ٢٧-٢٨ أكتوبر ١٩٩١م.

١٨٣- انظر السابق ٣/ ١٣٧ .

١٨٤- في المدة من ٢٣-٢٤ نوفمبر ١٩٩١م.

١٨٥- انظر السابق ٣/ ١٣٩. وقد نشرت فيما بعد رسالة مستقلة .

١٨٦- عقدت في المدة من ٥-٧ ربيع الآخر عام ١٤١٢هـ /١٩٩١م تحت إشراف دار العلوم ، تاج المساجد.

١٨٧- سورة إبراهيم ، الآية : ٢٤ .

١٨٨- انظر السابق ٣/١٣٤-١٣٥ .

١٨٩- انظر السابق ٣/ ١٤٥. انعقد في ١٢/١/١٩٩٢م، تحت إشراف هيئة التعليم الديني في مراد أباد .

١٩٠- عقدت في قاعة المحاضرات لفندق سلطان بإستانبول في ٣ ربيع الأول ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

١٩١- انظر السابق ٣/ ٢٥٠ .

١٩٢- انظر السابق ٣/ ٢٥٥ .

١٩٣- في قاعة كلية «مالكم إكس» في شيكاغو .

١٩٤- انظر السابق ٣/ ٢٦٥ .

١٩٥- يذكر الشيخ أن هذا المقال كان مهماً وقوياً، وكان قد أعده للإلقاء في المركز الإسلامي باكسفورد .

١٩٦- كان ذلك في قرارات المركز الإسلامي باكسفورد في إحدى دوراته، وحدد المركز موعد ٢٣-٢٤ أكتوبر ١٩٩٣م موعداً لذلك .

١٩٧- متفق عليه .

١٩٨- السابق ٣/٢٨٥-٢٨٦ .

١٩٩- انظر السابق ٣/٢٨٦-٢٨٧ نشر هذا المقال بعنوان «الحديث والسنة ودرهما في الصيانة عن التحريف والإنحراف» من المجمع العلمي الإسلامي - لكهنؤ .

٢٠٠- كان ذلك عام ١٩٤٤م .

٢٠١- كان من قادة العصبة الإسلامية قبل التقسيم، وتولى الوزارة المؤتلفة في الحكومة الوطنية المؤقتة في دلهي قبل التقسيم (هامش في مسيرة الحياة ١/ ١٩٠) .

٢٠٢- هذا الخطاب زاد فيه الشيخ، وصاغه في صورة رسالة، ونشره بعنوان «إلى ممثلي البلاد الإسلامية».

٢٠٣- السابق ١/١٨٨-١٩٠ .

٢٠٤- عام ١٩٥١م .

٢٠٥- انظر: في مسيرة الحياة ٢٤١/١-٢٤٢.

٢٠٦- كان ذلك بعناية جماعة التبليغ بلكهنؤ بمنتزه أمين الدولة .

٢٠٧- انظر السابق ٢٤٩/١-٢٥٠ .

٢٠٨- انظر السابق ٢٥٠/١ . وانظر : محمد واضح رشيد الندوي، المنهج السياسي ... «بحوث ودراسات» ص ١٣٦-١٣٧ .

٢٠٩- كانت عام ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

٢١٠- انظر السابق ٣٢٠/١ .

٢١١- انظر السابق ٣٢٠/١ .

٢١٢- انظر السابق ٣٨٠/١ .

٢١٣- كان في الاحتفال عدد من الفضلاء العرب منهم عبد الله الزائد، وعبد المنعم النمر، ويوسف القرضاوي ، ويوسف الحجي ، وعبد الله العقيل وسواهم .

٢١٤- السابق ٣٩٩/١-٤٠٢، انظر : مقتطفات من الخطاب ص(٤٠١). وكان يحرص في اللقاءات المشتركة، وخاصة لقاءات رسالة الإنسانية وتجمعات حركتها التي أنشأها أن يتحدث بالأردية وتنشر فيما بعد إلى لغات أخرى كالهندية والإنجليزية (انظر : في مسيرة الحياة ٤٠٤/١-٤٠٥، ٢٦٤/٢-٢٦٩، ٢٧٠/٢) .

٢١٥- كان الشيخ رحمه الله على صلة بهم، عن طريق كتبه ورسائله ولقاءاته . وقد حضروا إلى المطار في عدد كبير لاستقباله . انظر : في مسيرة الحياة ١٥١/٢ .

٢١٦- انظر السابق : ٢٤٧/٢ .

٢١٧- البقرة : ٢٠٨ .

٢١٨- كان ذلك بسبب مشاركته في ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في إستانبول في موضوع «الأدب الإسلامي للأطفال» .

٢١٩- يقع في حي سلطان جفلي .

٢٢٠- درس في باكستان سبع سنوات، وتعلم الأردية وبرع فيها، انظر الندوي، في مسيرة الحياة ٣٨/٣.

٢٢١- انظر السابق ٣٨/٣-٤٣ ، وانظر فيه جزءاً من تلك المحاضرة .

٢٢٢- انظر السابق ٩٣/٣-٩٦ .

٢٢٣- انظر السابق ١٣٨/٣ .

٢٢٤- سورة يس ، الآية : ٣٨ .

٢٢٥- انظر السابق ١٣٣/٣ .

٢٢٦- تقع في ولاية كرناتك، وهي آهلة بالسكان من أصل (النوائط) وهم معروفون في المنطقة كلها بخصائصهم الثقافية والحضارية، ولا تزال هذه الجالية تحتفظ ببعض المزايا العربية لكونها من أصل عربي، وتقع في هذه المنطقة مدرسة دينية باسم الجامعة الإسلامية، تحت إشراف ندوة العلماء ، ومعظم أساتذتها من خريجي ندوة العلماء . (الندوي؛ في مسيرة الحياة ١٤٠/٣) .

٢٢٧- تم نشر هذه الأحاديث، ونالت القبول.

٢٢٨- انظر السابق ١٤٠/٣-١٤١ .

٢٢٩- نشرت بعنوان «أخطر مرض للبلاد والمجتمع الظلم وسفك الدماء».

٢٣٠- انظر السابق ١٩٣/٣-٢٠٩ ، وفيه الكلمتان بالتفصيل .

٢٣١- انظر السابق ٢١٣/٣-٢٢٥ .

٢٣٢- سورة طه ، الآية : ٤٤ .

٢٣٣- سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

٢٣٤- انظر : محمد الرابع الندوي؛ قضايا المسلمين في الهند؛ الشيخ أبو الحسن .. ، «بحوث ودراسات» ص٦٤-٦٦ . وانظر عن الحوارات التي يعقدها الشيخ بشأن قضايا المسلمين؛ في مسيرة الحياة ١٤٣/٢-١٥٢، ٢٦٤، ١٩٣/٣، ومن ذلك حواره وحديثه مع رئيس الوزراء الهند (نرسمها راؤ) عام ١٩٩٣م واستعراضه معه الوضع السائد في البلاد بصفة عامة، والاضطرابات الطائفية، وآثارها الخطيرة، انظر : في مسيرة الحياة ٢١٠/٣.

٢٣٥- انظر: في مسيرة الحياة ٢١٤/١.

٢٣٦- في مسيرة الحياة ٢١٤/١ .

٢٣٧- انظر : سعيد الأعظمي الندوي؛ سماحة العلامة..؛ الشيخ أبو الحسن، ..» بحوث ودراسات» ص١٣١ .

٢٣٨- انظر: في مسيرة الحياة ٢٩٠/١.

٢٣٩- انظر السابق ١٧/٢ .

٢٤٠- انظر السابق ١٨/٢ .

٢٤١- انظر السابق ٢١٥/١ .

٢٤٢- انظر السابق ٢٤٣/١-٢٤٤ .

٢٤٣- انظر السابق ٢٥٩/١-٢٦٠ ، وفيه تفاصيل عن الحديثين .

٢٤٤- انظر السابق ١/ ٢٩٠.

٢٤٥- انظر السابق ٢/ ٢٠-٢١ .

٢٤٦- انظر السابق ٢/ ٣١ .

٢٤٧- انظر : في مسيرة الحياة ١/ ١٤٧-١٤٨ .

٢٤٨- تحقق إكمال ذلك فيما بعد ، متمثلاً في كتابه «الأركان الأربعة»، انظر : في المسية ١/ ١٤٨ .

٢٤٩- انظر السابق ١/ ٢٦٤.

٢٥٠- انظر السابق ١/ ٣٨٠ .

٢٥١- مثل : (مبادئ دراسة القرآن وأصولها باللغة الأردية، والأدعية النبوية وبلاغتها بالأردية، والصراع بين الإيمان والمادية : تأملات في تفسير سورة الكهف بالعربية، انظر : مقدمة محمد الرابع الندوي؛ كتاب روائع من أدب الدعوة للندوي، ص٩ .

٢٥٢- انظر: محمد الرابع الندوي السابق، ص١٠ . وكان ألقى تلك الدروس ابتداءً من ذي القعدة ١٣٩٩هـ الموافق ١٦ أكتوبر ١٩٧٩م .

٢٥٣- انظر : أبو الحسن ؛ روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، دمشق ، دار القلم ، بيروت ، الدار الشاملة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

٢٥٤- ص ١١-٢١ .

٢٥٥- ص ٢٣-٣٣ .

٢٥٦- ص ٣٥-٥٢ .

٢٥٧- ص٥٣-٦٩ .

٢٥٨- ص٧١-٨٩ .

٢٥٩- ص٩١-١٠٨ .

٢٦٠- ص ١٠٩-١٢٩ .

٢٦١- ص١٠٩-١٢٤ .

٢٦٢- ص١٢٥-١٢٩ .

٢٦٣- ص١٣٠-١٤١ .

٢٦٤- انظر: منجد مصطفى بهجت؛ النقد المعياري ... مجلة الأدب الإسلامي العدد الخاص بالشيخ ص٥٧.

٢٦٥- الندوي، في مسيرة الحياة ١/ ٨٠.

٢٦٦- انظر السابق ١/ ٨١ .

٢٦٧- انظر السابق ١/ ٨ .

٢٦٨- هذه العبارة لمحمد رجب البيومي في مقاله عن سيرة أبي الحسن .

٢٦٩- محمد رجب البيومي، أبو الحسن الندوي.. الشيخ أبو الحسن.. «بحوث ودراسات» ص ١٣ .

٢٧٠- عام ١٩٣٠م وقد نشره أبو الحسن فيما بعد مستقلاً في رسالة بعنوان«ترجمة السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد» عام ١٣٥٠هـ .

٢٧١- محمد رجب البيومي ، السابق ص١٣ .

٢٧٢- في مسيرة الحياة ١/ ١٠٠ .

٢٧٣- انظر السابق ١/ ١٢٥ .

٢٧٤- سيرة أحمد الشهيد ، ص٥٤. وهو أول كتاب ظهر له بالأردية عام ١٩٣٧م ، ونال قبولاً في الأوساط العلمية الدينية في الهند وباكستان. انظر : سيد عبد الماجد الفوري، مقدمة المدخل إلى الدراسات القرآنية ، ملامح... ص٨ .

٢٧٥- في مسيرة الحياة ١/ ١٢٦-١٢٧.

٢٧٦- انظر: منجد مصطفى بهجت؛ النقد؛ النقد المعياري .. «مجلة الأدب الإسلامي» ، العدد الخاص ص٥٧. وانظر في مسيرة الحياة ١/ ١٤٢.

٢٧٧- انظر : منجد مصطفى بهجت ، السابق ٥٧.

٢٧٨- انظر السابق ص٥٧. ومن مقالاته التي نشرت عام ١٣٥٨هـ «مشاهدات وانطباعات في مجلة الفرقان ومجلة الندوة» انظر في مسيرة الحياة ١/ ١٦١ .

٢٧٩- انظر السابق ١/ ١٧٠ .

٢٨٠- انظر السابق ١/ ١٧١ .

٢٨١- انظر السابق ١/ ١٧١ .

٢٨٢- انظر السابق ١/ ١٧٣ .

٢٨٣- انظر السابق ١/ ١٧٤-١٧٦ .

٢٨٤- صدر منه عدة طبعات قاربت العشرين أو تكاد، وحظي بمقدمات عديدة أساتذة كبار من مثل أحمد أمين الذي يبدو أنه كتبها دون أن يقرأ الكتاب، ثم محمد يوسف موسى وسيد قطب وأحمد الشرباصي .

٢٨٥- محمد رجب البيومي ، أبو الحسن ... الشيخ أبو الحسن .. «بحوث ودراسات» ص٧-٩ .

٢٨٦- في سبتمبر ١٩٤٨م . وكان يذكر على الغلاف اسم الشيخ واسم الشيخ عبد السلام الندوي.

٢٨٧- انظر : في مسيرة الحياة ١/ ١٨١-١٨٢ .

٢٨٨- انظر السابق ١/٢٠٤-٢٠٥ .
٢٨٩- كان ذلك في شوال ١٣٦٧هـ / أغسطس ١٩٤٨م.
٢٩٠- انظر السابق ١/٢٠٦-٢٠٧ .
٢٩١- انظر السابق ١/٢٢٧-٢٢٨ .
٢٩٢- في مسيرة الحياة ١/٢٢٧، نشر في مجلة الرسالة، السنة التاسعة عشرة ص ٢٢٦، ونشر أثناء إقامته في مصر ثلاث مقالات أخرى هي : «المد والجزر في تاريخ الإسلام» و«شاعر الإسلام محمد إقبال» و«بين العالم وجزيرة العرب» .
٢٩٣- انظر السابق ١/٢٤٤ .
٢٩٤- انظر السابق ١/٢٥١-٢٥٢ .
٢٩٥- انظر السابق ١/٢٥٢ .
٢٩٦- ظهر المجلد الأول في أكتوبر ١٩٥٤م والثاني عام ١٩٥٧م، والثالث في عام ١٩٦٢م والرابع ١٩٨٠م، وكانت بالأردية ، وترجمت إلى الأجزاء (١ ، ٢ ، ٣) إلى العربية، وترجمت الأربعة كلها إلى الإنجليزية ثم صدر بعد ذلك المجلد الخامس .
٢٩٧- طبع عام ١٩٦٥م بدار الفكر ببيروت، ثم طبع عام ١٩٦٨م بدار القلم بالكويت مع زيادات وتنقيحات. كما صدر له طبعة ثالثة، وله طبعات بالأردية ، وطبع بالإنجليزية باسم " Western Civilization - Islam and Muslims"
٢٩٨- انظر السابق ١/٣١٤ .
٢٩٩- انظر السابق ١/٣١٥ .
٣٠٠- انظر السابق ١/٣١٦ . وصدر له ثلاث طبعات، آخرها صدرت من «المختار الإسلامي» بالقاهرة .
٣٠١- سورة الرعد ، الآية : ١٧ .
٣٠٢- انظر السابق ١/٣٣٣ .
٣٠٣- انظر السابق ١/٣٧٩ .
٣٠٤- انظر السابق ١/٣٧٩ .
٣٠٥- نشر من قبل مجلس الوحدة والاستحكام لعموم الهند فرع لكهنؤ ، بصورة رسالة مفردة ، وأعدّ له ترجمة بالإنجليزية والهندية.
٣٠٦- انظر السابق ١/١٤٦.
٣٠٧- انظر السابق ١/١٤٩-١٥٠ .
٣٠٨- انظر السابق ٢/١٩١-١٩٢ .
٣٠٩- السابق ٢/١٩٣. وقد نشر الكتاب أولاً بالأردية أوائل عام ١٩٨٥م ثم نقل إلى العربية بعنوان «صورتان متضادتان» عند أهل السنة والشيعة الإمامية ، ونقل إلى الإنجليزية بعنوان « Islam and the Earliest Muslims two Conflicting» ،ثم صدرت له طبعات متعددة في لغات مختلفة .
٣١٠- انظر السابق ٢/١٩٤. وقد كتب الشيخ عام ١٩٥٨م في موضوع القاديانية ، ونال كتابه شهرة وقبولاً، وأشار الشيخ أن «إنكار ختم النبوة قدر مشترك بين القاديانية والشيعة» انظر : في مسيرة الحياة ٢/١٩٦. وانظر صورتان متضادتان ص٨٢-٨٧ .
٣١١- انظر السابق ٢/٢٣٨-٢٣٩. ألفه باللغة العربية «اللغة التي يؤثرها لتآليفه المهمة» من ١١ رجب ١٤٠٨هـ / ١ مارس ١٩٨٨م، وكانت نهاية الكتاب في ١٤ شوال ١٤٠٨هـ / ١٣ مارس ١٩٨٨م . ونقله عبد الله عباس الندوي إلى اللغة الأردية، وقام بإخراجه ونشره «المجمع الإسلامي العلمي» في ندوة العلماء وجاء في ٤٦٤ صفحة.
٣١٢- انظر السابق ٣/٥٢ ، وقد بعثه إلى الملتقى الفكري بالجزائر المقرر عقده في أغسطس ١٩٨٩م ، ولكنه لم يتمكن من المشاركة لعدم حجز مقعد ولأسباب صحية.
٣١٣- انظر السابق ٣/٥٢، وقد أرسله إلى صحف كثيرة ومجلات مختلفة، ونشر في كثير منها، وقد نقل هذا المقال إلى الإنجليزية.
٣١٤- انظر السابق ٣/٨٥، وكانت بالعربية، وطبعت في مطبعة ندوة العلماء .
٣١٥- انظر السابق ٣/٨٨. نشرت في صحيفة «تعمير حياة» الأردية، وقام قسم الدعوة والإرشاد لندوة العلماء بطبعها . وانظر ٣/١٣٩.
٣١٦- انظر السابق ٣/١١٠ .
٣١٧- انظر السابق ٣/٢٦٩ .
٣١٨- العدد الثامن من السنة الثالثة ص٤٣ وما بعدها . كان يصدرها سعيد رمضان ونشر فيها عام ١٩٥٣م روايات تاريخية في أسلوب قصصي وذلك في عددي يناير وفبراير.
٣١٩- انظر كتاب: نظرات في الأدب ص٢١.
٣٢٠- عدد ٤٩-٥٢ ، ١٤١١هـ، ص٩ .

٣٢١- عدد جمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ١٤١٣هـ ، ص ٩ .
٣٢٢- انظر: ملامح من حياة العلامة .. بقلم سيد عبد الماجد الغوري: المدخل إلى الدراسات القرآنية ص٨-١٠ .
٣٢٣- انظر : عمير الحسيني ، الشيخ أبو الحسن .. «بحوث ودراسات» ص ٤٤٩-٥٥٠ .
٣٢٤- انظر : من مؤلفات سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي باللغة العربية ، الشيخ أبو الحسن ... «بحوث ودراسات».. ص٥٥١-٥٥٥.
٣٢٥- انظر : عبد الحليم عويس ، الشيخ أبو الحسن وقضايا الأمة العربية، الشيخ أبو الحسن ... «بحوث ودراسات» ص١٠٥. وانظر: الشيخ أبو الحسن : رسائل الأعلام ، دار الصحوة بالقاهرة ، ١٤٠٥هـ ، ص١٨٣ وسواها .
٣٢٦- انظر: محمد اجتباء الندوي، منهج سماحة الشيخ ، الشيخ أبو الحسن، بحوث ودراسات ص ٤١١.
٣٢٧- انظر: محمد واضح الندوي، المنهج السياسي ..: الشيخ أبو الحسن.. بحوث ودراسات ص١٣٥.
٣٢٨- انظر: في مسيرة الحياة ١٩٦/١.
٣٢٩- السابق ٢٩٥/١، وانظر : ص٢٩٦ وانظر: رسائل أوروبا ص٣٩-٤٠ وص ٥٥-٥٦ . وقد نشرت في أردو تلك الرسائل بعنوان «مكاتيب يورب» "أوربا" من مكتبة الإسلام ، لكهنؤ.
٣٣٠- السابق ٢٩٥/١، وانظر : ص٢٩٦ وانظر: رسائل أوروبا ص٣٩-٤٠ وص ٥٥-٥٦. وقد نشرت في أردو تلك الرسائل بعنوان «مكاتيب يورب» "أوربا" من مكتبة الإسلام ، لكهنؤ.
٣٣١- انظرها في مجموعة «رسائل الأعلام» ومثل ذلك الرسائل المتبادلة بينه وبين العاملين في مجالات العلوم والدعوة في مصر ، انظر: في مسيرة الحياة ١١٥/٣ .
٣٣٢- بتاريخ ٦ شوال ١٣٦٨هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٩٤٩م .
٣٣٣- في مسيرة الحياة ٢١٠/١ .
٣٣٤- انظر السابق ص١٩٧-٢٠٢ ، نشر هذه الرسالة بتعديلات يسيرة بعنوان «بين الجباية والهداية» في رسالة مستقلة ، ثم نشرت ضمن مجموعة مقالات التي نشرت بعنوان «إلى الإسلام من جديد» ، نشر دار القلم بدمشق.
٣٣٥- كتبها في سبتمبر ١٩٥٠م انظر السابق ٢١١/١-٢١٣ وفيه مقتطفات منها .
٣٣٦- وقد نشروها بصورة رسالة مستقلة، مما يدل على سعة الأفق ورحابة الصدر، وقدّم الطبعة الأولى الشيخ محمد الغزالي ، وقدّم الطبعة الثانية المرشد العام محمد مأمون الهضيبي - رحمهم الله جميعاً - .
٣٣٧- انظر السابق ٣٦٥/١-٣٦٩ . وانظر خطاباً تاريخياً آخر ، السابق ٦٣/٢-٦٨. كما وجه رسالة مهمة إلى راجيف غاندي ١٠٥/٢ ، وقدّم له مذكرة مشتملة على الإصلاح والتعديل ، ٥١/٢ كما قدّم رسالة نصح إلى (نرسمها راؤ) في يوليو ١٩٩١م، ١٢١/٣ . وكتب له رسالة أخرى رداً على رسالة (نرسمها راؤ) إلى أبي الحسن عام ١٩٩٢م ، انظر : ١٧٦/٣ ، ١٧٩-١٨١ .
٣٣٨- انظر السابق ٤٢٢/١-٤٢٣ ، وانظر طرفاً منها .
٣٣٩- انظر السابق ٩٨/٣-١٠٤، وانظر فيه الرسالة والرد عليها .
٣٤٠- انظر: في مسيرة الحياة ١٤٥/١.
٣٤١- انظر : محمد اجتباء الندوي ، الشيخ أبو الحسن .. ، مجلة الأدب الإسلامي العدد الخاص عن الشيخ، ص٦٦-٦٧ .
٣٤٢- انظر : في مسيرة الحياة ١٤٥/١-١٤٧ .
٣٤٣- انظر : محمد بن حسن الزير ، السيرة النبوية في أدبيات الشيخ ، الشيخ أبو الحسن ، بحوث ودراسات ص٤٥٧ .
٣٤٤- انظر : نصر عبد الله سلامة العتوم ، الشيخ أبو الحسن .. بحوث ودراسات ، ص٥٠١-٥٠٣ .
٣٤٥- انظر سيد أبو الرضا، ملامح قصة الأطفال الموجهة .. الشيخ أبو الحسن، بحوث ودراسات ص١١١-١٢٤ .

٣٤٦- انظر : قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال ، وانظر : سيد أبو الرضا (السابق).
٣٤٧- سيرة خاتم النبيين -٠ طـ١٨-٠ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٣م ص٤.
٣٤٨- انظر: محمد اجتباء الندوي، منهج سماحة... الشيخ أبو الحسن... بحوث ودراسات ص٤٠٦.
٣٤٩- انظر القصة في كتاب «الطريق إلى المدينة» ، ص٨١-٨٤ .
٣٥٠- انظر : في مسيرة الحياة ٢/٤٢.
٣٥١- انظر السابق ١/٣٧٣ .
٣٥٢- انظر السابق ٢/١٢٦ .
٣٥٣- انظر السابق ٣/١٣١-١٣٢ ، وانظر القصة فيه، وهو يكررها مرة أخرى في المؤتمر التاريخي لرسالة الإنسانية ، انظر : في مسيرة الحياة ٣/٢٢٦-٢٣٠ .
٣٥٤- في مسيرة الحياة ٢/١٣٥-١٣٦.
٣٥٥- إذا هبت ريح الإيمان ص٥-٩ .
٣٥٦- الحسين العربي رحمون، منهج التراجم.... الشيخ أبو الحسن... ، بحوث ودراسات ص٣٩٣. وانظر ص٣٩٢ .
٣٥٧- انظر السابق ص٣٨٣ ، وانظر : شخصيات وكتب للندوي ص١٥-٤١، وفي مسيرة الحياة ١/١٦١.
٣٥٨- انظر السابق ص ٣٨٦-٣٨٨
٣٥٩- أبو الحسن الندوي ، الشيخ أبو الحسن ،، بحوث ودراسات ص٢٧.
٣٦٠- كتبه بالأردية في خمسة أجزاء ، وترجم إلى العربية في ثلاثة أجزاء.
٣٦١- في مسيرة الحياة ١/٢٢ .
٣٦٢- مقدمة كتاب في مسيرة الحياة ١/٩ .
٣٦٣- انظر : منجد مصطفى بهجت، النقد المعياري .. الشيخ أبو الحسن .. بحوث ودراسات ص٥٧.
٣٦٤- انظر: في مسيرة الحياة ١/١٢٨.
٣٦٥- في مسيرة الحياة ١/١٢٨ .
٣٦٦- السابق .
٣٦٧- انظر : روائع إقبال ، طبعة المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ ، الهند ص١١-١٢ وفي مسيرة الحياة ١/١٢٨-١٢٩. وانظر أيضاً في مسيرة الحياة ٢/ ٢٥٠ -٢٥٢ .
٣٦٨- انظر : دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر ، كتاب نظرات في الأدب ، دار البشير ، عمان، ١٤١١هـ ، ص١٠٤-١١٣.
٣٦٩- انظر : في مسيرة الحياة ٢/٢٢١-٢٢٤ .
٣٧٠- انظر : عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي؛ جهود أبي الحسن الندوي في تأصيل منهج الأدب الإسلامي، «رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في النقد ومنهج الأدب الإسلامي» ، كلية اللغة العربية، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٦٠٩ صفحة .
٣٧١- هو كتاب مختارات من أدب العرب، عام ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م
٣٧٢- في مسيرة الحياة ١/١٤١-١٤٢.
٣٧٣- مختارات من أدب العرب ص ٧ .
٣٧٤- انظر السابق: وانظر : "نظرة جدية إلى التراث الأدبي العربي" ، نظرات في الأدب ص٢١-٣٥ .
٣٧٥- إذا هبت ريح الإيمان ، المقدمة ص١٠ .
٣٧٦- انظر : عبد القادر بن عيسى باطاهر ، ملامح الأدب الإسلامي.. الشيخ أبو الحسن .. بحوث ودراسات ، ص٥٠٠ .
٣٧٧- انظر: منجد مصطفى بهجت ، النقد المعياري .. ، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخاص عن الشيخ، ص٥٨ .
٣٧٨- انظر السابق ص ٥٨ .
٣٧٩- أبو الحسن الندوي ؛ نقلاً عن السابق ص٥٨ .
٣٨٠- نظرات في الأدب ص٥ .
٣٨١- انظر سمير عبد الحميد إبراهيم، الأدب الأردي الإسلامي، ص٦٥٧.
٣٨٢- مختارات من أدب العرب، ص١٥.
٣٨٣- مقدمة كتاب إذا هبت ريح الإيمان ص١٠ ، وانظر ص ٩ .
٣٨٤- في مسيرة الحياة ١/١٧١ .
٣٨٥- انظر : عبد الباسط بدر، مقدمة كتاب نظرات في الأدب ، ص٧ .
٣٨٦- علماء ومفكرون عرفتهم ١/١٤٦ .
٣٨٧- انظر : فوزية بريون، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد الخاص عن الشيخ ، ص٢٢٤ .
٣٨٨- انظر : الأعظمي ، الشيخ أبو الحسن ، بحوث ودراسات ص١٣١.

أمالي الشريف المرتضى

دراسة نقدية

أحمد محمد المعتوق

قسم الدراسات الإسلامية والعربية - جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

تمهيد :

الشريف المرتضى هو علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥- ٤٣٦هـ) عالم ومتكلم وشاعر وأديب وناقد ، ولد في بغداد من أسرة حظيت بمنزلة اجتماعية ودينية وثقافية عالية[1]، فبالإضافة إلى انتساب هذه الأسرة من جهة الأب والأم إلى علي بن أبي طالب خليفة المسلمين الراشدي الرابع ، فقد ورثت الزعامة الدينية والاجتماعية لفرقة الطالبيين التي كانت تشكل إحدى الطبقات الشريفة الكبيرة في المجتمع العراقي إبان الحكم العباسي . كما تولى عدد من أفرادها بعض المناصب الدينية والإدارية المهمة آنذاك ، كان منها نقابة العلويين أو الطالبيين وولاية الحج وولاية المظالم[2] .

عاش الشريف المرتضى في بغداد ، خلال فترة الحكم البويهي ، والذي بدأت سيطرته على العراق وبلاد فارس سنة (٣٢٠هـ) واستمر حتى دخول السلاجقة بغداد سنة (٤٤٧هـ) واستيلائهم على السلطة . وكانت هذه الفترة من فترات الضعف في الخلافة العباسية ومن الفترات الحافلة بالصراعات والنزاعات السياسية . غير أنها كانت من أكثر الفترات ازدهاراً من النواحي العلمية والثقافية ، فقد كانت الحركة الفكرية فيها نشطة ، وكان تنافس رجال السياسة على استقطاب الشخصيات العلمية وتقريب رجال المعرفة كبير ، وكانت لكل هذه التطورات آثارها الإيجابية في تكوين شخصية المرتضى العلمية والأدبية والاجتماعية .

تفاعل المرتضى مع بيئة عصره وأفاد من النشاطات الفكرية التي حفل بها في تطوير حصيلته العلمية وتوطيد مكانته الاجتماعية . وكان للتنافس الذي رافق النزاع السياسي أثر واضح وكبير في زيادة نفوذه اجتماعياً وفي الارتقاء بمكانته العلمية في أن واحد : فقد تمكن من توثيق علاقاته بالأطراف المتنافسة أو المتنازعة من رجال السياسة ورجال العلم والأدب ، وتمكن من كسب احترامها وتقديرها . وكانت هذه العلاقات عاملاً في زيادة فرص احتكاكه بمصادر ثقافية رفيعة المستوى وفي زيادة نشاطاته العلمية والأدبية ، وقصائد التعازي والتهاني والمديح والرثاء الكثيرة التي نظمها المرتضى في المبرزين من رجال الدين والسياسة والأدب والعلم في عصره ، والكتب التي ألفها تلبية لرغبة بعض رجال الدولة آنذاك ، هذه كلها تشهد بمكانته بين رجالات عصره وبعلاقاته الوثيقة على مختلف المستويات وبما عادت به تلك العلاقات من نتائج إيجابية ومن آثار في بناء شخصيته العلمية والأدبية والاجتماعية وفي إبراز العديد من مواهبه[3] .

لقد أشاد المؤرخون بذكر الشريف المرتضى وبما كان يتمتع به من جلال الشخصية وتعدد المواهب وعظم الشهرة وعلو المكانة بين علماء وأدباء عصره ، ونص كثير منهم على أنه كان من أئمة المسلمين في الفقه والأصول والتفسير وعلم الكلام ، ومن أبرز من نبغ في علوم العربية

والنقد والأدب ورواية الشعر وأخبار العرب .. وذكروا العديد من مؤلفاته في هذه المجالات . كما نوهوا بديوان شعره وبما احتواه من نتاج غزير ثري[٤] . قال عنه معاصره ابن بسام الشنتريني : «وكان هذا الشريف إمام أئمة العراق بين الاختلاف والاتفاق ، إليه فزع علماؤها وعنه أخذ عظماؤها ، صاحب مدارسها وجماع شاردها وآنسها ، ممن سارت أخباره وعرفت أشعاره»[٥] .

أما عبد الملك الثعالبي فقد صرح في كتابه «يتيمة الدهر» بقوله : «وقد انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والادب والفضل والكرم»[٦] . بينما صادق كل من ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء» وابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» على أن المرتضى : «مجمع على فضله وأنه توحد في علوم كثيرة مثل علم الكلام والفقة واصوله والادب والنحو والشعر ومعاني الشعر واللغة وغير ذلك»[٧] . وأيد تفوقه في الحقول العلمية والأدبية المذكورة عدد آخر من كبار المؤرخين والمفكرين حتى من أولئك الذين كانوا يخاصمونه لاختلافهم معه في بعض المسائل العقائدية[٨] .

وما وصلنا من مؤلفات المرتضى العديدة البارزة يدل بالفعل على تعدد مواهبه وتنوع خبراته واتساع معرفته وغزارة علمه، وعلى تضلعه، لا في مجال العلوم الاسلامية والعقائد والكلام فحسب ، وإنما في اللغة والأدب والشعر والنقد أيضاً. فله من جملة مؤلفاته التي بين أيدينا في الوقت الحاضر: كتاب «الانتصار» في الفقه، وكتاب «الذريعة» في الأصول ، وكتاب «الشافي» في الإمامة ، و«الذخيرة» و«تنزيه الأنبياء» في العقائد وعلم الكلام . هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الرسائل في الفقه والأصول والتفسير والعقائد واللغة والأدب بلغت ما يقرب من ثمانين رسالة كما أحصاها المؤرخون . وبالإضافة كذلك إلى ديوان شعره الضخم وكتب الأدب والنقد التي سنأتي على ذكرها .

إن هذه المؤلفات العديدة تدل بما احتوته من أفكار ونظريات وآراء ومعارف وفنون على براعة المرتضى وتعدد مهاراته وسعة وعمق اطلاعه على معارف عصره ، كما تدل على أن مكانة المرتضى كأديب بارع مبدع لا تقل كثيراً عن مكانته كفقيه وأصولي ومتكلم ولغوي ومفسر ، ويبقى ديوانه الضخم المكون من ثلاثة أجزاء شاهداً على قوة إبداعه[٩] حيث يظهر هذا الديوان الثري ما يتمتع به المرتضى من شاعرية خصبة ثرة .

أما فيما يتعلق بالنقد الأدبي فإن دراسة مؤلفات المرتضى ذات الصلة بهذا المجال مثل : كتاب (الشهاب) ، وكتاب (طيف الخيال) ، ثم كتاب (الأمالي) الذي نحن بصدد الحديث عنه .. هذه المؤلفات بمجملها تدل دلالة واضحة على أن المرتضى لا يقل في مؤهلاته وخبراته واطلاعه وبراعته كناقد عن كثير من نقاد عصره البارزين . إذ إن هذه المؤلفات تدل دلالة واضحة على أنه ملم بكثير من النظريات والآراء النقدية ، وأنه خبير بأصول وقواعد النقد التي كانت معروفة في عصره ، وكتابه (الأمالي) ابرزها وأكثرها دلالة على ذلك .

كتاب الأمالي- أهميته :

لقد تميز كتاب (الأمالي) بالإضافة إلى دلالته على شخصية المرتضى كناقد له منهجه الرصين المتميز وذوقه الشاعري الصقيل المهذب وإحساسه المرهف الممزوج بعقلانية العالم وأسلوب الفيلسوف ، تميز بكونه مصدراً مهماً من مصادر الأدب لا يستغنى عنه ، ومرجعاً بارزاً في التفسير واللغة والبلاغة والتاريخ والأنساب والأمثال وعلم الكلام ورواية الشعر لا يقل من حيث مستواه وثراء محتواه وتنوع موضوعاته وعلو مكانته عن كتب الأمالي المشهورة وكتب الأدب الأساسية الأولى ، مثل كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ) وكتاب الأمالي لهبة الله بن علي المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) والبيان والتبيين

للجاحظ و «الكامل في اللغة والأدب» لمحمد بن يزيد المبرد (ت ٣٥٠هـ) وكتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) . هذا إن لم يبز هذه الكتب ويتفوق عليها كلها من حيث الشمول وسعة الإحاطة وتنوع الموضوعات ورصانة المنهج ودقته .

يقول محقق هذا الكتاب محمد أبو الفضل إبراهيم : «وحينما يستعرض الباحث كتب العربية النفيسة التي حوت ألوان المعارف ، وزخرت بأشتات الطرائف ، وحفظت بين دفتيها نتاج القرائح ، وحقائق السير والتاريخ والأخبار ، ونصوص الشعر واللغة والغريب فإنه بلا مِراء يعد منها كتاب أمالي المرتضى – أو كما يسميه مؤلفه «غرر الفوائد ودرر القلائد» – وينظمه في العقد الذي يضم كتاب الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد لابن عبد ربه ، والأغاني لأبي الفرج ، وغيرها من الكتب التي حلّقت في سماء الآداب العربية كالنجوم ، وأرست قواعدها كالأطواد ، وعمرت بها مجالس العلماء وسوامر الأدباء ؛ وتدارسها المتأدبون جيلاً بعد جيل ؛ وتداولها النساخ ، وعدّت في مكتبات الدارسين من أكرم الذخائر وأنفس الأعلاق»[١٠] .

رغم شهرة المرتضى ومكانته العلمية الكبيرة التي سبق الحديث عنها، ورغم ما تبين من الأهمية لكتابه «الأمالي» وما كان لهذا الكتاب من أثر في تطوير الحركة الأدبية ومن تأثير في عدد من الأعمال العلمية التي ظهرت بعده مما سنبينه فيما بعد، رغم ذلك كله لم ينل هذا الكتاب القيم – على حد علمي – من العناية والدراسة مثل ما نالته كتب الأمالي وكتب الأدب الأخرى المماثلة في المكانة والأهمية، مثل : «أمالي القالي» و «أمالي ابن الشجري» و«الكامل» للمبرد وغيرها . وربما كان من أسباب ذلك ما يلي :

أ – ما جرت عليه العادة من متابعة بعض دارسينا المعاصرين لبعضهم الآخر فيما يبحثون فيه من موضوعات ويتبعون من مناهج ويتوارثون العناية به من أعمال علمية وأدبية، فإذا كان قد أغفله السابقون فلا مانع من أن يغفله اللاحقون .

ب – غلبة شهرة الشريف المرتضى في مجالات الفقه والأصول والعقائد وعلم الكلام والعقائد وعلوم الشريعة الأخرى على شهرته في مجالات اللغة والأدب والنقد ، مما جعل المجالات الأولى تستحوذ على اهتمام مؤرخي المرتضى ودارسي أعماله وتقلل اهتمامهم بما دونها ، وربما كان مما يدل على ذلك قدم الاهتمام بطبع ونشر مؤلفات المرتضى في المجالات الأولى وتأخر ظهور مؤلفاته في المجالات الأخرى أو تأخر العناية بطبعها ونشرها حتى من قبل مريديه وأبناء طائفته .

ج – محدودية انتشار كتب المرتضى وأعماله الأدبية بسبب تأخر طباعتها، أو تعثر توزيعها، مما أدى إلى ذيوعها بين أفراد طائفة الشيعة أكثر منه بين أوساط بقية الطوائف الإسلامية والعربية . وقلل بالتالي من فرص التنبه إليها وإيلائها ما تستحق من العناية والاهتمام. وبذلك فلم يتسن لها أن تبرز على نحو مماثل كتب الأدب والأمالي السابقة الذكر .

ومن هنا جاءت ضرورة تسليط الضوء على كتاب «أمالي المرتضى» الذي يعد كما سبقت الإشارة من أوسع وأغنى كتبه الأدبية ، والسعي لإعطائه قسطاً مما يستحق من العناية ، وإبرازه بنحو يمهد للمقارنة بينه وبين أمثاله من كتب الأدب المتميزة ، ويكشف عن ما يتضمنه من جوانب جديرة بالمزيد من التأمل والدراسة ، ويظهر مكانته وأهميته كمصدر علمي وأدبي ، ويبين مدى إسهامه في تطوير الحركة الفكرية في العصر الذي ظهر فيه ، كما يبين مدى انعكاس هذه الحركة على شخصية مؤلفه ، وأخيراً يوضح مدى مصداقية أقوال المؤرخين ممن أشرنا إليهم

في بداية هذا المقال وانطباقها على هذه الشخصية من خلال عمله في هذا الكتاب .

لا تتسع هذه الدراسة الموجزة لتقييم شامل لمواقف المرتضى وآرائه في المسائل الدينية والعقائدية والكلامية أو القضايا اللغوية والأدبية والنقدية التي يطرحها خلال تعليقاته ومناقشاته لموضوعات كتابه (الأمالي) ، وإنما تسعى بالدرجة الأولى إلى تقديم عرض وصفي تحليلي نقدي موجز نسبياً ، تتشكل من خلاله صورة واضحة متكاملة نوعاً ما عن طبيعة الكتاب ونوعية الموضوعات التي يتناولها أو يتطرق إليها ، وعن المنهج المتبع في معالجة هذه الموضوعات والأفكار والآراء التي تطرح ضمنها ، والمواقف التي تتبين من خلالها ، وأخيراً الطريقة أو الطرق التي يعبر بها المرتضى عن هذه الأفكار والآراء والمواقف، ولاسيما المتعلق منها بالمسائل والقضايا الأدبية والنقدية . والتي تشكل طابعاً مميزاً بارزاً في الكتاب . وهكذا يتبين - كما نأمل - المستوى العلمي للكتاب في إطار موضوعه العام وعصره والبيئة الخاصة والعامة التي انبثق فيها وانطلق منها ، وتظهر قيمته وجوانب الإبداع والتفرد التي يمكن أن يرتكز عليها في تقييمه ومقارنته بالأعمال الأخرى المماثلة .

طبيعة الكتاب وموضوعاته :

جاءت كلمة (أمالي) من لفظ (إملاء) ، وهو : «أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ويكتبه التلامذة فيصير كتاباً ويسمونه الإملاء والأمالي . وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم»[11] وقد عد صاحب كتاب «كشف الظنون» بعد إيراده لهذا التعريف (٦٧) كتاباً بهذا الاسم في مختلف المعارف والعلوم والفنون التي عرفت في تلك العصور ، إلا أنه لم يذكر «أمالي المرتضى» ضمنها ، رغم انطباق المفهوم الذي ذكره على الكتاب ، وإنما ذكره باسم آخر وهو «الدرر والغرر في المحاضرات» . ولكنه وصف هذه «الدرر والغرر» بعد تأكيد وتوثيق نسبتها للشريف المرتضى بقوله : «وهي مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب كالنحو واللغة وغير ذلك ، وهو كتاب ممتع يدل على فضل مؤلفه وتوسعه في الاطلاع على العلوم»[12] .

ويبدو أن صاحب كشف الظنون اقتبس تعريفه السابق الذكر للكتاب من ابن خلكان ، إلا أن ابن خلكان ذكر «أمالي المرتضى» ضمن ترجمته للشريف المرتضى وتعداده لمؤلفاته باسم «الغرر والدرر» ، وقال : «وهي مجالس أملاها تشتمل على فنون من معاني الأدب تكلم فيها على النحو واللغة وغير ذلك ، وهو كتاب ممتع يدل على فضل كثير وتوسع في الاطلاع على العلوم»[13] .

وأياً كان التنوع والاختلاف في تسمية هذا الكتاب ووصف عنوانه ، فقد اشتهر ، ولاسيما بين مؤرخي الأدب المحدثين باسم «الأمالي» . كما عرف أيضاً بكتاب «غرر الفوائد ودرر القلائد» .

يعتبر «أمالي المرتضى» كتاباً كبيراً من حيث الحجم نسبياً ، فهو يتألف من حيث مضمونه العام من (٨٠) مجلساً أو محاضرة ، يستغرق عدد كبير منها صفحات تتجاوز (٢٠) صفحة أحياناً ، هذا بالإضافة إلى تكملة أضيفت للكتاب تقع في (١٠٨) صفحات ، تشتمل على مسائل مماثلة في طرق عرضها ومعالجتها لموضوعات مجالس الكتاب وفصوله.

وقد ظهر كتاب «الأمالي» في طبعات مختلفة ، تباين حجم الكتاب فيها ، وكان آخر هذه الطبعات وأفضلها - فيما يبدو - الطبعة التي صدر فيها عن دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، بتحقيق وتنقيح وتقديم محمد أبي الفضل إبراهيم ، وهي الطبعة التي أعتمد عليها في هذه الدراسة ، وقد أخرج الكتاب في هذه الطبعة في ورق جيد وطباعة واضحة وذيل بفهارس تفصيلية لموضوعاته

ولما تضمن من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار ومواد لغوية مفسرة وأمثال ، ولما ورد فيه من أسماء الأعلام والملل والطوائف والأمم والقبائل العربية ... وقد تألف الكتاب بمجمله في هذه الطبعة من (١٣٨٥) صفحة ، جاءت في جزئين أو مجلدين من القطع الكبير المألوف[١٤] .

ويحتوي كتاب «الأمالي» وفق ما تبين على مجموعة وافرة من المحاضرات أو الدروس . أملاها الشريف المرتضى - كما يبدو - على تلامذته أو مستمعيه في أوقات متعاقبة ومختلفة لم تؤرخ أو يحدد زمن أو مكان إلقائها أو إملائها . وقد جمعت هذه المحاضرات ونظمت فيما بعد على هيئة مجالس ، بلغت ثمانين (٨٠) مجلساً . وألحقت هذه المجالس في طبعتها الموجودة بين أيدينا بتكملة كما سبق القول ، مكونة من مجموعة فصول قصار اختلفت في قصرها - وضع معظمها تحت عنوان (مسألة) .

وقد تضمنت هذه المجالس والفصول المذكورة مناقشة وبحث موضوعات ومسائل وقضايا متنوعة في التفسير والفقه والحديث والعقائد والتاريخ والأنساب وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والأدب والشعر والنقد والبلاغة والبيان والبديع ... وهكذا تجاوز الكتاب باهتمامه حدود ما كان متعارفاً عليه عند بعض قدامى الأدباء من علوم الأدب ، حيث حددوها بـ «اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع»[١٥] وإن غلب على الكتاب في الظاهر طابع التفسير للآيات القرآنية والأحاديث المروية ، فإن الاستطراد في التعليق والتداعيات الكثيرة التي ترد على هذا التعليق هي التي زادت الكتاب ثراء وجعلت منه موسوعة علمية وأدبية شاملة لأكثر معارف العصر ، حافلة بالشواهد والأمثلة على كل فن من الفنون التي تطرق مؤلف الكتاب إلى بحثها أو الحديث عنها .

لقد تضمن الكتاب من الشواهد ما يزيد على(٥٦٦) آية قرآنية شرح منها ما يزيد على المائة وأربعين (١٤٠) آية ، وعلى (٧٩) حديثاً شرح وفسر غريب أكثر من ثلاثين (٣٠) حديثاً منها . كما حوى (١٣٤٩) بيتاً من الشعر مع (٧٥) من الأرجاز لما يقرب من (٢٦٦) شاعراً وشاعرة ممن برز أو أغفل من شعراء العربية ، منذ الجاهلية حتى زمن المرتضى وعصره . كما تضمن (٣١) من الأمثال العربية المأثورة . وتفسير لأكثر من (٧٥٣) مفردة لغوية غريبة ، هذا كله بالإضافة إلى ما حواه الكتاب من تراجم لعدد كبير من شعراء العرب والمسلمين وحكمائهم ومتكلميهم وأعلامهم ومعمريهم ، ومن ذكر لعدد كبير من أيام العرب وأماكنهم وأمصارهم وقبائلهم وبيوتاتهم ، وما ظهر أو عرف بينهم وبين المسلمين عامة من الفرق والطوائف والمذاهب والملل والنحل والأنبياء والرسل والأولياء ، والتعليق على كل من ذلك بما يتناسب مع سياق الكلام في المجلس أو يناسب المقام .

إن الطابع الغالب ظاهرياً على الكتاب كما ذكر هو التفسير والتأويل ، حيث تستهل المجالس في معظم الأحوال بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، ويبين ما أشكل أو غمض أو غم تأويله أو دار وكثر حوله السؤال فيها ، وتناقش المسائل المتعلقة بهذه الآيات أو الأحاديث ، فيستغرق ذلك أجزاء كبيرة من الكتاب ويطغى الأسلوب التحليلي والمنهج العلمي فيه . إلا أن ما يقتضيه هذا التفسير من تدليل وبرهنة ، وما يترتب على التحليل والتعليق والمناقشة من تعمق وتدقيق ويدعو له من استطراد وتوارد وإسهاب في الحديث يغير طابع الكتاب ووتيرته في كثير من الأحيان ، حيث يحاول المرتضى جهده في مواقف كثيرة لأن يوفق بين تأويل الآيات المتشابهة وبين ما دار على ألسنة العرب من نصوص الشعر واللغة وبليغ الأقوال ونادرها من النثر ، ويعلق على هذه النصوص ويفسر غريبها وتشرح معانيها وتبين صورها وجوانب الإبداع فيها ، وقد تقارن هذه النصوص وتوازن بنظائرها في

الغرض أو الشكل والتركيب أو المعنى أو الأسلوب ، كما قد تناقش وتستعرض وجهات النظر فيها وفي قائليها ومكاناتهم ويستطرد أكثر في الحديث عنهم وعما اشتهروا به وتذكر جوانب من سيرهم وطرف من أخبارهم أو يشار إلى من تأثر بهم أو شابههم في النهج أو الأسلوب أو التفكير. وهكذا تتحول أجزاء من الكتاب وفق هذا المنوال إلى مباحث في الشعر والنقد والبلاغة واللغة والأدب وتاريخه والفن وأصوله.

وقد يفضي تأويل الآية أو تفسير الحديث أحياناً إلى ذكر مفهوم أو حكم تتباين حوله الآراء وتختلف وجهات نظر المفسرين أو المتكلمين أو المحدثين فيه ، مما يستوجب استعراض هذه الآراء ووجهات النظر المختلفة ويستدعي ذلك تحليلها ومناقشتها أحياناً ، كما قد يجر إلى ذكر أصحابها وبيان ما يلتقون فيه أو يختلفون عليه ، أو يستطرد إلى الحديث عن نزعاتهم وتوجهاتهم العقائدية أو الطائفية الدينية أو الفكرية ، وهكذا تتحول أجزاء أخرى من الكتاب إلى أسفار علمية ، في التفسير أو علم العقائد والكلام أو في تقييم مؤلف جليل في الحديث أو التاريخ . وعلى هذه الطريقة يتنوع طابع الكتاب ، وتتسع مجالاته ، ويمتزج فيه العلم بالأدب والفن ، وتتراوح الأساليب فيه بين الجفاف والرقة ، وبين حوار العقل وعمل الذوق وخطاب الوجدان ، في ترابط وتوازن وثراء وانسجام فريد في المضمون والأسلوب .

بحث المرتضى في «الأمالي» وفق أسلوبه السابق الذكر قضايا علمية وأدبية كثيرة ومتنوعة ، هذا بالإضافة إلى عمله الرئيس في تفسير الآيات القرآنية وشرح الأحاديث النبوية الشريفة والروايات المأثورة عن أئمة الشيعة واستخلاص الأحكام الشرعية منها أو مناقشة وتحليل ما يتعلق بها من مسائل فقهية وأصولية وعقائدية متشعبة ، مما لا يتسع لنا المجال هنا للحديث عنها لأنها تحتاج إلى دراسة خاصة يتولاها متخصصون في مجالاتها وموضوعاتها . وليس بوسعنا هنا كذلك استقصاء جميع القضايا الأخرى المشار إليها أو التوسع في تعدادها والإشارة إلى ما يتعلق بها مما ورد في كتاب الأمالي لأنها كثيرة متفرعة ومتشعبة ، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى أهمها وأبرزها ضمن محاورها الرئيسة ، وفي إطار موجز وعرض سريع مختصر ، يهدف بالدرجة الأولى كما ذكرنا فيما سبق إلى التنبيه على أهمية الكتاب وإبراز طابعه العام وبيين مجالات الاستفادة منه وأوجهها .

١ – المسائل الكلامية :

بحث المرتضى ضمن تفسيره لمجموعة من الآيات القرآنية وذكر أوجه تأويلها وبنحو مستقل أحيانا عدداً من القضايا الكلامية والعقائدية التي كانت محل نقاش وجدال في عصره ، مثل : (مسألة المعصية والخطأ من العبد) التي كانت محل خلاف كبير بين الخوارج والمرجئة والمعتزلة . ويمكن اعتبار تناولها من قبل المرتضى في هذا الكتاب امتداداً لبحثه إياها بنحو خاص في كتابه «الذخيرة في علم الكلام» ، أو «ذخيرة العالم وبصيرة المعلِّم»[١٦].. ومثل (مسألة تفضيل الأنبياء والملائكة) ، ثم(قضية عصمة الأنبياء وتنزيههم عن المعاصي والأخطاء)[١٧] ، والتي كانت بدورها موضع خلاف ونقاش كبير بين طائفة الشيعة الإمامية من جهة وبين المعتزلة ومجمل أصحاب الحديث من جهة أخرى وبحثها الشريف المرتضى نفسه بنحو مفصل في كتابه السابق الذكر «تنزيه الأنبياء» . كما بحث في (أصل مذهب أهل التوحيد العدل) وبين أصوله وذكر أصحاب هذا المذهب من المعتزلة مستعرضاً جملة من أخبارهم وأقوالهم وأرائهم التي تؤيد أو تثبت اعتقادهم[١٨]. واستعرض أخبار واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وتحدث عن أرائهما في (المنزلة بين المنزلتين) ؛ (أي في القول في مرتكب الكبيرة وأنه ليس بمؤمن كما تقول المرجئة وليس بكافر كما يقول الخوارج)[١٩] .

وتحدث المرتضى في أماليه كذلك عن حقيقة الكينونة، ومعاني (كان) ، وعن أحوال الفعل بين النحاة والمتكلمين . ونقض أقوالهم فيها[٢٠] ، كما رد على منكري تطاول الأعمار[٢١]. هذا كله بالاضافة إلى ما أشار إليه أو تناوله بالتعليق والنقد والرد المطول أحياناً أو استشهد به عرضاً في مواضع مختلفة من آراء وأفكار وأخبار عدد من كبار المعتزلة وشيوخهم غير من ذكرنا منهم ، من أمثال إبراهيم النظام ، والجاحظ ، وأبي هذيل العلاف، وعمرو بن عبيد التيمي ، وثمامة بت الأشرس ، وبشر بن المعتمر ، وأحمد بن أبي دؤاد... فتطرق من خلال ذلك لمسائل وموضوعات وقضايا عقائدية وكلامية متفرقة ، مثل :

(مسألة الذات الإلهية وصفاتها) ، وقضية الإيمان ، و(مسألة القضاء والقدر) ، والعلم ، والإرادة ، والمنفعة ، والثواب والعقاب ، والخير والشر . ومثل : القول برؤية الله، و(مسألة خلق أفعال العباد) ، و(إرادة الله للقبائح) ، والقول بوجوب الأصلح ، وغير ذلك مما يبين موقفه من قضية الاعتزال ويظهر اختلافه الكبير مع المعتزلة[٢٢].

ومن طريف ما اشتمل عليه كتاب «الأمالي» مما يتعلق بالمسائل المذكورة استعراض طائفة ممن كانوا على مذهب أهل العدل من مشهوري الشعراء ومتقدميهم أو أسلافهم ، وطائفة أخرى من الشعراء الذين عرفوا بالدهريين أو المجبرة ، والثنوية ، أو من اتهموا بالزندقة أو بالقول بالتناسخ ، وأهل الضلالة كما كان يعبر عنهم ،. والعمل على استخلاص ما يدل على انتماء كل شاعر منهم إلى هذا المذهب أو ذاك أو يشير إلى تهمته في أمر مما ذكر، وذلك من خلال تحليل نماذج من نتاجات هذا الشاعر وآرائه والأخبار الواردة عنه . ولقد كان من بين من ذكرهم المرتضى وتحدث عنهم من أهل العدل والدهريين من الشعراء على سبيل المثال : ذو الرمة ، وأعشى قيس بن ثعلبة ، ولبيد بن ربيعة العامري[٢٣] . أما من الطوائف الأخرى المشار إليها فمثل: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وبشار بن برد، وحماد عجرد، وحماد الراوية، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وصالح بن عبد القدوس[٢٤].

٢ – المسائل اللغوية :

شرح المرتضى في كتابه «الأمالي» ما يزيد على (٦٥٠) ستمائة وخمسين مفردة لغوية ، من الكلمات والمصطلحات والصيغ الغريبة الواردة في الآيات والأحاديث والنصوص الشعرية والنثرية التي استشهد بها شرحاً تناول فيه بالاضافة إلى بيان معانيها ذكر بعض اشتقاقاتها وفروعها أحياناً وبيان أوجه استعمالها وكيفيات صياغتها وتركيبها وتكوين الجمل منها ، كما تناول أحياناً أخرى وبروح اللغوي المحقق المتتبع والأديب المتبحر والناقد المدقق المتذوق توضيح بعض الجوانب البلاغية في مدلولاتها ووظائفها التعبيرية ، كما هو الحال مثلاً في تفسيره لكلمة (الإجباء) وكلمة (العِرض) ، وحديثه عن كلمة (اللحن) ومعانيها بين اللغة والبلاغة والشعر ، وعن (القمر) وتسمياته المختلفة وفق تدرجه منذ مولده حتى محاقه ، وغير ذلك[٢٥] . مما يمكن أن يشكل من جزء من كتابه «الأمالي» معجماً لغوياً ثرياً متميزاً من حيث منهجه وتكوينه.

إلى جانب ذلك كله فقد تطرق المرتضى في هذا الكتاب إلى عدد من المسائل النحوية والصرفية وناقش بعضها وطرح فيها آراء دلت على سعة إحاطته وعمق إدراكه ومعرفته بأسرار اللغة وبمضانها المهمة ورجالها . فقد تحدث على سبيل المثال عن حقيقة الكينونة ومعاني (كان) ، وناقش قضية تقسيم أحوال الفعل بين المتكلمين والنحويين ونقض أقوالهم فيها . كما تحدث عن وجوه استعمالات حرف الجر (على) وعن وجوه الاستثناء وخصائص التعريف باسم الموصول ، وعن (إن) الشرطية وجوابها وموارد حذف جواب الشرط عامة . تحدث في هذه المسائل وغيرها ليس من وجهة نظر نحوية صرفة ،

وإنما من وجهة نظر بلاغية فيها الكثير من الاستقلالية والأصالة والبراعة في تذوق اللغة وفنون التعبير ، وكانت له لفتات ومواقف من بعض هذه المسائل ليس لدارس النحو الحديث غنى عن الاطلاع عليها[٢٦] .

ولقد رجع المرتضى فيما نقله في كتابه من شروح للمفردات اللغوية وفيما بحثه أو تطرق إليه من مسائل لغوية إلى أشهر علماء اللغة والنحو في عصره ، وكانت له إحاطة واسعة بما ألفه أو رواه في اللغة أمثال أحمد بن فارس وأحمد بن محمد الجوهري صاحب الصحاح ومحمد بن القاسم بن الأنباري وأبي حاتم السجستاني وعبد الملك بن قريب الأصمعي ويعقوب بن السكيت وقطرب بن المستنير... وبمؤلفات أحمد بن يحيى المعروف بـ (ثعلب) في النحو ومؤلفات الأخفش وأبي العباس المبرد والفراء وأبي علي الفارسي وإبراهيم بن سهل الزجاج والكسائي ومحمد بن إسحاق النحوي وأبو علي الجبائي وغيرهم ... ولم يكن فيما أورده عن هؤلاء وغيرهم مجرد ناقل ، وإنما كان كعادته في أكثر ما يرويه عنهم وعن غيرهم ناقداً ممحصاً ، لأنه في قرارة نفسه يؤمن كما ذكرنا بضرورة اتخاذ المنهج العقلي المحص المتأمل في كل ما ينقل في تفسير الألفاظ وغيرها . فهو يصرح ضمن تعقيبه ورده على تفسير واستنتاج لغوي لكل من لأصمعي وابن الأنباري مثلاً بقوله: «ليس يجب أن يجعل إطلاق الألفاظ المحتملة دليلاً على إثبات الأحكام والمعاني ومعترضة على أدلة العقول»[٢٧] .

٣ – المسائل البلاغية :

بالإضافة إلى تطرق المرتضى وإشاراته العابرة إلى بعض المسائل البلاغية والاصطلاحات المرتبطة بها في أثناء تفسيراته للمفردات اللغوية أوضمن حديثه عن بعض المسائل النحوية والصرفية في كتابه «الأمالي» ، فإن تأويلاته المستمرة للآيات القرآنية وتفسيراته للأحاديث الشريفة وشروحاته للنصوص الشعرية والنثرية وحديثه عما تتضمنه هذه الآيات والأحاديث والنصوص من وجوه البلاغة وفنية التعبير كثيراً ما تدفعه إلى التعرض للحديث عن بعض القضايا البلاغية المهمة ومناقشتها وتوضيح ما يتعلق بها من مصطلحات ومسائل فرعية ، وإبداء مرئياته فيها أو فيما طرح حولها من آراء ووجهات نظر، والتعقيب عليها واتباعها بما يخصبها ويزيد من أهميتها من شواهد وافرة ثرية .

لقد تطرق المرتضى من جملة ما تطرق إليه وبحثه من مسائل البلاغة وقضاياها إلى الحديث عن البلاغة ، فعرفها وحدد بعض سماتها ، كما تحدث عن الإيجاز وفرق بينه وبين الحذف والاختصار وذكر ما يتعلق منهما باللفظ وما يتعلق بالمعنى ، وتحدث عن التشبيه فذكر معناه في اللغة وبين غاياته وأغراضه وأنواعه ودرجاته ، وعن الاستعارة والإشارة وبين مكانهما من البلاغة ولزومهما في الكلام البليغ ، وتطرق إلى الحديث عن الاتساع والتجوز والمبالغة وعما تحدثه في النفس من تأثير وعما لها من ارتباط بغايات الكلام ومقاصده، وإلى الحديث عن الكناية وفاعليتها أو دورها في الشعر وفي الكلام البليغ عامة، وبين ما لها من ارتباط بالمغالاة وما يحتاجه الكلام معها من التدقيق في النظر من أجل انتزاع المقصود ، وبحث المرتضى أيضاً وبنحو موسع نسبياً في ظاهرة التكرار في الشعر وفي الكلام البليغ عامة وبين أهمية التكرار وأحواله وجهاته وأشكاله ، واستشهد بالكثير مما تعلق بالمفاهيم المذكورة من آراء وأقوال ونصوص شعرية ونثرية ، مما دلل على كثرة إحاطته وسعة اطلاعه على ما صنف فيها أو طرح حولها من آراء وأفكار وملاحظات ، ولاسيما ما صنفه أو طرحه أبو عثمان الجاحظ وعبد الله بن مسلم بن قتيبة وعبد الله بن المعتز وعلي بن عيسى الرماني وغيره ممن بحثوا في إعجاز القرآن ومن المتكلمين المعتزلة وسواهم ، وقد كانت له مواقف مع بعضهم دلت بالفعل على

استقلالية رأيه وعلى عمق فهمه وبعد إدراكه لكثير للمسائل البلاغية المذكورة ولما ارتبط بها من فروع ومعاني واصطلاحات[٢٨] .

وقد كان لأفكار المرتضى وآرائه التي طرحها فيما يتعلق بالقضايا المذكوره آثارها الملحوظة في مؤلفات من جاء بعده . يقول عبد الرزاق محيي الدين ملخصاً ما توصل إليه من تقييم لأفكار المرتضى المتعلقة بمسائل البلاغة : «وخلاصة القول في آرائه البلاغية ، أنها كانت حلقة وصل بين ما أبداه الجاحظ في اشاعته الخواطر البلاغية عند نقد النصوص في كتابه البيان والتبيين . وما انتهى إليه الجرجاني من تركيز تلك الخواطر وتصنيفها إلى أبواب مستقلة في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإن خواطره لو جمعت ووصلت بعضها لألفت شطراً كبيراً من مسائل البلاغة ، وبخاصة ما كان أدخل منها في علم المعاني»[٢٩] .

٤ - قضايا الشعر والنقد :

تحدث المرتضى في أجزاء عديدة من أماليه وفي سياق ما أشرنا إليه من محاولاته في التوفيق بين ما يطرحه من تفاسير وتأويلات للآيات القرآنية والأحاديث والروايات وبين ما دار على ألسنة العرب واشتهر من نصوص شعرية ونثرية بليغة ؛ تحدث عن الشعر وذكر صفاته العامة ومقاييس الأصالة أو الجودة والإبداع فيه ، كما تحدث عن مقاصده في الجاهلية والإسلام ، وعن طبيعة لغته وما تتفرد به هذه اللغة ، وعن الشاعر ونزعاته والقصيدة الشعرية وأسسها ومقوماتها ، واستشهد في أثناء ذلك كله لعدد كبير من الشعراء والشاعرات ، حتى ليمكن القول : إنه ما من شاعرة أو شاعر عربي قديم أو محدث مشهور أو مغمور إلا وأورد له أو روى من جيد شعره شيء ، وكأنه قد أحاط بديوان العرب بأجمعه، وعرف كل ما روي من مشهوره الشعر وغريبه . ولقد أبدا المرتضى في ما تحدث به وناقشه وقارنه ورواه ، كما يقول المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم «أبدا تفوقاً عجيباً ، وأبان عن ذهن وقاد ، وذكاء متلهب ، وبصر نافذ ، وأعانه فيما فسر وأول ووجه وفرة محفوظة من الشعر واللغة ومأثور الكلام»[٣٠] .

لم يكن المرتضى فيما أورد في أماليه من مختاراته الشعرية مجرد راوية للشعر ، أو شارحاً له مفسراً لغريبه، وإنما كان ناقداً بارعاً متنوقاً للشعر ، يتحسس مواطن الجودة والجمال والإبداع فيما يرويه ، وينبه إليها ويدلل عليها . يوازن بين الشعراء ويقارن بين الصور والأساليب والمعاني ويحلل الكثير منها[٣١] ، معرباً في أثناء ذلك عن رأيه في مكانة الشاعر أو طبقته . أو مبيناً مواقفه وآراءه في مذاهب الشعر وتياراته وقيمه ، مبيناً أو مشيراً إلى الكثير من أصوله وقواعده ومقوماته وإلى آراء النقاد والبلاغيين فيها أو مناقشاتهم حولها ، متطرقاً ضمن ذلك كله إلى الكثير مما يتعلق من بعيد أو قريب بأسس النقد وقواعده وقضاياه ومذاهب النقاد ونزعاتهم واتجاهاتهم وميولهم ، مدللاً بذلك على سعة إحاطته بكل ما يتصل بالشعر ونقده وعلى عمق اطلاعه على معظم ما كتب نقاد عصره ، وأخيراً على ما يمكن أن يجعل له مكانة كبيرة بينهم . هذا بالإضافة إلى برهنته على علمه برواية الشعر ومعرفته بأسرار غريبه .

ومن بين ما تحدث فيه أو ناقشه من القضايا النقدية البارزة في عصره وكان له منها موقف متميز ورأي خاص فيها أو في بعض جوانبها أو فروعها : قضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون وما يدخل في سياق ذلك من الحديث عن المعنى الشعري وصوره وأبعاده وما يمكن أن يخضع له من تصورات ويحتمله من من تفسيرات مختلفة ، ومن الحديث عن السبك أو الصياغة اللفظية وآثارها في تبديل المعنى أو تجديده وتغيير أوجه الإبداع فيه[٣٢] .

وفي أطر مماثلة لما سبق ذكره ومواطن مختلفة يعلق المرتضى كذلك على مسألة التعارض أو التغاير بين الشعر والخطابة والشعر والنثر، وينطلق من خلال ذلك إلى الحديث عن لغة الشعر وعن طبيعتها التي تناقض أو تغاير لغة الفلسفة والمنطق ولغة العقل بنحو عام، ثم عما تقوم عليه هذه اللغة من أساليب المبالغة والغلو وضروب الإشارة والإيحاء وطرق التجوز والاتساع المجازي التي تجعلها في متناقضة مع لغة الفلسفة والمنطق مباينة للغة العقل بنحو عام[٣٣] .

وقد كرر المرتضى الحديث والتعليق في أماليه ، كما فعل في كتابيه الآخرين المشهورين : «الشهاب في الشيب والشباب» و «طيف الخيال» حول قضية السرقات الشعرية، وتطرق إلى تحليل ومناقشة عدد من الموضوعات المرتبطة بها مثل موضوع التفرد في المعنى أو السبق إليه أو الإشتراك فيه مع التفرد في صياغته[٣٤] وموضوع توارد الخواطر ، وتداعي المعاني ، وعمليات التأثر اللاإرادي ، والأخذ غير المقصود ، أو كما سمي في العصر الحديث بالسرقة غير الواعية ... وقد كانت للمرتضى في هذه القضية بمختلف ارتباطاتها وفروعها نظرات مميزة صائبة ومهمة ، ترتكز في أساسها وجوهرها على معارضة اتهام الشعراء بالسرقة وعلى النهي عن التسرع في اتهام أي منهم ، والتأكيد على ضرورة الأخذ في الاعتبار ما سبق ذكره من عمليات التوارد وتداعي المعاني والتأثر العفوي والأخذ غير المقصود أو غير الواعي[٣٥]. وقد تجلت أهمية هذه النظرية في تحرير الشاعر من كثير من القيود التعسفية التي ألزمه بها كثير من النقاد القدامى في تجديد المعاني والأساليب ، وأخيراً الانتهاء إلى ضرورة إطلاق حرية الشاعر في الابداع وتخليصه من تهم السرقة التي كانت تلصق به من دون حق ولأدنى شبهة[٣٦].

وقد استعرض المرتضى في أثناء تعليقاته على القضايا النقدية والأدبية التي تناولها والتفسيرات والشروحات التي عرضها آراء عدد من نقاد عصره وعقب على بعضها وناقش بعض آخر منها بدقة واستقلالية ووفق منهج يعتمد التحليل والموازنة والمقارنة واستخلاص الرأي الأرجح أو التفسير الأفضل ، على طريقته في عرض ومناقشة المسائل الكلامية والعقائدية ، وكانت له على بعض هذه الآراء ملاحظات دقيقة وأصيلة، وكانت له وقفات نقدية مع نقاد بارزين من أمثال أبي العباس أحمد بن عبد الله ابن عمار ، ومحمد بن يحيى الصولي ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، وأبي القاسم الآمدي وغيره . وقد دلت ملاحظاته وتعليقاته الكثيرة على ما استشهد به من تفسيرات الآمدي وأقواله فيما يتعلق بأشعار كل من أبي تمام والبحتري، دلت على قراءته النقدية المعمقة الواعية لكتاب «الموازنة»[٣٧]. كما دلت شواهده الشعرية الكثيرة وإشاراته المتكرره وتحليلاته على سعة اطلاعة وحسن تتبعه لما صدر من مؤلفات في الشعر ونقده ، ولاسيما ما ألفه كل من محمد بن سلام الجمحي ومحمد بن يزيد المبرد وأبي عمرو بن العلاء وابن المعتز وغيرهم ممن سبق ذكرهم من النقاد . هذا إضافة إلى ما دل عليه عمله التطبيقي في نقد بعض النصوص الشعرية التي استشهد بها في أماليه من سعة الأفق ودقة الفهم وإحساس فني متوهج وذوق نقدي رفيع[٣٨] .

يمكن الانتهاء إلى أن كتاب الأمالي بما انتظم الكثير من فصوله ومجالسه من منهج نقدي في العرض والبحث والاستدلال والتعليق والمقارنة والتحقيق والتفسير وبما تضمنه من مناقشات وتعليقات وآراء قيمة وأحكام أصيلة متميزة متعلقة بالشعر ولغته ومعانيه وأغراضه وفنونه[٣٩] ، والناقد ومهامه وأدواته ، والنقد وطبيعته ووظيفته وشروطه[٤٠] . وما اشتملت عليه من أعمال نقدية تطبيقية ؛ هذه كلها تؤكد براعة المرتضى وبصره بالشعر وبكثير من قضايا النقد ، وتظهر شخصيته كناقد حاذق بارع متمكن من فنه ومن أدوات هذا الفن ، هذا إلى جانب

شخصيته كفقيه ومفسر وأصولي متكلم من الطراز الأول ، وإلى مكانته كعالم في اللغة وأديب متبحر وراوية للشعر له خبرته الطويلة المميزة وطرقه الخاصة في روايته . كما يؤكد ذلك عبد الرزاق محيي الدين[41] .

إن الآراء والأفكار والتعليقات النقدية التي طرحها المرتضى في ثنايا كتابه «الأمالي» ، والردود والمناقشات والمعارضات المتعددة التي عقب بها على تعليقات الحسن بن بشر الآمدي (ت٣٧٠هـ) وتحليلاته وعارض بها مواقفه من عدد من النصوص الشعرية والقضايا النقدية والبلاغية[42] هذه بصورة خاصة تبدو مشتتة متفرقة ، لا يجمعها موضوع أو فصل واحد ، إلا أنها في واقعها تشكل مع ما ورد من آراء وأفكار ومواقف نقدية أخرى للمرتضى نفسه في كتابيه : «الشهاب في الشيب والشباب» و «طيف الخيال» ، تشكل نموذجاً مميزاً لما يسمى بـ «نقد النقد» ، وتبرز بالموازنة والمقارنة والدراسة الموضوعية الدقيقة شخصية المرتضى كناقد له مكانته المرموقة بين نقاد عصره[43] . وهذا ما يضيف إلى كتابه الأمالي قيمة أخرى مهمة ويضاعف من أهميته ، ويجعله مميزاً عن بقية كتب الأمالي وكتب الأدب العامة الأخرى ، كما يجعل منه على حد تعبير عبد الرزاق محيي الدين في كتابه «أدب المرتضى» : «مفتاحاً لشخصية المرتضى «في التفسير والنقد ، ومصدراً قيماً للاستعانة بتحقيق النصوص الشعرية . حيث إن للسيد طرقه الخاصة في الرواية» كما يقول[44] .

٥ – السير والتراجم :

تضمن كتاب الأمالي ترجمة لما يزيد عن خمس وستين شخصية عربية وإسلامية ، بين فقيه ومتكلم ومفسر ولغويي وناقد وشاعر وشاعرة وخطيب وأديب ، جاهلي قديم ومخضرم ومولد وحديث معاصر . هذا بالإضافة إلى ما اشتمل عليه من أخبار المعمرين والمنجمين وقصص العرب ونوادرهم وقطوف من سير خطبائهم وأعلامهم وذكر لقبائلهم وأماكنهم ولفرق المسلمين وجماعاتهم وما إلى ذلك مما يتعلق بتاريخ الأمم والملل والأديان والأجناس . مما جعل من هذا الكتاب بحق مصدراً من المصادر المهمة في السير والتراجم ومرجعاً للمؤرخين ولمؤرخي الأدب العربي بنحو خاص ، هذا بالإضافة إلى أهميته في الجوانب الأخرى .

على الرغم من أن أخبار بعض من ترجم لهم المرتضى في أماليه قد لا تجتمع في فصل واحد من فصول الكتاب ، وتأتي مشتتة بين الفصول ، موزعة بين الأجزاء ، واردة في سياقات مختلفة ، إلا أنها في الغالب لا تسرد سرداً كما هو معتاد في كتب التراجم ومعاجم السير وكتب التاريخ المعروفة عامة ، وإنما ترد في طابع عفوي مترسل وضمن إطار وصفي نقدي في الغالب ، وفي سياق توازن فيه الأقوال ، وتقارن النتاجات المستشهد بها بنظائرها ، ويستطرد في ذكر ما يناسبها أو يشبهها أو يناقضها أحياناً من حيث المضمون أو الشكل ، وقد تحلل وتفسر وتناقش وتقيم أو تغربل هذه النتاجات ويستنتج من خلالها سيرة صاحبها أو ملامح من شخصيته وجوانب من حياته. كما نجد ذلك ظاهراً على سبيل المثال لدى من ترجم لهم من المتكلمين من أمثال إبراهيم بن سيار النظام والحسن البصري ، وبعض آخر ممن ذكر أخبارهم واستعرض نماذج مختارة من نتاجاتهم من الشعراء من مثل : أبي دهبل الجمحي ، وذي الرمة ومسكين الدارمي ، وبشار بن برد ، ومروان بن أبي حفصة[45] .

في ضوء ما سبق ذكره يمكن القول بأنه لا غنى لمؤرخ للأدب العربي أو متحدث عن سير الأدباء والشعراء العرب بالأخص عن الاطلاع على أمالي المرتضى ، لأنه سيجد في هذا الكتاب سير من يترجم لهم وتذكر أخبارهم تساق بطريقة فريدة ، حيث ترد هذه السير في كثير من الأحيان مقرونة بصور أو نماذج من الأقوال أو النتاجات

الإبداعية التي تعكس جوانب من شخصيات قائليها . وتحلل هذه النماذج وتقيم تقيماً نقدياً وتقارن أحياناً في الكتاب بنحو يبرز هذه الجوانب ويميزها ، وهذا لا نعرف له نظائر في كتب التراجم التاريخية الأخرى التي تعتمد في الغالب على النقل البحت والسرد الوصفي ، وإصدار الأحكام الانطباعية العامة .

لقد تحدث المرتضى في كتابه الأمالي على سبيل المثال عن سيرة مروان بن أبي حفصة الذي تقدم ذكره ، وأورد في أثناء ذلك وفي مواقع متعددة من كتابه الكثير من النصوص الشعرية المنسوبة إلى هذا الشاعر في مختلف الأغراض والأساليب والمعاني ، وقارنها ووازنها بنظائرها في المضمون أو الصياغة من أقوال الشعراء الآخرين ، وشرح وحلل بعضها وفسر غريبها ، وعلق على بعض آخر منها، بنحو استطاع أن يبرز لنا من خلال ذلك كله شخصية هذا الشاعر ، ويجسد لنا الكثير من ملامح هذه الشخصية ومن أبعادها الفكرية والإبداعية والفنية المتميزة، وهذا ما لم يكن بوسعنا أن نجده في كتاب من كتب السير والتراجم ، ولذلك كان للمرتضى في كتابه الأمالي في الحقيقة فضل كبير في إبراز شخصية هذا الشاعر وفي التعريف بالكثير من نتاجاته وجواني التميز والإبداع لديه[٤٦] .

٦ - الموضوعات الأدبية والثقافية العامة :

احتل الحديث عن الشعر وظواهره وأغراضه وموضوعاته ومقاصده وأغراضه وقضاياه كما تبين من قبل حيزاً كبيراً من كتاب الأمالي بجزئيه ، فبالإضافة إلى ما تناوله المرتضى في هذا الكتاب أو تطرق إليه وعلق عليه من القضايا الشعرية التي كانت مدار النقد في عصره ضمن «قضايا الشعر والنقد» ، وإضافة إلى ما أورده من مختارات شعرية كثيرة متنوعة الأغراض للشعراء الذين وضع لهم ترجمات خاصة ، إضافة إلى ذلك كله فقد أبدى اهتماماً ملحوظا بعدد من الموضوعات والظواهر الأدبية، مثل الشعر وأغراضه وموضوعاته العامة كذلك جانباً مهماً منها.

لقد جمع المرتضى على سبيل المثال طوائف من مستحسن أقوال الشعراء في الكرم والضيافة ، ومثلها في الزهد وذم الدنيا ، وفي ذكر الأوطان والحنين إليها ، ثم في وصف الشيب والتألم منه، وفي مدح الطيف والخيال وذمه، وفي وصف الثغر والتغزل به ، وكذلك في وصف الذئب ، وفي وصف المآدب وأسمائها[٤٧]... كما أبدى المرتضى عناية واضحة بشعر النساء ، فعلاوة على ذكره لأخبار عدد من الشاعرات العربيات الشهيرات مثل الخنساء وليلى الأخيلية ، وإيراده نماذج وفيرة منتقاة من جيد أشعارهن ، فقد جمع في إطار واحد من كتابه باقة مختارة من شعر النساء عامة ، ومن شعر الغناء والمغنيات[٤٨] ... هذا كله إلى جانب ما ذكره من شواهد الشعر الكثيرة المتعلقة بالموضوعات الأخرى التي كانت مقاصد شعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام ، كالمدائح والأهاجي والمراثي والحماسيات والصيد والطرد وما إلى ذلك .

لاشك أن المجموعات الشعرية المتعددة الموضوعات والأغراض التي أوردها المرتضى ضمن أماليه على نحو ما ذكر أهمية كبيرة ، ليس في إمتاع القارئ وتهذيب ذوقه وتنمية الحس النقدي لديه فحسب ، وإنما تكمن أهميتها أيضاً في الكشف عن عدد من الظواهر الشعرية المميزة ، وفي إبراز نواحي التجديد والتطوير في المعاني أو المحاور ذات العلاقة وإظهار أبعاد وآفاق التأثير والتأثر في صياغة هذه المعاني والصور الشعرية المتعلقة بها . لاسيما وأن المرتضى يعقد مقارنات بين بعض النصوص التي يوردها في إطار المجموعة الواحدة أو يعلق عليها ويشير بطريقة أو بأخرى إلى ما بينها من ترابط معنوي أو لفظي أو يلمح إلى بعض جوانب التطوير والتجديد فيها وما إلى ذلك مما يعين الدارس على تحليلها أو تحليل معانيها وعلى إدراك ما تشتمل عليه من نواحي التفرد وجوانب الإبداع .

وبالإضافة إلى الموضوعات العامة التي ارتبطت بالشعر وظواهره وأغراضه اشتمل كتاب الأمالي على موضوعات أدبية وصفية ومحاور إخبارية ثقافية لا تقل من حيث حيويتها وأهميتها أو قيمتها المعرفية وأهليتها للدراسة في الواقع عن الموضوعات السابقة الذكر ، فقد استعرض المرتضى فيما يقرب من أربعة وثلاثين (٣٤) صفحة من هذا الكتاب على سبيل المثال طائفة كبيرة من (الجوابات الحاضرة المستحسنة أو المسكتة الدالة على الفطنة والذكاء وحضور البديهة)[٤٩] كما تحدث في أجزاء مختلفة منه عن الخطابة والارتجال ، واستعرض جملة من أخبار من حصروا أو ارتج عليهم من المتكلمين والخطباء فارتجلوا وتخلصوا[٥٠]. وهو موضوع له علاقة بسابقه كما هو واضح ، حيث المحور الأساسي في كلا الموضوعين مرتبط في الأصل بصفاء الفكر وتوقد الذهن وطلاقة اللغة وبلاغة القول .

وتضمن كتاب الأمالي كذلك طائفة كبيرة من أخبار المعمرين من العرب ومن أشعارهم ومستحسن أقوالهم ملأت أكثر من ست وثلاثين (٣٦) صفحة ، نقلها المرتضى فيما يبدو من كتاب «أخبار المعمرين» لأبي حاتم السجستاني[٥١] .. كما تضمن حديثاً وافياً للمؤلف عن التنجيم والمنجمين والرد عليهم ونقض آرائهم ومزاعمهم وبعض ما يعتقدونه في انفصال الكواكب واقترانها وفي تأثيراتها في الخير والشر والنفع والضر ، ثم عن المنامات والأحلام وأسبابها الروحانية والطبيعية ، ومناقشة ما يدعيه جماعة الفلاسفة فيها ، وعن أحوال القمر وما ورد فيه من مأثور القول ، وأخيراً عن ما ورد في مدح وذم أجناس الطير والبهائم والمآكل والأرضين ، وما قيل من وصف منثور بليغ في المرأة وصفاتها ، هذا كله بالإضافة إلى عدد من الموضوعات الفلسفية المتعلقة بالنفس البشرية وصفاتها وأحوالها والقول بتجردها عن الجسد ومناقشة آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين في ذلك ، ثم ما يتعلق بتفسير الأشياء وحركات الظواهر الكونية وعلل السنن الطبيعية وفعاليات الأحياء ، وبمنطق أرسطو وإلاهيات افلاطون والفلسفة اليونانية وقواعدها وأصولها بنحو عام[٥٢]، وما إلى ذلك مما يفيد الدارس ويمتع القارئ ويشارك في تشكيل ثقافة أصيلة متنوعة ، تنطلق من الماضي لتنعكس وتتمثل في جوانب مختلفة من الحاضر .

منهج الأمالي :

كتاب الأمالي الذي بين أيدينا مقسم كما أشرنا من قبل إلى مجالس ، يعقد كل مجلس منها في الغالب لتأويل آية من القرآن الكريم ، أو شرح حديث نبوي شريف ، أو تفسير خبر مروي يبين الحكم المستفاد منه أو المترتب عليه... ويوجه الخطاب في هذه المجالس في العادة – كإجابة على أسئلة متعلقة مفترضة ، أو أنها قد وجهت إلى المرتضى بالفعل من قبل تلامذته أو رواد مجلسه . ينطلق منها المرتضى في الحديث عن قضية دينية أو شرعية أو مناقشة مسألة عقائدية متصلة بالموضوع ، أو ذكر رواية تاريخية أو فائدة لغوية ، وقد يستطرد في التعليق أو المناقشة فيتناول مسائل متفرعة متنوعة ، بنحو لا يخضع فيه في الحقيقة لمنهج ثابت أو أسلوب في العرض موحد أو تحديد صارم معين .. ولذلك فإن المجالس التي يتألف منها الكتاب عامة متفاوتة من حيث موضوعاتها ومحتوياتها ومن حيث المساحات التي تستغرقها من مجمل حجم الكتاب .

قد يكون المحور الأساسي البارز للحديث الذي يطرحه المرتضى في مجلس واحد من مجالسه آية من آيات القرآن الكريم تبين الأوجه المحتملة في تأويلها ، أو حديث نبوي شريف أو رواية تفسر أو تشرح أو تبين الأحكام الشرعية أو العقائدية المستفادة منها ... غير أن الاستطرادات أو الموضوعات التي تبحث أو تناقش على هامش ذلك المحور كثيراً ما تكون متعددة ومتشعبة ، وقد

يكون هناك ارتباط وثيق بينها وتكون هناك مناسبة للانتقال منها أو إليها، وقد لا تكون . مما يوحي بأن فقرات المجلس الواحد لا تملى في الحقيقة كلها على نسق واحد أو وتيرة واحدة ، وأن منها ما يمكن أن يكون من إملاء المرتضى المباشر ، ومنها ما صنفه المؤلف ثم نقل عنه فيما بعد وألحق بالمجلس ..

في المجلس الثاني من الجزء الأول من كتاب «الأمالي»[٥٣] على سبيل المثال، يبين المرتضى وجوه التأويل في الآية الكريمة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٥٤]، ثم ينتقل - ومن دون مناسبة - ليتحدث في فصل ملحق ومستقل من المجلس نفسه عن وجوه تأويل آية أخرى هي: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[٥٥] ، ولكنه هنا يتوقف عند كلمة ﴿ مَّوْزُونٍ ﴾، يفسرها ويبين ما أريد بها في الآية ، ثم يسترسل في الحديث عن معنى الوزن في الكلام ، مستشهداً بقول ذي الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق
رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر

ثم بقول جميل آخر يصرح بما قصد من الاعتدال والتوازن وجمال صورته ومضمونه في البيت السابق، مما يلائم المراد في الآية السابقة الذكر، وهو قول ابن خارجة الفزاري:

وحديث ألذه هو مما
ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
ناً وخير الحديث ما كان لحنا

ويخرج المرتضى هنا خروجاً عفوياً سلساً إلى تفسير كلمة (اللحن) التي وردت في البيت الثاني من الشاهد المذكور ، ويستطرد في الحديث عنها وعن بعض ما جاء في معناها وما ورد من شعر وطرف وأخبار تتعلق بها، مستعرضاً في أثناء ذلك رأي أبي عثمان الجاحظ ، ثم أقوال كل من محمد بن عمران المرزباني ومحمد بن يحيى الصولي في تفسير كلمة (اللحن) وذكر مما يتعلق بالبيت الثاني من قول الفزاري ، ثم يعقب ذلك بسرد خبر أسير بني العنبر في بكر بن وائل ورسالته إلى قومه وشرح ما تضمنته هذه الرسالة من كنايات خفية ، على أساس أن الكناية والتعريض من معاني (اللحن) .

وينتقل المرتضى ، ومن دون مناسبة ، ضمن المجلس نفسه إلى تأويل خبر ورد في فضل حب أهل بيت الرسول (ﷺ) . شارحاً ألفاظ الخبر، مبيناً وجوه تأويله .. ثم يعقب ذلك فصل مستقل يتحدث فيه المرتضى عن بعض الشعراء المتقدمين ، ممن قيل أنهم كانوا - كما يصرح - على مذهب أهل العدل مثل : ذي الرمة ، وأعشى قيس بن ثعلبة ، ولبيد بن ربيعة ، مع الاستشهاد بما يثبت أو يشير إلى مذهبهم من شعرهم أنفسهم ، مبيناً في أثناء ذلك بعضاً من أسس هذا المذهب أو مظاهره ...

ويختتم المرتضى مجلسه بتأويل آية ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٥٦] . مدللاً على ما يراه من نفي الإبصار الحقيقي ، شارحاً ذلك كله بأسلوب علمي دقيق متتبع رصين . وهكذا يصبح في المجلس أربعة محاور رئيسة، يدلي المرتضى من خلال بحثها بفوائد وآراء مختلفة يمزج فيها - كما يفعل في معظم مجالسه الأخرى التي تضمنها كتابه «الأمالي» - بين العلم والأدب واللغة والبلاغة والشعر والتاريخ، بين التفسير والشرح والتعليق والنقد ، وبين التحليل والاستدلال العقلي والتذوق الفني . رغم عدم وجود سياق موحد جامع ، أو وحدة موضوع ثابتة مستمرة في المجلس كله .

أن المنهج الذي يعتمده المرتضى في تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار المروية ، في كتابه

«الأمالي» كما يبدو ظاهراً هو التفسير بالرأي والدراية . إلا أن الواقع هو أن المرتضى وإن كان يغلب اعتماده هذا المنهج فإنه كثيراً ما يميل إلى التوفيق أو الجمع بينه وبين طريقة التفسير بالأثر والرواية ، حيث نراه يرتكز في جانب كبير من تفسيراته على البرهنة والاستدلال والمناقشة العلمية المنطقية أو الاستناد إلى المعادلة أو المقارنة والقياس العقلي . وفي الوقت نفسه نراه يرجع إلى ما عرف من علوم التشريع والكلام والبلاغة والأدب وغير ذلك مما يحتكم النظر إليه في تأييد الرأي أو تأكيده . وهذا التوفيق بين الطريقتين لا يتطلب منه إعمال النظر والكشف عن الدليل العقلي أو التفصيل في تحليله وعرضه فحسب ؛ وإنما يتطلب كذلك الإلمام بأسباب النزول والمعرفة الواسعة بأساليب العرب وطرقهم وفنونهم في الكلام . مما يمكن أن يقاس عليه أو يركن إليه في دعم ما يستنتجه العقل ، ومن ثم في دعم المقاصد والأهداف التي يرمي إليها . وهذا هو ما يدعو المرتضى في الغالب إلى الاستطراد والتوسع في تدعيم وجهة نظره أو الفكرة التي يتبناها والنتيجة التي يتوصل إليها ، ويجعله أحياناً يبلغ حداً ينطلق فيه عبر آفاق علمية وأدبية ولغوية رحبة واسعة سائراً بين الدليل المنطقي وما يوازيه أو يدعمه من رواية أو أثر. ولا شك أن طبيعة الإملاء الشفوي لدروسه أو مجالسه تشجع أحياناً على هذا الاستطراد، حيث تتوالى التداعيات وينقاد المتحدث المملي إلى التوسع العفوي في الشرح والتفصيل والاستشهاد والتطرق إلى موضوعات وفنون مختلفة من القول .

يناقش المرتضى في كتابه «الأمالي» على سبيل المثال بعض القضايا العقائدية أو الموضوعات الكلامية أو التاريخية أو الأحكام الشرعية ، سواء بصورة مستقلة ، أو بنحو مرتبط بآيات قرآنية أو بموضوعات دينية أو أدبية أخرى ، ويعرضها في إطار فلسفي ووفق منهج موضوعي حيوي مرن ، يطرح من خلاله جملة من الأسئلة أو الإشكالات المفترضة ، ويستعرض الوجوه المختلفة ، والآراء المحتملة ، ويناقشها برفق وبمنطق عقلاني عفيف ، متتبعاً الكثير مما ورد فيها أو حولها من حجج وبراهين وأقوال وشواهد وأخبار وما تعلق بها من ملابسات ومسائل ويحللها ويوازن بينها[٥٧] . وقد ينتهي بعد كل ذلك إلى الحكم بإمكان الأخذ بالآراء التي استعرضها جميعاً ، ولا فرق في هذا المنطق من الموضوعية والتسامح عند المرتضى بين ما يتعلق بالقضايا اللغوية والأدبية النقدية وبين ما يرتبط بالمسائل الكلامية ، لأن المرتضى يؤمن في واقعه بإمكانية تعدد المعنى للنص الواحد ، كما يؤمن بأن الناقد يجب «أن لا يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب ، لأن الواجب على من يتعاطى تفسير الكلام والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منها منفرداً وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه هو وجوه احتمال الكلام»[٥٨].

وفي كثير من الأحيان يستطرد المرتضى في البرهنة والاستدلال والاستشهاد على الآراء ووجهات النظر التي يستعرضها ويناقشها ، فيورد ما يتعلق بها من مأثور الكلام الفصيح البليغ من شعر ونثر، أو يستند إلى الوقائع والروايات التاريخية . ترفده في كل ذلك معرفة عميقة متشعبة واسعة ، وحافظة غنية ، وذاكرة قوية ، وبديهة حاضرة ، وذهنية متوقدة متبلورة . ولذلك يصبح للمنهج الذي يتبعه في البحث والاستدلال والمقارنة والمقايسة أثر كبير في إغناء الكتاب بمجموعة كبيرة من المعارف والعلوم والفنون وفي التعريف بعقلية المرتضى وبشخصيته العلمية والأدبية على حد سواء .

يستدرج المرتضى ذكر الشعر والشعراء في كثير من المواقف إلى الاستطراد في رواية النصوص الشعرية ثم إلى تحليلها وتفسير غوامضها أو إلى شرحها والتعليق عليها والتنبيه إلى ما تتضمنه من جوانب فنية ، بهدف ربطها بما يسعى إلى توضيحه أو تفسيره من آيات القرآن ونصوص الحديث والأخبار والأحكام التي يستنتجها منها أو لمجرد تداعي المعاني وتناسب المواقف بينها أو تماثل الأساليب وفنون القول .

ويفيض مخزون المرتضى من محفوظ الأشعار أحياناً فيسترسل في إيرادها . يسردها من دون تعليق أحياناً ويورد ما يماثلها أو يناسبها في المعنى أو الموضوع أو الغرض أو الأسلوب أو الاستعمال اللغوي ، وأحياناً أخرى يقارن بينها وينقدها أو يذكر ما قيل فيها أو طرح حولها من ملاحظات أو آراء ووجهات نظر ، وكثيراً ما يسترسل فيذكر ما قيل حول أصحابها ويورد أخبارهم ويقيم نتاجاتهم أو يبين طبقاتهم الشعرية . وهكذا تتحول بعض المجالس في كتابه أو تتحول أجزاء كبيرة منها إلى سير أدبية ودراسات نقدية وبلاغية ثرية تتناول عدداً من الأعمال أو النماذج والشخصيات أو الظاهرات الأدبية ، وعدداً من الشعراء .

في المجلس التاسع من الجزء الأول من كتاب الأمالي على سبيل المثال ، يفتتح المرتضى حديثه بمناقشة موضوع قرآني بلاغي ، وهو أوجه التكرار في سورة الرحمن ، والكافرون ، والمرسلات ، والقرآن بنحو عام ، مقارناً ذلك بما ورد في الشعر ، ممثلاً له بمقاطع مطولة أحياناً مما ورد من شعر مهلهل بن ربيعة ، وليلى الأخيلية ، والحارث بن عباد ، وابنة عم النعمان بن بشير . وغير هؤلاء . وبهذا النحو يعقد المرتضى دراسة نقدية تحليلية تستغرق ثماني صفحات من المجلس تتناول دراسة ظاهرة من أبرز الظاهرات البلاغية والنقدية . وهي ظاهرة التكرار في القرآن الكريم وفي أساليب الشعر العربي ، يتحدث خلالها عن تكرار المعنى وتكرار اللفظ ، وتكرار الإطناب ، وتكرار التأكيد ، والتكرار الممدوح ، والتكرار المذموم ... ويستوفيها ويستكمل عناصر أخرى منها في مجالس أو فصول أخرى من كتابه(٥٨) .

أما في الفصل أو الجزء الثاني من المجلس المذكور، فينتقل المرتضى فيه إلى الحديث عن أخبار الدهريين والزنادقة المتهتكين ممن كانوا في صدر الإسلام ، ويذكر منهم عدداً من الأدباء والشعراء مثل حماد الراوية ، حماد ابن الزبرقان ، حماد عجرد ، وعبد الله بن المقفع ، وابن أبي العوجاء ، وبشار بن برد . مستشهداً بما يدلل على مذهبهم من أقوالهم وأقوال الأدباء والشعراء والنقاد فيهم . مستعرضاً كل ذلك بروح نقدية رحبة ، تحلل وتستنتج وتبرهن وتمثل وتستخلص الأدلة من باطن النصوص وظاهرها وفق منهج محايد أحياناً . وربما مال المرتضى في أحكامه على من يذكرهم إلى الانطباعية بدافع إيمانه وإخلاصه لعقيدته أحياناً أخرى . والهدف من كل ذلك ، وإن كان في ظاهره وأصله دينياً عقائدياً إلا أن له مهمته الأدبية الخالصة أيضاً .

لم يتركز اهتمام المرتضى على التحقيق فيما وجه من تهم عقائدية أو سلوكية إلى الشعراء الذين ترجم لهم أو أشار إليهم في الفصل المذكور أو على إثبات أو نفي ما نسب إليهم عامة من خلال سيرهم الذاتية أو الوثائق التاريخية فحسب ، وإنما سعى إلى تحليل شخصياتهم وإلى استخلاص ما يدل على توجهاتهم من خلال نتاجاتهم الشعرية وأعمالهم وأقوالهم ذاتها أيضاً . ولذلك بلغ ما استشهد به من الشعر في الفصل السابق الذكر وحده (٤٩) بيتاً... هذا بالإضافة إلى الفوائد اللغوية والبلاغية التي تخللت أحاديثه واستطراداته . كتطرقه بنحو عرضي مثلاً للحديث عن براعة واصل بن عطاء في تجنب نطق ما

اشتمل على حرف الراء من الكلمات واستبدالها بكلمات مرادفة خالية منها عند وصفه لبشار بن برد ...

إن حديث المرتضى في المجلس السابق الذكر ، كما هو في معظم المجالس الأخرى التي يتضمنها كتابه الأمالي ، لم يقتصر في الحقيقة على بحث الأحكام الدينية أو مناقشة المسائل العقائدية أو الجوانب التاريخية التي انعقد المجلس أساساً لها ، وإنما طال هذا الحديث - كما أشير إلى ذلك من قبل - واتسع وتشعب ، متخذاً الطابع الأدبي النقدي بمعناه الواسع ، الطابع الذي تطفح فيه النزعة الأدبية القوية المتأصلة في شخصية المرتضى، وتطغى فيه روح الناقد الجامع لأدواته المتمكن من فنه ، وتمتزج فيه شخصية العالم بشخصية الفنان، وعقلية المفكر وموضوعيته وتحليلاته وإشاراته المتعمقة بعاطفة الأديب وذاتيته وإحساسه المرهف وذائقته الفنية الحرة التي تميز وتنتقي دون أن تفرض ، وتعشق الشعر وتزنه وتقارنه وتتطلع إلى تحقيق المشاركة والتأثير وإلى الإفادة والإمتاع في آن واحد .

يقول المرتضى في سياق حديثه في المجلس السابق الذكر مشيراً إلى غرضه وأسلوبه في ذكر أخبار الدهريين والزنادقة المتهتكين ممن كانوا في صدر الإسلام ما نصه : «ونحن نذكر من أخبار كل واحد ممن ذكرناه وتهمته في دينه نبذة ، ونومئ فيها إلى جملة . والذي دعانا إلى التشاغل بذلك - وإن كانت عنايتنا بغيره أقوى - مسئلة من نرى إجابته ، ونؤثر موافقته ، فتكلفناه له ومن أجله ، مع أنه غير خال من فائدة ينفع علمها ، ويتأدب بروايتها وحفظها»[٦٠] .. فهذه العبارة على وجازتها وما يمكن أن يكون قد اعتراها من حذف أو نقصان - كافية للإيحاء بما سبقت الإشارة إليه من نزعة المرتضى الأدبية القوية المتأصلة، وطريقته في التوسع والاستطراد، وغايته من هذه الطريقة .

وبالإضافة إلى اعتماد المرتضى على مصادر متعددة مختلفة فيما يورد من روايات وأخبار وأشعار فإنه كما سبقت الإشارة لا يورد ما ينقله دون غربلة أو تمحيص ودون أن يخضعه لذوقه وحسه النقدي وينظر إليه في إطار تجربته الخاصة ، فهو مثلاً ينقل ما ينقله من غريب الأحاديث والتفاسير والنصوص الشعرية المتعلقة بها عن ابن سلام وعن ابن قتيبة، لكنه لا يبقى مجرد ناقل واصف، وإنما يعلق على ما ينقله عنهما في كثير من الأحيان ويحقق في روايته ويحلله ويعمق النظر فيه ، وقد يؤيدهما فيما يذهبان إليه من التفاسير والتعليلات والتحليلات ويصلان إليه من النتائج ويدعم آراءهما بالمزيد من الشواهد والأدلة العقلية والنقلية ، وقد يخطئهما ويحدد ما يخطئان فيه ، موضحاً رأيه أو موقفه بكامل مسوغاته وأدلته[٦١] ولذلك يمكن اعتبار «أمالي المرتضى» مصححاً أو مكملاً للكتابين المذكورين ولكثير من الكتب أو المصادر التي ينقل عنها أو يرجع إليها .

مصادر الأمالي :

الحقيقة أن من روى عنهم المرتضى ورجع إليهم فيما نقله أو تحدث به في أماليه كثيرون ، والظاهر أنه ما من مؤلف ظهر في عصره إلا ويرجح أن يكون قد نظر فيه أو اطلع عليه ورجع إليه في حقله وموضوعه ، وما من فكرة مهمة أو رأي طرح له قيمة إلا ويظن أنه قد أحاط به ، والمعلومات والمعارف والأخبار المتعلقة بالموضوعات المختلفة التي يزخر بها الكتاب ، وذلك العدد الكبير من العلماء والمتكلمين والكتاب والنقاد والشعراء الذين ذكرت أسماؤهم ونوقشت آراؤهم أو عرضت وحللت وجهات نظرهم أو استشهد بأقوالهم في الكتاب ، كل هذه تشير بلاشك إلى هذه الحقيقة بل تؤكدها وترسخ الاعتقاد بها، كما يزيد في تأكيدها ما ورد في تاريخ المرتضى الثقافي نفسه وسيرة حياته العلمية وما ينقل عن ولعه باقتناء الكتب وشغفه بالقراءة ودوامه على مجالسة العلماء .

يقول ابن حجر العسقلاني : إن الشريف المرتضى «كان لا يؤثر على العلم شيئاً ... وأنه جعل داره للعلم وقدرها للمناظرة»[٦٢] . ويقال إنه كان له مجلس خاص يتردد عليه كثير من رجال الفكر والعلم والأدب من أمثال الشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، وإمام النحو واللغة المشهور عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)[٦٣]. كما يروي صديق المرتضى المقرب ، القاضي علي بن المحسن التنوخي (ت ٤٤٧هـ) : أن المرتضى كان يمتلك مكتبة ضخمة تضم ثمانين ألف (٨٠٠٠٠) مجلد ، في مختلف العلوم والفنون[٦٤] . وأن هذه المكتبة كانت تشكل رافداً علمياً ثراً له ولجلاسه ومناظريه .

ورغم كثرة من روى أو نقل المرتضى عنهم ، فقد رجع في موضوعات كتابه الأساسية فيما يبدو إلى أبرز المختصين فيها من أدباء عصره . فقد كان من أبرز رواته ومراجعه الذين نص عليهم وعلى ما استفاده من مؤلفاتهم في الحديث وتفسيره أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، في كتابه «غريب الحديث» ، وهو أشهر الكتب وأوسعها وأجلها في موضوعه ، فقد جمع فيه مؤلفه ما في كتب أبي عبيدة وقطرب والأخفش والنضر بن شميل وذكر فيه أحاديث كل رجل من الصحابة على حدة . وصرف في تأليفه أربعين سنة . ومن مراجعه في ذلك أيضاً عبد الله ابن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه المسمى بـ«غريب الحديث» أيضاً ، الذي يعد مكملاً لكتاب ابن سلام ، ثم كتابه الآخر المسمى بـ«عيون الأخبار» .

أما في تفسير القرآن فقد كان من رواة المرتضى ومراجعه البارزين الذين نص على ذكرهم وكرر الرجوع إلى مؤلفاتهم : أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي البغدادي(ت٣١٩هـ) ، وهو من كبار متكلمي المعتزلة وشيوخهم ، وقد عرف بمؤلفاته الكثيرة في التفسير والإلاهيات وقضايا علم الكلام ، والتي عد منها كتابه «المجالس الكبير» وكتاب «التفسير الكبير في القرآن» الذي يقع في (١٢) اثني عشر مجلداً[٦٥]، وقد ذكره المرتضى في أماليه وأخذ عنه مباشرة . وممن روى المرتضى عنهم أو رجع إليهم كذلك ، أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي (ت ٣٢١هـ) ، وكان هو وأبوه من كبار علماء المعتزلة ومتكلميهم أيضاً . وقد عرف بمذهبه ومنهجه الخاص في التفسير . ومما ذكر له من المؤلفات كتابه المسمى بـ«الجامع الكبير» و«كتاب الأبواب الكبير» ثم كتاب «الاجتهاد»[٦٦] كما أن منهم أيضاً أبا مسلم محمد ابن بحر الأصفهاني (ت ٣٢٢هـ) . وكان ، كما يقول عنه المؤرخون متكلماً بارعاً وعالماً بالتفسير وبغيره من صنوف العلم . ومما اشتهر به من المؤلفات كتابه «جامع التأويل لمحكم التنزيل» في التفسير على مذهب المعتزلة ، ويتكون من (١٤) أربعة عشر مجلداً وكتاب «الناسخ والمنسوخ»[٦٧].

وقد اعتمد المرتضى فيما نقله وفسره أو شرحه من نصوص شعرية وما ناقشه أو أورده من أخبار وقصص أدبية أو تاريخية أو آراء في اللغة والنقد والبلاغة والشعر عامة على مجموعة كبيرة من أشهر المصادر المعتبرة في عصره . أبرزها كتب صديقه وأستاذه محمد بن عمران المرزباني وفي مقدمتها كتابه المعروف بـ«الموشح» ، ثم كتاب «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي، و«ديوان الحماسة» لأبي تمام ، و «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «الموازنة بين أبي تمام والبحتري» للآمدي ، وكتاب «النوادر في اللغة» لسعيد بن أوس الأنصاري (ت٢١٥هـ) ، كما روى المرتضى الكثير عن من سبقه أو عاصره من الأدباء والشعراء ورواة الشعر ونقاده وعلماء اللغة ومعجمييها ، على نحو ما رأينا في الأجزاء السابقة من هذا البحث ، لقد روى المرتضى عن هؤلاء واستشهد بأقوالهم وناقش آراء الكثيرين منهم واستمد من أفكارهم وإن لم يسم كتبهم أو ينص على ذكر مؤلفاتهم .

يلاحظ من خلال ما سبق ذكره أن المرتضى قد استعان بكثير مما كتبه وصرح به شيوخ المعتزلة وعلماؤهم في التفسير وفي بحث المسائل الكلامية والعقائدية والفلسفية عامة ، والحقيقة أنه استعرض الكثير من أفكارهم وآرائهم واستشهد بالكثير من أقوالهم ومما صرح به شيوخهم وكبار متكلميهم في الموضوعات السابقة الذكر . ولقد كانت هذه الظاهرة فيما يبدو سبباً في نسبة المرتضى إلى الاعتزال من قبل بعض الدارسين ، أو القول بأنه كان مؤيداً للمعتزلة ميالاً إليهم وإلى الأخذ بأصولهم[68] . وقد وجد بعض من تصور ذلك في المنهج العقلي الجدلي وطريقة التفسير بالرأي السائدين في مناقشات المرتضى وبحوثه وتفسيراته في المتعلقة بالقضايا الكلامية والعقائدية التي وصلت إلينا سبباً آخر يعزز ما ذهبوا إليه ، حيث اشتهر كتاب المعتزلة ومتكلموهم كما هو معروف بمنهجهم العقلي الجدلي وبطريقتهم في التفسير بالرأي والدراية في معظم ما صنفوه . والواقع أنه يمكن القول من دون حاجة إلى الخوض في تفاصيل القضية أو في ملابساتها وأسباب إثارتها بأن ما نسبه هؤلاء للمرتضى فيما ذكر لا يعدو أن يكون شبهة ؛ لأن في كتب المرتضى نفسها من الأدلة ما يكفي لنفي ما تصوروه وإبطاله .

إن في كثير من أعمال المرتضى وتصريحاته ما يدل دلالة واضحة على معارضته لمذاهب المعتزلة في كثير من المسائل الفقهية والعقائدية وتصديه للرد على كثير من آرائهم وادعاءاتهم ، كما يمكن أن يتبين ذلك على نحو المثال في كتابه : «الشافي في الإمامة» الذي ألفه المرتضى في نقد كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، إمام المعتزلة في عصره . فهذا الكتاب لوحده يدل بمضمونه وهدفه دلالة قاطعة على معارضته للمعتزلة وعلى خلافه الكبير معهم ، فقد تصدى المرتضى فيه لنقض كثير من آرائهم ودحض عقائدهم وتفنيد مزاعمهم بكل ما أوتي من قوة ، ونبه على بعض طرقهم المذمومة في الجدل وإصدار الأحكام ، وعلى ما أحصاه ابن الراوندي عليهم من الفضائح[69] التي يشرف منها المطلع عليها ، كما يقول المرتضى نفسه «على ما يجد به على الخصوم فضلاً كثيراً لو أمسكوا معه عن تعيير خصومهم لكان أستر لهم»[70]

فهل يمكن أن يكون المرتضى موالياً لمن يعلن هو نفسه عن فضائحهم وينكر عليهم طرقهم في الرد والحكم على سواهم.

أما في كتاب الأمالي ذاته فإن المرتضى كثيراً ما يتعرض لآراء علماء المعتزلة وتصريحاتهم التي ينقلها عنهم كذلك بالنقد والتحليل والمناقشة والنقض والتفنيد أو المعارضة كما أشرنا عند حديثنا عن محتوى الكتاب من المسائل الكلامية . وهذا يتضح لنا أيضاً في تعامله مع ما ينقله من آراء المفسرين منهم ، ممن مر ذكرهم . حيث نراه ينقد ما ينقله عن أبي القاسم البلخي السابق الذكر من التفسيرات القرآنية والأقوال المتعلقة بالمسائل الكلامية والعقائدية ، ويفند آراءه ويعارض أفكاره ويخطئه أحياناً ، مما لا يترك أي مجال للشك في ممالاته أو الميل إلى فكره ومعتقده[71] . وهكذا يفعل مع أبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني[72] . ولا يختلف في هذا المنهج مع أبي هاشم عبد السلام محمد الجبائي وما يورد له من التفسيرات أو الآراء والأفكار المتعلقة بالمسائل الفلسفية[73] ، والتي يبدو أن المرتضى رجع فيها إلى ما ذكره المؤرخون من كتب الجبائي في هذا المجال من مثل «النقض على أرسطاليس في الكون والفساد» و «الطبائع والنقض على القائلين بها» ، و كتاب «الإنسان»[74] وإذا كان الحال هذه ، فهل يصح بعد ذلك أن يقال إن المرتضى (عالج تأويل الآيات والأحاديث في أماليه ووجهها على طريقة أصحابه من المعتزلة ، أو أصحاب العدل)[75] ؟!! .

إن رجوع المرتضى في أماليه إلى ما كتبه المعتزلة أو إكثاره في النقل عنهم لا يعني كما يتبين مما سبق ذكره

ميله إليهم أو تبنيه لما يعتقدونه ، بل أنه ربما يعني عكس ذلك ، وهو التصدي للرد عليهم في معتقداتهم المعارضة لمعتقدات الإمامية أو مزاعمهم المنافية لها أو المنكرة أو المتنكرة لأصولها ، كما تصدى للرد عليهم في كتبه الأخرى المتعلقة بالقضايا الكلامية والعقائدية .

إن ما يمكن أن نخلص بإيجاز إليه هو أن ما نشأ عليه المرتضى من ميل إلى المنهج العقلي ، ومهامه الدينية والاجتماعية ، وتوجهاته في الدفاع عن معتقدات طائفته ، هذه كلها كانت تشكل دوافع له للرجوع إلى كتب المعتزلة وغيرهم ممن أثاروا الجدل والنقاش حول القضايا العقائدية والفكرية وبحثوا في عامة المسائل الخلافية . وبما أن المعتزلة في مقدمة أولئك ، وأن معظم العلماء والمتكلمين والمفسرين في ذلك العصر كانوا منهم ، فلا مناص من الرجوع إليهم وإلى ما ألفوه وما صرحوا به . ولا بد أن تكون مؤلفاتهم في مقدمة ما يوقف عليه ويرجع إليه ، لتبين أهدافهم ومواقفهم وتناقش أفكارهم أو يرد على ما ادعوه مما لا يتفق مع معتقدات الطائفة .

أما فيما يتعلق بالقول بتأثر المرتضى بمناهج المعتزلة وسلوكه طريقتهم في المناظرة والمدافعة والتفسير بالرأي ، فإنه يمكن الرد عليه بالقول بأن الطرق التي نهجها المرتضى في تفسيراته ومناقشاته في أماليه ، وإن كان لها طابعها الخاص أو المميز من حيث العمق والتوسع والاستطراد والمزج المتناسق بين العلم والأدب ، فإنها ظهرت في مباحث أساتذة المرتضى ومناقشاتهم الكلامية والأصولية والعقائدية مثلما ظهرت في مباحث المعتزلة ومناقشاتهم ، فقد بدت واضحة على سبيل المثال في أعمال الشيخ المفيد محمد بن النعمان العكبري أستاذ كرسي الكلام في عصره وكبير أساتذة المرتضى نفسه ، والتي من بينها كتاب «نقض فضيلة المعتزلة» المنسوب إليه . فإذا كان من مبرر للقول بتأثر المرتضى في الطرق أو المناهج المشار إليها بجهة ما أو بأحد من العلماء أو المتكلمين فبمثل أستاذه المفيد وأساتذته الآخرين أولى .

وإن كان يمكن القول إن المرتضى قد وجد بالفعل في مناقشات المعتزلة وطرح مسائلهم الخلافية ما يحفز ويشجع على ممارسة المناهج المذكورة أو على التمرس عليها والبراعة في تطبيقها ، ولاسيما في محاوراته معهم وردوده عليهم وفي مدافعاته ومرافعاته المذهبية عامة . ولا مانع من أن يكون اطلاع المرتضى على مناهج المعتزلة في التحليل والنقد والاستدلال والاستنباط من خلال قراءته المعمقة الفاحصة الناقدة لكتبهم ومؤلفاتهم، قد زاد من تبلور منهجه العقلي أو من توجهه إلى هذا المنهج ولاسيما في رده عليهم، حيث يكون الرد عليهم بمثل طرقهم وأساليبهم، إلا أن هذا لا يقضي بطبيعة الحال بتبنيه لأصولهم أو التأثر بعقائدهم.

أثر كتاب الأمالي في المؤلفات الأخرى :

ظهر لكتاب الأمالي أثر واضح في العديد من المؤلفات التي صدرت من بعده في اللغة والأدب وتاريخه والبلاغة والنقد ، وقد رجع إليه واستفاد منه بلا شك كثير من المحققين ورواة الشعر ، حيث اجتمع لهذا الكتاب - كما يقول محققه محمد أبو الفضل إبراهيم - «ميزة كبرى بين الكتب العربية ؛ وعد مصدراً ينقل عنه العلماء ويحتج به الأدباء ، ويرد شرعته القارئون على مر الأجيال»[٧٦] .

ولقد كان من بين المؤلفات التي ظهر أثر الأمالي فيها كبيراً وواضحاً كتابان مهمان للمرتضى نفسه ، صدرا بعد كتاب الأمالي : وهما «الشهاب في الشيب والشباب»[٧٧] الذي ضمنه المرتضى مجموعة كبيرة مما قيل في وصف الشيب أو في مدحه وذمه من نصوص شعرية لعدد من الشعراء هو من ضمنهم، وساقها في أسلوب تحليلي نقدي فريد، وكتاب «طيف الخيال»[٧٨] الذي جمع فيه المرتضى أيضاً الكثير مما قيل من الشعر في وصف الطيف أو الحلم والخيال ، وسلك فيما جمعه المنهج نفسه الذي اتخذه

في كتاب «الشهاب». فمن خلال ما نقرأه في كل من الكتابين المذكورين من النصوص والشروحات الكثيرة المقتبسة من كتاب الأمالي، وما نجده من الإحالات والإشارات العديدة فيهما إليه[٧٩]، يبدو لنا وكأن هذين الكتابين فصلان استلا منه، ووسع فيهما وفي مادتهما كل بحسب موضوعه، وطور المنهج بما يتلاءم مع غرض كل كتاب ومحتواه الموسع، حتى أصبح كل منهما بما يتضمن من مادة وفيرة ومنهج متميز كتاباً قائماً بنفسه مستقلاً عن الأصل.

أما تأثير كتاب الأمالي في مصنفات العلماء والأدباء الآخرين الذين عاصروا المرتضى أو جاءوا من بعده، فقد تجاوز حدود الاقتباس منه والاستعانة به والرجوع إليه في مادته فبلغ حدود التأثر بمنهجه وطريقة تناول الموضوعات وعرضها أو إملائها فيه. ومن بين المصنفات التي ظهر فيها هذا التأثر بوضوح كبير، كتاب «أمالي ابن الشجري» لهبة الله بن علي بن محمد الحسني العلوي المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٣هـ). يقول محمود محمد الطناحي الذي قام بتحقيق هذا الكتاب ودراسته[٨٠]:

«لا ريب أن ابن الشجري قد نظر في الأمالي التي سبق بها الأوائل، وقد ثبت أنه كان يقرئ أمالي ثعلب، كما ثبت أنه استنسخ بخطه نسخة من أمالي المرتضى. والناظر في أمالي ابن الشجري يرى مشابه واضحة بينها وبين أمالي المرتضى، في الشكل العام، من حيث تقسيم الأمالي إلى مجالس، وتفريع المجالس إلى مسائل وفصول، ثم تعدى تأثر ابن الشجري بالشريف المرتضى في الشكل العام للأمالي، إلى أن نقل شيئاً من كلامه وشواهده، مصرحاً وغير مصرح، وقد أشرت إلى ذلك في حديثي عن الشريف المرتضى».

ويضيف الطناحي واصفاً منهج ابن الشجري في كتابه المذكور قائلاً: «وقد جرى ابن الشجري في «أماليه» على أن يستفتح مجلسه بذكر مسألة من مسائل النحو أو الصرف، أو آية قرآنية، أو بيت من الشعر، ثم يدلف من ذلك إلى مباحث أخرى يدعو إليها الاستطراد والتداعي. ومسائل الأمالي ذات ثلاث شعب: مسائل يلقيها ابن الشجري من ذات نفسه، ومسائل أخرى يجيب بها تلامذته، والثالثة ما يرد به على المسائل التي ترد عليه من البلدان كالموصل وغيرها».

وهذا هو المنهج الذي سار عليه المرتضى في أماليه بذاته. وعلى هذا النحو من التفرع والتشعب تقريباً كانت المسائل التي تناولها، كما رأينا من قبل.

ولم يكن تأثر ابن الشجري في أماليه بأمالي المرتضى مقتصراً على تقليد المرتضى أو محاكاته في منهجه في تقسيم كتابه وفي تشكيل مجالسه وتفريعها وفي تنويع المسائل وطريقة عرضها ومعالجتها، ولم تكن استعانته به واستفادته منه لتقف عند نقل الشواهد مصرحاً بنقلها وغير مصرح، وإنما بلغ في الاستمداد والأخذ عنه حداً، كما يقول محقق الكتاب نفسه «أغار فيه على كلام المرتضى في الحذوف، وذكر كلامه بألفاظه، دون أن يصرح بالنقل عنه أو الإفادة منه»[٨١].

وقد صدر في عصرنا الحديث كتاب بعنوان: «الفرائد الغوالي على شواهد الأمالي للسيد المرتضى» للشيخ محسن آل الشيخ صاحب الجواهر (ت ١٣٥٥هـ)، وهو كتاب ضخم، مكون في أصله من أكثر من ألفي ورقة، في أجزاء يتراوح عددها - كما يقول محقق الكتاب وناشره في تقديمه للكتاب - بين عشرة أجزاء، وبين أيدينا من طبعته الأولى ثلاثة أجزاء فقط، صدر آخرها في عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م[٨٢]. وهذا الكتاب ألف فيما يبدو ليكون شرحاً لشواهد أمالي المرتضى أو استدراك ما فات المرتضى شرحه والتفصيل في تفسيره وتحليله منها. وقد

سلك مؤلف هذا الكتاب في كتابه منهج المرتضى في تفسير هذه الشواهد وشرحها أو التعليق عليها بما يدل على تأثره الكبير بهذا المنهج ، وإن لم يصل كتابه في الواقع إلى مستوى أمالي المرتضى في مجال النقد والتحليل والمقارنة والاستنتاج وتحديد الأهداف .

يعنى مؤلف كتاب «الفرائد الغوالي» بنحو أخص بالشواهد الشعرية التي استشهد بها المرتضى في أماليه . فيعمد إلى سرد هذه الشواهد كما وردت أحياناً ، وفي سياق النصوص أو القصائد التي أخذت منها أحياناً أخرى ، ثم يشرع في تفسير كلمات النص الذي يورده ، دون اقتصار على الغريب أو الغامض منها ، كما يفعل المرتضى في أماليه - ويتبع ذلك بشرح النص الشعري أو بيان معناه العام ، ويحدد موضع الشاهد أو وجه الاستدلال فيه ، وقد يدعمه بشواهد أخرى من استخراجه هو . ويستطرد أحياناً في ذكر معاني الكلمات ، فيذكر كيفية نطقها ووجوه الاختلاف في تفسيرها ، كما قد يستطرد أيضاً ، فيسرد في أثناء التفسير والشرح بعضاً من القصص وبعضاً من العبر والأمثال العربية والأشعار التي لها علاقة بالنص الشعري أو بالشاهد فيه من قريب أو بعيد على جهة التداعي أو طريقة (الشيء بالشيء يذكر) التي يسلكها أصحاب الأمالي ومنهم الشريف المرتضى . كما يورد في أحيان كثيرة أيضاً ترجمة لصاحب النص ، ويعرض أو يشار أحياناً كذلك إلى تفسير بعض الآيات القرآنية ، وتطرح بعض المسائل الفقهية والأصولية والعقائدية وتسرد بعض الوقائع التاريخية وتناقش أو يعلق عليها، وقد يستجلى رأي الشريف المرتضى وغيره فيها. وفي أثناء ذلك كله ترد بنحو أو بآخر وبشكل عرضي أو عفوي غير مطرد بعض الفوائد اللغوية والبلاغية والتاريخية والأدبية العامة ، على غرار ما نجده في «أمالي المرتضى» تقريباً. وعلى هذا الأساس وصف هذا الكتاب بأنه «موسوعة عامة تبحث في العلم والتفسير والعقيدة والتاريخ والأدب» ، وهذا ما يجعله قريباً في أسلوبه وشكله الظاهري العام من «أمالي المرتضى»[٨٣] .

إن كتاب «فرائد الغوالي» يعد بالفعل موسوعة لغوية وأدبية ومعرفية عامة ، ربما كانت فريدة من نوعها، ولكنه يمكن القول بأن هذا الكتاب في حقيقته وفي غالب أجزائه وموضوعاته أقرب إلى الجمع والوصف السردي منه إلى النقد والتحليل ، وأقرب إلى توضيح النصوص الشعرية وشرحها وتفسير لغتها منه إلى التعمق في مناقشتها أو موازنتها وإبراز النواحي الفنية أو البلاغية فيها ، والتعرض فيه للمسائل العقائدية والشرعية والوقائع التاريخية وغيرها لا يخضع لمنهج عقلي متتبع ومناظرات كلامية موسعة أو معمقة بقدر ما هو استعراض ووصف لها . ولذلك فهو لا يشابه «أمالي المرتضى» في جوهره الحقيقي ، ولا يرقى بطبيعة الحال إلى مستواه ، لا من حيث الشكل الواقعي ولا من حيث المنهج والمضمون ، ولكنه في مجمله وشكله العام يعكس جانباً كبيراً من التأثر بأسلوب المرتضى في أماليه، ولاسيما من حيث التعامل مع الشواهد الشعرية وعامة النصوص الأدبية . كما يعد لأمالي المرتضى من جانب آخر الفضل الكبير في وجوده وفي تشكيل كيانه، لأن المحور الذي قام في الأساس عليه وانطلق منه هو شواهد الأمالي «أمالي المرتضى» .

مكانة «أمالي المرتضى» من كتب الأمالي الأخرى :

يشكل كتاب «أمالي المرتضى» كما رأينا موسوعة مهمة في العلوم الإسلامية والأدب والشعر واللغة والتاريخ وعلم الكلام والفلسفة والنقد النظري والتطبيقي . ويدل على سعة اطلاع مؤلفه وعمق ثقافته في هذه المجالات . وربما شابه هذا الكتاب في ظاهره وتوجهه الموسوعي كتب الأمالي وكتب الأدب المماثلة الأخرى مثل كتاب «الأمالي»

لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت ٣٥٦هـ)، و«أمالي ابن الشجري» السابق الذكر، وكتاب «الأمالي» لإبراهيم ابن محمد الزجاج النحوي (ت ٣١٦هـ)، و«أمالي العشيات» لمحمد بن عبد الله بن محمد المعروف بالحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، وأمالي أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بالنامي (ت ٣٩٩هـ)، وأمالي أبي علي أحمد بن محمد المرزوقي (ت ٤٢١هـ) وكتاب «الكامل» لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٦هـ). ربما شابه أمالي المرتضى هذه الكتب أو اتفق مع بعضها من حيث الاهتمام برواية الأخبار والأشعار وطرائف الأدب وأمثاله وذكر بعض وقائع التاريخ وتناول ما يتعلق بذلك من مسائل اللغة والصرف والبلاغة والأدب وغيرها، إلا أن «أمالي المرتضى» يبقى مختلفاً عنها، بل متفرداً من حيث منهجه وطريقة الطرح والعرض والمعالجة والاستدلال بالإضافة إلى اختصاصه بجوانب من المعارف والفنون.

لقد ساد في «أمالي المرتضى» كما رأينا فيما سبق المنهج النقدي الاستدلالي القائم على التحقيق والتدقيق والفحص والمقارنة والموازنة والاستنتاج والكشف في كثير مما تطرق إليه من موضوعات وعرضه من أفكار وآراء ونصوص. في حين غلب على الكتب الأخرى التي سبقت الإشارة إليها طابع النقل السردي واستعراض الأحكام التأثرية والانطباعية، والاقتصار على إفراغ مخزون الذاكرة من محفوظ العلم ومأثور القول وموروث الحكم ومستحصل المعرفة في الموضوعات المطروحة.

وفي الوقت الذي نرى فيه التركيز في كتب الأمالي الأخرى ينصب بالدرجة الأولى على التنبيه على مسائل اللغة والنحو والصرف وعلى رواية الأشعار والأحاديث والتفاسير المتعلقة بهذه المسائل وهذه الاشعار والأحاديث، وسرد ما يتوارد عليها أو يستطرد في ذكرها من النصوص. نرى أن غالب المحاور الرئيسة في «أمالي المرتضى» تدور حول تفسير آيات القرآن وتأويل الأحاديث والأخبار ومناقشة المسائل العقائدية والكلامية والشرعية والفلسفية المتعلقة مناقشة عقلية استدلالية، جنباً إلى جنب مع الاهتمام برواية الأشعار وتفسير غوامضها، ثم نقدها وتحليلها عملياً، وبحث ما قد يعرض ذكره من القضايا النقدية والبلاغية ومسائل اللغة والنحو والصرف ذات العلاقة بحثاً نظرياً أو التعليق عليها.

إن «أمالي المرتضى» بالإضافة إلى كونه كتاباً في اللغة والنحو والصرف ورواية الأشعار والأخبار، كمعظم كتب الأمالي التي صدرت قبله وبعده، فإنه كتاب تفسير وبحث استدلالي فكري وعقائدي وفلسفي عقلي من الدرجة الأولى، وكتابٌ في النقد لا يقل في قيمته أو مستواه الفعلي كثيراً عن كتب النقد الأخرى التي صدرت قبله. وهو يتميز على كتب الأمالي الأخرى بالجمع بين هاتين الصفتين. وإذا كانت ميزته في الصفة الأولى بينة واضحة لكل دارس، إن لم تكن لكل قارئ وإننا قد أشرنا إلى ما يبرزها في عدة مواقع سابقة من هذه الدراسة. فإن المقارنة والموازنة الدقيقة العادلة بينه وبين تلك الكتب في تناول الموضوعات والقضايا الواحدة تظهر تميزه بمنهجه الدقيق المتتبع في مجال النقد الأدبي وحسبنا أن نقارن في ذلك ما بين ما نجده وما سبق أن نبهنا عليه أو أشرنا إليه عند المرتضى في روايته للأشعار ومناقشته للقضايا النقدية واللغوية من زيادة في التتبع، وحيطة في التثبت، وقوة في الإسناد، ووضوح الموقف، وتحديد الرأي، ودقة التعليق والتحليل والتدليل والتفسير والربط والموازنة بين النصوص وبين وجهات النظر المختلفة، من أجل الوقوف على الرأي الأصلح. وبين ما نجده عند أبي علي القالي في أماليه عامة من الاعتماد في الغالب على السرد ونقل الأخبار والآراء دون تحليلها أو تمحيصها ومعالجتها[84] إلى درجة دفعت عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي

لأن يؤلف كتابه المعروف «التنبيه مع أوهام أبي علي القالي في أماليه» ، يستعرض فيه أخطاء القالي وأوهامه وجوانب القصور في أماليه، في تتبع حثيث دقيق وعبارات شديدة صارمة أحياناً . وينتقده في عزو الأبيات إلى غير قائليها ، وفي الخطأ في تسمية الشعراء وذكر أنسابهم ، ثم في نوعية الشعر الذي يستشهد به وتداخل سياقاته ومعانيه ، كما يعيب عليه انشغاله بتفسير ظواهر المعاني عن غوامضها[٨٥]... وغير ذلك مما يبرز تميز «أمالي المرتضى» ويظهر تفوق مؤلفه .

إن ما سبق ذكره لا يعني بأية حال من الأحوال الطعن في قيمة «أمالي القالي» ولا التقليل من شأنه أو شأن غيره من كتب الأمالي وكتب الأدب الأخرى المشار إليها ، ولا التهوين من اعتبارها موارد أولى صافية للغة في معظم فروعها الموروثة ، وكتباً تاريخية وأدبية عامة متنوعة الأغراض والفوائد ، ومصادر قيمة نافعة في تحقيق الكثير من النصوص الشعرية والنثرية . كما أنه لا يعني التنكر لما في هذه الكتب بمجملها من اللفتات النقدية والبلاغية المثرية ، والمتمشية في الغالب مع روح العصر الذي ألفت أو انبثقت فيه . وإنما نهدف من خلال ذلك إلى القول بأن «أمالي المرتضى» ليس بأقل شأناً من أي من هذه الكتاب على الإطلاق ، هذا إن لم يكن أكبر منها قيمة وأولى بالعناية والاحتفاء والشهرة .

وربما تكون لنا في المستقبل وقفة متأنية في دراسة خاصة مفصلة نعقد خلالها مقارنة منهجية تحليلية مكثفة ، ومن خلال النصوص ، بين «أمالي المرتضى» وبين بعض كتب الأمالي وكتب الأدب العامة المماثلة البارزة الأخرى مثل «أمالي القالي» و«أمالي ابن الشجري» ، وكتاب «الكامل» للمبرد ... لتتعزز الرؤية في القيمة العلمية والأدبية والفكرية العالية والمكانة الرفيعة التي تميز بها كتاب «أمالي المرتضى» عن تلك الكتب .

الهوامش

١ - انظر في ترجمة الشريف المرتضى، محمد بن الحسن الطوسي ، الفهرست ؛ تحقيق محمد صادق بحر العلوم -، المطبعة الحيدرية ، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ، ص ١٢٥ ؛ رجال الطوسي ؛ تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم -، النجف : المطبعة الحيدرية ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص٤٨٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ؛ تحقيق إحسان عباس -، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٨م ، ج٣ ، ص٣١٣ ؛ ياقوت بن عبد الله الحموي ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب؛ تحقيق د. س. مرجليوث -، ليدن : بريل ، ١٩٥٦م ، ج٥ ، ص١٧٣؛ محمد باقر الخوانساري، روضات الجنات ، طهران: مكتبة إسماعيليان ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ج ٤ ، ص ٢٩٥ ، ٣٠٣ .

٢ - عبد الرحمن ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم -، حيدرأباد : مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٨م ، حوادث سنة ٣٨٠ ، ج٧ ، ص ١٥٣ وكذلك ج٧، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

٣ - انظر أحمد محمد المعتوق : «الشريف المرتضى : حياته - ثقافته - أدبه ونقده» : دراسة نظرية تحليلية نقدية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد الرابع والاربعون (٤٤) ، السنة الحادية عشرة - صيف ١٩٩٣م -، الكويت ، ص ٣٠ - ٧٣ .

٤ - انظر ياقوت الحموي ، الإرشاد ، ج٥ ، ص ١٧٣ ؛ كمال الدين ابن

القوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ؛ تحقيق مصطفى جواد ،- دمشق : المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٢م ، ج ٤، قسم (١) ص٦٠٠ وما بعدها ؛ علي بن الحسن الباخرزي ، دمية القصر ؛ تحقيق سامي مكي العاني ،- بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ص٢٩؛ جلال الدين السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،- القاهرة : الحلبي ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ج٢، ص١٦٢؛ الخوانساري، روضات الجنات ، ج٤ ، ص٢٩٥.

٥- علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ؛ تحقيق إحسان عباس ،- بيروت : دار الثقافة ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، القسم ٤ ، ص ٤٦٥ .

٦ - عبد الملك الثعالبي ، تتمة يتيمة الدهر ؛ تحقيق عباس إقبال ،- طهران : مطبعة فردين ، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م ، ج ١، ص٥٣.

٧ - ياقوت الحموي ، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،- بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ج٤، ص ٧٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ١٧٣ .

٨ - انظر عبد الحي بن أحمد ابن العماد، شذرات الذهب ،- القاهرة: مكتبة القدس ، ١٣٥٠-١٣٥١هـ/ ١٩٣٠-١٩٣٢م ، ج٣، ص ٢٥٦ وما بعدها؛ إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ،- القاهرة : السعادة ، ١٩٣٢م ، ج ٢ ، ص٥٣.

٩ - يضم ديوانه الذي صدر في ثلاثة أجزاء بتحقيق رشيد الصفار قرابة أربعة عشر (١٤) ألف بيت، بينما يقول بعض المؤرخين أن ديوانه يشتمل في الأصل على ما يقارب العشرين ألف بيت. انظر: الشريف المرتضى، الديوان ، مقدمة المحقق، ج١، ص١٢٧، وكذلك انظر: الطوسي ، الفهرست ، ص ١٢٥ ؛ علي بن يوسف القفطي ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،- القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٧١هـ ، ج٢ ، ص ٢٥٠ .

١٠-انظر الشريف المرتضي ، أمالي المرتضى : غرر الفوائد ودرر القلائد ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، مقدمة المحقق ص ١٨ .

١١- حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تقديم السيد شهاب الدين النجفي المرعشي ،- ط٣ ،- طهران : المطبعة الإسلامية ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ج١ ، ص ١٦١.

١٢- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ٧٤٨ .

١٣- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣، ص ٣١٣ .

١٤- طبع هذا الكتاب عدة طبعات آخرها وأحسنها - على حد علمي- الطبعة التي صدرت بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م ، وهذه هي الطبعة التي استخدمت في هذه الدراسة .

١٥- انظر عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون ،- القاهرة : مطبعة الخانجي ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ج١ ، ص ٥ .

١٦- الشريف المرتضى ، الذخيرة في علم الكلام ؛ تحقيق السيد أحمد الحسيني ،- قم : مؤسسة النشر الإسلامي ، ١٤١١هـ .

١٧- انظر: الشريف المرتضى ، الأمالي، ج٢ ، ص١٣١ - ١٣٢، ص-٣٣٣-

٣٣٩، ٣٤٧-٣٤٨ على التوالي .

١٨- الأمالي ، ج١ ، ص ١٤٨ - ١٩٩ .

١٩- الأمالي ، ج١ ، ص ١٦٥-١٦٧ .

٢٠- الأمالي ، ج٢ ، ص ٢٩٥-٢٩٨ وص ٣٠٠ - ٣٠٢ .

٢١- الأمالي ، ج١ ، ص ٢٧٠-٢٧٣ .

٢٢- كمثل على ذلك انظر الأمالي ، ج١، ص ١٧٣-١٨٣ .

٢٣- الأمالي ، ج١ ، ص ١٩ - ٢١.

٢٤- الأمالي ، ج١ ، ص ١٢٧ - ١٤٧ .

٢٥- انظر الأمالي ، فهرس اللغة الملحق بالكتاب ، ج٢ ، ص ٤٦٠ - ٤٧٤ .

٢٦- انظر على التوالي :ج٢ ص٢٩٥-٢٩٨ ، ج١، ص٣٥٢-٣٥٣ ، ج١، ١٢٠ - ١٢٧، ج٢ ص١٢٢-١٢٤. انظر كذلك الأمالي، ج٢، ص ٢٩٥-٢٩٨ و ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

٢٧- الأمالي ، ج١ ، ص ٤٣١ .

٢٨- انظر على سبيل المثال وليس الحصر: الأمالي ، ج١، ص٤ - ٧، ٢٦، ١٢١- ١٢٨، ١٨٩، ج٢، ٧٣-٧٦ ، ٣٠٩-٣١٤ ، ٣٧٢ ...

٢٩- عبد الرزاق محيي الدين ، أدب المرتضى: من سيرته وآثاره .- بغداد: مطبعة المعارف ، ١٩٥٧م ، ص١٩٤ .

٣٠- أمالي المرتضى ، مقدمة المحقق ، ج١، ص ١٨ .

٣١- انظر على سبيل المثال موازنة المرتضى بين قول البحتري مع أقوال شعراء آخرين في وصف صفرة اللون ، ج٢ ، ص٤٢ - ٤٣. وموازنته بين مدائح البحتري نفسه مع مدائح كل من عمارة بن عقيل ومروان بن أبي حفصة ، ج٢، ص٤٣ - ٤٥ .

٣٢- الأمالي ، ج١، ص ١٨-١٩، ص٢٨٠، ج٢ ، ص٧-٧٦ ، ٢٥٠.

٣٣- انظر الأمالي ، ج١، ص ٥٩ ؛ ج٢، ص ٩٥-٩٧ ، ٣١٢-٣١٤ .

٣٤- الأمالي ، ج١ ، ص ٥٤ ، ٥٤٦ ؛ ج٢، ص٤٠ -٤١ .

٣٥- انظر على سبيل المثال إشارات المرتضى وتعليقاته حول القضية في الأمالي : ج١، ص١٧١ ، ١٨٨، ١٩٨ ، ٢٧٩، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٠٠، ٤١٥ ، ٤٦٢ ، ٥١٩، ٥٤٧ ، ٥٧٣، ٥٧٥ ، ٥٨٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧).

٣٦- انظر المعتوق ، «موقف الشريف المرتضى من قضية السرقات الشعرية والموضوعات المرتبطة بها»، عالم الفكر ، المجلد الثاني والعشرون - العدد الثاني - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م . الكويت، ص ٢٩٢ - ٣٤١ ، وكمثل على أعماله التطبيقية، انظر الأمالي ، ج١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ٥٤٠ - ٥٤٨ .

٣٧- كأمثلة من مواقفه مع الآمدي انظر: ج ١، ص ٦١٠ - ٦١١ ، ٦١٣ - ٦١٤ ، ٦٢٤ - ٦٢٥ ، ج٢ ص ، ٩٢ ، ٩٣ - ٩٧، ١٣٤، ٢٣٠

٣٨- انظر على سبيل المثال الأمالي ، ج٢ ص٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٤-٢٥٥؛ ج١ ص٢٨٢، ٥٩٧؛ ج١، ص١٥-١٦ ؛ ج١ ، ص٦٢٤ ؛ ج٢ ، ص٩١-٩٧ على التوالي .

٣٩- انظر الأمالي : لغة الشعر ج١ ، ص ٤ ، ج٢ ، ص ٢٥٧ ، ٩٤-٩٧. المعنى الشعري، ج٢ ، ص ١٨٩ .

٤٠- انظر الأمالي : ج١ ص٥١٨ ، ج٢، ص ٩٤ .

٤١- عبد الرزاق محيي الدين ، أدب المرتضى ، ص ١٦٠ .

٤٢- المرتضى ، الأمالي ، من مواقفه مع الآمدي انظر ج ١، ص٦١٠-٦١١، ٦١٣ - ٦١٤، ٦٢٤ - ٦٢٥ ، ج٢، ص ٩٢ ، ٩٣ - ٩٧، ١٣٤، ٢٣٠.

٤٣- انظر أحمد محمد المعتوق : «لغة الشعر بين ناقدين : الآمدي والشريف المرتضى ، علامات : في النقد ، عدد ذي القعدة ١٤١٧هـ/ مارس ١٩٩٧م ، ص١٧٣ - ٢١٨.

٤٤- عبد الرزاق محيي الدين ، أدب المرتضى، ص ١٦٠ .

٤٥- انظر على سبيل المثال ، المرتضى ، الأمالي ، ج ١، ص ١٨٧ - ١٨٩

(ابن النظام) ؛ ج١، ص١٥٢-١٥٧ ، ١٦٢-١٦٧ (الحسن البصري) ؛ ج١، ص١١٤-١١٩ (أبو دهبل الجمحي) ؛ ج ١، ص ٤٧١-٤٧٦ (مسكين الدارمي) ؛ ج١، ص ٥١٨ -٥٢٥، ٥٣٢-٥٣٦، (مروان بن أبي حفصة).

٤٦- بالإضافة إلى ما ذكر في الهامش السابق فيما يتعلق بمروان بن أبي حفصة ، انظر. ٥٤٠-٥٤٩، ٥٥٣-٥٦٤، ٥٦٦ - ٥٧٥، ٥٧٨-٥٨٩ .

٤٧- انظر المرتضى ، الأمالي ، ج٢ ، ص ١١٠ - ١١٩ ، ١٥٨ - ١٦٢ (في الكرم والضيافة) ؛ ج٢ ، ص ١٥٠-١٥٣ (في الأوطان) ؛ ج٢ ، ص ٢٢٨-٢٣٠ (في الزهد وذم الدنيا) ؛ ج٢ ، ص ٢٠٧-٢١٤ (في وصف الثغر ، ووصف الذئب)؛ ج١ ، ص٣٥٥- ٣٥٨ (في المأدب وأنواعها وأسمائها) .

٤٨- انظر المرتضى ، الأمالي ، ج٢ ، ص ٢٤٠- ٢٤٥ (مختارات من شعر النساء) .

٤٩- المرتضى ، الأمالي ، ج ١، ص٢٧٣ - ٣٠٧ . .

٥٠- المرتضى ، الأمالي ، ج ٢، ص١٠١ - ١٠٥ .

٥١- المرتضى ، الأمالي ، ج ١، ص٢٣٢ - ٢٦٩ .

٥٢- المرتضى ، الأمالي ، ج ٢، ص٣٨٤ - ٣٩١ ؛ (في التنجيم والمنجمين) ج٢ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٥ (في المنامات). ؛ ج١ ، ص ٨١ - ٨٦ (في أحوال القمر) ؛ ج٢ ، ص٣٤٩ - ٣٥٣ (في مدح وذم أجناس الطير) ؛ ج٢ ، ٢٦٢ - (في المرأة) ؛ ج٢، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ (بعض المسائل الفلسفية) .

٥٣- المرتضى ، الأمالي ، ج ١ ، ص١١-٢٤ .

٥٤- سورة الإسراء / ٨٥ .

٥٥- سورة الحجر / ١٩.

٥٦- من سورة الأنعام /١٠٣.

٥٧- انظر على سبيل المثال ، المرتضى ، الأمالي ، ج ١، ص١٤٢ - ١٩٩ . ٢٤٤ - ٢٦٩، ٥٩٢ وما بعدها .

٥٨- المرتضى، الأمالي، ج١، ص١٨-١٩.

٥٩- انظر الأمالي، ج١، ص١٢٠-١٢٧.

٦٠ - الأمالي ، ج١ص ١٢٨.

٦١- انظر على سبيل المثال وليس الحصر : الأمالي ، ج١ ، ص٥-٩.

٦٢- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، لسان الميزان -، بيروت : موسسة الاعلمي ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، ج٤ ص٢٢٣ ٢٦٣ - محيي الدين ، أدب المرتضى ، ص ١٢٢ .

٦٤ - عبد الله أفندي الأصبهاني ، رياض العلماء وحياض الفضلاء ؛ تحقيق أحمد الحسيني (قم : مطبعة الخيام ١٤٠١هـ/١٩٨٠م) ج ٤ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

٦٥- انظر : ابن إسحق النديم ، الفهرست ، ط ٣ ؛ تحقيق رضا تجدد بن علي الحائري (دار المسيرة، ١٩٨٨م ، ج٥ ، ص٢١٩؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، -، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ت ، ج٦، ص٣١

٦٦- ابن إسحق النديم، الفهرست، ج٥، ص٢٢٢ ؛ كحالة ، معجم المؤلفين ، ج٥ ، ص٢٣٠ ؛ لمزيد من التفصيل عن الجبائي ومكانته ومذاهبه في علم الكلام انظر محمد يوسف موسى في ، دائرة المعارف الإسلامية -، بيروت : دار المعرفة، د.ت ، ج٦، ص ٢٧١ - ١٧٤ .

٦٧- انظر معجم المؤلفين ، ج٩ ، ص ٩٧ ؛ خير الدين الزركلي ، الأعلام، ط٣ (بيروت : ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ .

٦٨- ممن وقعوا في هذه الشبهة من كتابنا المعاصرين عبد الرزاق محيي الدين ، انظر أدب المرتضى، ص٣٤ . وقد رد عليه أحد الباحثين رداً سديداً ، انظر ، السيد محمد الحيدري مع الدكتور محيي الدين في أدب المرتضى -، بغداد:

مطبعة الزهراء، ١٢٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص ١٤ - ٢٦ .

٦٩- ابن الراوندي هو أحمد بن يحيى ابن إسحاق (ت ٢٤٥هـ)، وهو عالم ومتكلم يعد من فضلاء عصره ، مؤلفاتها تزيد على (١١٤) أشهرها وأبرزها كتابه «فضيحة المعتزلة» الذي نقض فيه كتاب معاصره الجاحظ «فضيلة المعتزلة» ، انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٩٤ .

٧٠- انظر الشريف المرتضى ، الشافي في الإمامة ؛ تحقيق عبد الزهراء الحسيني الخطيب .- بيروت : مؤسسة أهل البيت للمطبوعات ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ، ج١ ص٣٨ .

٧١- انظر على سبيل المثال ، الأمالي ، ج١ ، ص ٩-١٠ ، ٤٦٨ - ؛ ج٢ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

٧٢- انظر الأمالي ، ج ١ ص١٣، ٣٦٧؛ ج٢، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

٧٣- انظر مثلاً ، الأمالي، ج١ ، ص٣٢٥ - ٣٢٧ ؛ ج٢ ، ص٣٦٢ ؛ ج١، ص٥١٥ - ٥١٨ .

٧٤- انظر ابن إسحق النديم ، الفهرست ، ج٥، ص٢٢٢ .

٧٥- انظر أمالي المرتضى ، مقدمة المحقق ، ص ١٨. هكذا تصور المحقق محمد أبو الفضل وذلك بعيد عن الصواب كما هو واضح .

٧٦- أمالي المرتضى ، مقدمة المحقق ، ص ١٩ .

٧٧- الشريف المرتضى ، الشهاب في الشيب والشباب ، قسطنطينية الجوائب ، ١٣٠٢هـ .

٧٨- الشريف المرتضى ، طيف الخيال ؛ تحقيق حسن كامل الصيرفي .- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م .

٧٩- فرغ المرتضى من تأليف كتابه الأمالي سنة ٤١٣هـ ، بينما فرغ المرتضى من تأليف كتابه «الشهاب» - كما هو مشار في الكتاب نفسه ، ص ٩٩ - في عام ٤٢١هـ ، في حين انتهى من تأليف كتابه طيف الخيال كما تفيد الدلائل في سنة ٤٣٢هـ ؛ انظر طيف الخيال ، ص٩٥ ، وإن كان هناك بعض الاختلاف ، انظر كذلك ، طيف الخيال ، مقدمة المحقق ، ص ٢٧ .

٨٠- انظر : أمالي ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن محمد الحسني العلوي ؛ تحقيق محمود محمد الطناحي .- القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، الدراسة ، ج١ ، ص ١٩١.

٨١- المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٨.

٨٢- الفرائد الغوالي على شواهد الأمالي للسيد المرتضى . للشيخ محسن آل الشيخ صاحب الجواهر (ت ١٣٥٥هـ) ، أشرف على نشره وتحقيقه محمد حسن الجواهري نجل المؤلف . ثلاثة أجزاء ، الطبعة الأولى الجزء الأول بدون تاريخ ، الجزء الثاني صدر في (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، والجزء الثالث في (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، مطبعة الآداب في النجف الأشرف. (ثلاثة أجزاء).

٨٣- هذه الوصف ورد على غلاف الكتاب ، وقد ورد كذلك في كلمة «التعريف بالكتاب» التي كتبها الناشر انظر الكتاب ، ج١ ،

٨٤- انظر على سبيل المثال تفسير كل من المرتضى وأبي علي القالي لكلمة «اللحن» وتناولهما معاً للمفاهيم والمعاني المتعلقة بها ، في كل من كتاب أمالي المرتضى ، ج١، ص١٣ - ١٧. و كتاب الأمالي مع كتاب ذيل الأمالي والنوادر ، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي؛ تحقيق الشيخ صلاح فتحي هلل وسيد بن عباس الجليمي .- بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م ، ص ٧ - ١٩ .

٨٥- انظر كتاب التنبيه مع أوهام أبي علي في أماليه ، مع كتاب الأمالي للقالي، ص٧٥٩ -٧٦٠ وما بعدها؛ انظر كذلك مقدمة المحقق ، ص ٩.

الإنتاجية العلمية
أداة لتقويم أداء الأعضاء الأكاديميين
بمدارس وكليات المكتبات وعلم المعلومات

محمد إبراهيم حسن محمد
كلية الآداب - جامعة المنيا - جمهورية مصر العربية

ملخص :

تتناول الدراسة الإنتاجية العلمية ودورها في تقويم الأداء الأكاديمي لأعضاء هيئة التدريس بكليات ومدارس المكتبات والمعلومات ، فتركز الدراسة على النقاط التالية : مفهوم الإنتاجية العلمية ، ومؤشراتها ، وطرق قياسها، والعوامل المؤثرة فيها، وتناقش دور الإنتاجية العلمية في تقويم الأداء الأكاديمي في مدارس المكتبات والمعلومات مقابل وظيفتي التدريس والتوجيه ، وخدمة المجتمع وتنمية البيئة .

مقدمة :

يعتمد تقدم المجتمعات البشرية على بناء الأفراد في هذه المجتمعات بناءً علمياً وإعداداً مهنياً وتربوياً متميزاً، وذلك لأنهم يمثلون الموارد البشرية التي تقود حركة الحياة والتطور، ومن ثم فإن إعداد تلك القوى البشرية وتنميتها عن طريق زيادة المعارف والمهارات والقدرات لا يتحقق إلا عن طريق التعليم ، خاصة التعليم الجامعي الذي أصبح ضرورة من ضرورات الحياة .

وانطلاقاً من ذلك ، فإن التعليم في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي أخذ يشهد اهتماماً كبيراً على مختلف الأصعدة المحلية والعربية والعالمية، ويواجه تطويراً مستمراً لمواكبة حاجات الأفراد والمجتمعات ومتطلبات العصر وتحديات القرن الحادي والعشرين المستقبلية، ولذلك أصبحت الجامعات محور اهتمام الجميع لاسيما القيادات الحكومية من خلال التركيز على أهداف الجامعة ودورها المتميز في تقدم المجتمع والنهوض به، وإمداده بالطاقات البشرية التي تتولى قيادة مشاريع التنمية والتطوير في كل مجالات الحياة .

كان من المنطقي، إذن ، أن تهتم مؤسسات التعليم العالي، وكذلك القيادات الإدارية على المستوى الرسمي بموضوع تقييم أعضاء هيئة التدريس، ذلك الموضوع الذي يهدف إلى الإجابة عن التساؤلات التالية :

- كيف يتسنى قياس المعرفة التي يقوم عضو هيئة التدريس بإيصالها إلى الطلاب في المحاضرات ؟
- كيف يُقاس تأثير عضو هيئة التدريس على البنية المعرفية للتخصص ؟
- كيف يمكن قياس الخدمات التي يقدمها عضو هيئة التدريس للمهنة أو للتخصص بشكل عام ؟

لا تزال الإنتاجية العلمية تمثل المعيار الأساسي والمحك الرئيسي الأكثر استخداماً في المؤسسات الأكاديمية عامة وكليات ومدارس المكتبات والمعلومات خاصة عند تقييم الأداء الأكاديمي لأعضاء هيئة التدريس. ترجع أهمية الإنتاجية العلمية في هذا الصدد لما يتمخض عنها من نتاج فكري مادي يمكن تقييمه وتحكيمه موضوعياً بواسطة أعضاء محايدين من خارج الجامعة . بعبارة أخرى ، ما تزال الإنتاجية العلمية إلى الآن هي

أكثر المقاييس موضوعية، مما يؤدي بسائر المؤسسات الأكاديمية إلى استخدامها واعتبارها الأداة المثلى عند تقييم نشاط أعضاء هيئة التدريس .

وفيما يلي يتعرض الباحث لموضوع الإنتاجية العلمية في ضوء علاقتها بتقييم الأداء الأكاديمي لأعضاء هيئة التدريس بكليات ومدارس المكتبات وعلم المعلومات .

١ / مفهوم الإنتاجية العلمية :

ظهر مصطلح الإنتاجية Productivity إلى الوجود على يد العالم الفرنسي كويزناي Quesnay في بحث نشر له عام ١٧٦٦م [١] . وعلى الرغم من بدايته القديمة نسبياً، وارتباطه بالفكر الاقتصادي، إلاَّ أن أهم ما ينبغي ملاحظته هو أن المفاهيم والأفكار التي ينطوي عليها هذا المصطلح في أذهاننا اليوم تجاوزت المضمون الاقتصادي التقليدي له، وأصبحت الإنتاجية تُمثل مضامين ومعاني مختلفة ما بين أيدولوجية واقتصادية واجتماعية وسيكلوجية وإدارية وعلمية .

يؤكد عدد من العلماء والباحثين على أنه لا ينبغي أن نتعامل مع الإنتاجية العلمية بالمفهوم نفسه الذي يشير إليه مصطلح الإنتاجية في المؤسسات التجارية والصناعية، ويُعبرون عن ذلك بقولهم : "إن المفهوم المتداول الذي تشير إليه الإنتاجية في المؤسسات التجارية والصناعية لا يمكن قبوله مطلقاً في حقل التعليم العالي [٢] . وهكذا ، فإن استقطاب قطاع التعليم العالي لمصطلح الإنتاجية أكسبه معاني ومضامين أخرى جيدة .

يُعرف البعض الإنتاجية على أنها : "عملية توظيف الوقت"، ومن هذا المنطلق لا ترى هذه الفئة فرقاً واضحاً بين العمل المتصل في المنزل والعمل المحدود في المؤسسة الأكاديمية من حيث تأثير كل منهما على الإنتاجية، في الوقت ذاته تتخذ مجموعة أخرى موقفاً مناقضاً فتنظر إلى الإنتاجية على أنها عملية إبداعية تتأثر بالفروق الفردية إلى حدٍ كبير ، ويؤمن المؤيدون لهذا الاتجاه بأن "كل فرد يملك الوقت الكافي إلا أن البعض يمتلك القدرة على التحكم في الوقت بدرجة تفوق الآخرين [٣]. على أية حال، لا نستطيع أن نجزم بصحة أي من الاتجاهين السابقين لأن لكل منهما سنده المنطقي، بيد أن كلا التعريفين يؤكد على قيمة الوقت فيما يتعلق بإنتاجية البحوث .

واستمراراً للاتجاه الذي يبرز الجانب الإبداعي للإنتاجية ويركز على قيمة الوقت ومهارة استخدامه؛ يقترح روبرت بويس Robert Boice قاعدة ذهبية تساعد المؤلفين على تجاوز مشكلة تخصيص الوقت تقضي بتخصيص فترة زمنية تتراوح بين ٣٠ و ٦٠ دقيقة يومياً لعملية الكتابة (التأليف) في حين يرى البعض أن ٣٠ دقيقة لا تعدو أن تكون الحد الأدنى من الوقت الذي يجعلهم يحافظون على حماسهم البحثي [٤] . ويبدأ أرون ويلدافسكي Aaron Wildavsky كتابه عن الكتابة العلمية بالتأكيد على أهمية العادة فيما يتصل بالإنتاجية قائلاً : "حاول أن تعمل في نفس المكان، في نفس الفترة الزمنية، وبنفس الأسلوب ... ومن ثم توقع استجابة جيدة من الجسم والعقل عند استثارة كل منهما" [٥] .

وما يهمنا في هذا الصدد هو الإنتاجية العلمية Scholrly Productivity ؛ تلك الظاهرة المعقدة التي تنطوي بدورها على العديد من المكونات المتشابكة المتداخلة كالإبداعية والجودة والانتماء الأكاديمي وبيئة العمل ... إلخ. ويرى أحمد بدر [٦] أن الإنتاجية تؤثر تأثيراً نوعياً - شخصياً - علمياً - عاطفياً ... إلخ . من الصعب تقييمه ووزنه، ذلك أن هذا التأثير تراكمي يصوغ البناء الفكري والمنهجي الذي يحكم كثيراً من الجوانب الحياتية للمتلقين .

إن مصطلح "الإنتاجية العلمية" سواء طبق على

المؤسسات الأكاديمية أم أعضاء هيئة التدريس يحمل في طياته دلالات تخصصية يجب أن توضع في سياقاتها التاريخية، ومن ثم فإن حدود مصطلح الإنتاجية العلمية هي الزمن بالإضافة إلى التخصص الموضوعي، وتُحاط الإنتاجية بنظام مُعقد من العوامل الداخلية والخارجية ، كما تتأثر الإنتاجية العلمية بالدور الذي تلعبه الكليات والمعاهد والذي يتأثر بدوره بالتغيرات التي تطرأ على أهداف الجامعات وإستراتيجياتها وهياكلها التنظيمية (٧) .

تعني الإنتاجية العلمية – من وجهة نظر الباحث – معنيين مختلفين ؛ الأول : الإنتاجية العلمية عملية إبداعية، الثاني : الإنتاجية العلمية ظاهرة يعكسها الإنتاج الفكري. وسيقتصر تناول الباحث لمصطلح الإنتاجية العلمية في ضوء المعنى الآخر الذي يشير إلى الإنتاجية العلمية على أنها : كم الإنتاج الفكري الذي نُشر لأعضاء هيئة التدريس طوال السنوات السابقة بصورة تعكس الخصائص التراكمية المميزة للنشاط العلمي، فكل مادة بحثية تعتمد على المواد البحثية السابقة، وفي المقابل فإنها تؤثر في العديد من المواد البحثية الجديدة (٨) . وهكذا، فإن أعمال العالِم في مجال تخصصي ما تعكس بدرجة كبيرة الطبيعة التراكمية لخصائص المجال كله .

تصرح مارسيا باتيس Marcia Bates بأنه من الضروري أن تنصب الدراسات التي تتناول الإنتاجية على الإنتاج الفكري البؤري أو الجوهري، وتعبر عن ذلك بقولها: «يجب أن ينصب الاهتمام على مقالات الدوريات والكتب وغيرها من الإنتاج الفكري الأساسي للخروج بقياسات دقيقة وترتيبات طبقية Ranking صادقة تعبر عن الواقع، أما إذا تضمنت دراسات الإنتاجية ذلك الإنتاج الهامشي كمراجعات الكتب فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى الخروج بنتائج منافية للواقع (٩) (١٠) . ومما لا شك فيه، أن دراسات الإنتاجية لا بد أن تتضمن الأشكال الأساسية للإنتاج الفكري لاسيما الكتب لكونها تمثل الجزء الأكبر – إلى جانب المقالات العلمية – من إسهامات الأكاديميين .

تشير دراسات عديدة إلى "ظاهرة" تأليف عدد قليل من العلماء إنتاجاً غزيراً في الوقت الذي يؤلف فيه عدد كبير من العلماء نسبة قليلة من الإنتاج الفكري (١١) . ويوضح برايس Price أن السواد الأعظم من إجمالي النشاط العلمي يتشكل ويُصاغ بواسطة عدد قليل نسبياً من العلماء (١٢) . فمما لا شك فيه أن الإنجازات العلمية للباحث هي التي تكسبه المكانة العلمية والتقدير المهني اللذين يستحقهما .

يُعد قيام بعض العلماء بنشر أعمالٍ متعددة وعدم نشر البعض الآخر أية أعمال أمر من الصعب تفسيره على الرغم من محاولة الباحثين إيجاد إجابة عن هذا السؤال منذ الأربعينيات من القرن العشرين ، ولعل ذلك يرجع إلى وجود مشكلات في قياس الإنتاجية ، أو تحديد المتغيرات ذات الصلة ، أو تحديد أشكال الإنتاج الفكري موضع الدراسة، أو تحديد درجة تأثير المتغيرات المختلفة (١٣) .

وفي هذا الإطار، حدد علماء النفس مجموعة من السمات الفكرية الأساسية للأفراد الأكثر إنتاجية والأغزر ابتكاراً في قطاع عريض من التخصصات اشتملت على : الأدب ، الفن ، الموسيقى ، العلوم، وخرج هؤلاء العلماء بنتيجة مؤدَّاها أن هؤلاء الأفراد يتمتعون بصفات تميزهم عن أقرانهم مثل : قوة الشخصية، والقدرة على التأثير في الآخرين ، والمثابرة والإصرار، والقدرة على التحمل، والرغبة في تحقيق الكمال، ويؤكد علماء الاجتماع على أن "تقديس البحث العلمي" هو القوة الدافعة للإنتاجية عند الأفراد العلميين الأمر الذي يحتم عليهم الاضطلاع بمهام البحث حتى وإن

احتجبت مظاهر التقدير والتكريم والمكافأة [14] .

مهما يكن من أمر تفاوت العلماء بشكل واضح من حيث عدد البحوث التي يقومون بنشرها ؛ فقد توصل ألفريد جيمس لوتكا Alfred James Lotka في بحثه عن التوزيع التكراري للإنتاجية العلمية للكيميائيين والفيزيائيين الذي نشر في مجلة أكاديمية واشنطن للعلوم The Journal of the Washington Academy of the Sciences بتاريخ ١٩ يونيو ١٩٢٦م بعد أن قام بتحليل الإنتاج الفكري للكيميائيين من خلال نشرة المستخلصات الكيميائية Chemical Abstracts فيما بين عامي ١٩٠٧ - ١٩١٦م، وكذلك استقراء كشاف الإنتاج الفكري للفيزيائيين Auerbach's Geschichtstafeln Der Phiysik ذلك الكشاف الذي يغطي أفضل ما نشره المؤلفون في المجال خلال القرن التاسع عشر - إلى أن التوزيع التكراري للعلماء يمكن وصفه بواسطة الدالة Function التالية : ف (ن) = ن^٢ على ك ؛ حيث ف (ن) = عدد العلماء الذين ينشرون (ن) من المقالات، (ك) = ثابت ، ويعني ذلك أن أقل من ٦٪ من العلماء ينشرون حوالي ٥٠٪ من البحوث [15] [16] . ويرى كثير من الباحثين أمثال : ليفنز Leavens ، ودافيس Davis، وبرايس Price ، وبرايتون Britton أن "قانون التربيع العكسي للوتكا" الخاص بالإنتاجية العلمية يصلح للتطبيق على الفترات الزمنية المختلفة، والتخصصات الموضوعية المتنوعة أيضاً .

من جهة أخرى ، لاحظ القائمون على إدارة المركز الوطني الهندي للدراسات البيليومترية National Centre of Bibliometrics أنه يمكن تقسيم بحوث العلماء من حيث الاستشهاد بها إلى أربع فئات هي [17] :

١ - بحوث قليلة يُستشهد بها مرات قليلة .

٢ - عدد كبير من البحوث يُستشهد بها مرات قليلة .

٣ - عدد أقل من البحوث يستشهد بها عدد مرات أقل .

٤ - عدد قليل جداً من البحوث لا يُستشهد بها أبداً.

لقد طُبقت دراسات عديدة في موضوع الإنتاجية في مختلف التخصصات بغرض ترتيب الأقسام العلمية داخل المؤسسات الأكاديمية لتحديد إسهام كل قسم من هذه الأقسام في البناء المعرفي للمجال . وتُقدم مثل هذه الدراسات بصورة عامة بعض معايير التفوق في البرامج الأكاديمية، وذلك استناداً إلى فرض يقضي بأن أعضاء هيئة التدريس المنتجين للبحوث العلمية يرفعون من مستوى جودة البرنامج التعليمي مما ينعكس بشكل إيجابي على الطلاب [18] . بعبارة أخرى ، تتجه معظم التخصصات الأكاديمية إلى استخدام الإنتاج الفكري ومن ثم قياس اتجاهاته العددية والنوعية كأداة أساسية تعكس المفهوم الكلاسيكي "بنشر Publish " أو "لا ينشر Perish " [19] .

لفت انتباه الفرنسي فرانك كلمنت Frank Clemente - أثناء تتبعه لتطور العلم - ما أطلق عليه أنه واحد من الموضوعات الحاسمة في مجال الدراسات التطبيقية ألا وهي دراسة الإنتاجية العلمية، ويؤكد على أن دراسات الإنتاجية طُبقت على قطاعات متنوعة من العلماء حيث شملت الفئات التالية [20] :

١ - الفسيولوجيون عام ١٩٥٦م بواسطة ميلتزر Meltzer .

٢ - علماء النفس عام ١٩٥٧م بواسطة كلارك Clark .

٣ - علماء الاجتماع عام ١٩٥٩م بواسطة إكسلسون Axelson ، وعام ١٩٦٢م بواسطة باتيز Bates .

٤ - علماء الزراعة عام ١٩٦٠م بواسطة وزارة الزراعة الأمريكية USDA .

٥ - الباحثون الطبيون عام ١٩٦٠م بواسطة بن - دافيد Ben - David .

٦ - العلماء المتخصصون في دراسات المرأة عام ١٩٦٤م

بواسطة برنارد Bernard .

٧ - البيولوجيون وعلماء السياسة عام ١٩٦٥م بواسطة Crane .

٨ - الأخصائيون النفسيون عام ١٩٦٦م بواسطة كل من : طوماسون Tomasson ، ستانلي Stanley .

٩ - الحاصلون على جائزة نوبل عام ١٩٦٧م بواسطة زكرمان Zuckerman .

١٠- الفيزيائيون عام ١٩٧٠م بواسطة جاستون Gaston .

١١- الكيميائيون عام ١٩٧١م بواسطة هاجستروم Hagstrom .

ومن الطبيعي أن تتباين أنماط الإنتاجية بين التخصصات المختلفة بسبب تنوع الدوافع السلوكية، فعلى سبيل المثال، يؤدي ارتفاع متوسط عدد أعضاء هيئة التدريس في الفيزياء إلى ارتفاع أعداد مقالات الدوريات في المجال مقابل انخفاض متوسط عدد أعضاء هيئة التدريس في تخصص كتخصص اللغة الإنجليزية مما يؤدي إلى انخفاض عدد مقالات الدوريات في المجال (٢١).

عند مقارنة إنتاجية العلماء في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، يتضح أن إنتاجية الباحثين في مجال العلوم الطبيعية للمقالات تفوق إنتاجية الباحثين في كل من قطاعي العلوم الاجتماعية والإنسانيات، ويرجع ذلك إلى تأثر الباحثين في العلم الطبيعية بعدد أكثر تعقيداً من المتغيرات الأكاديمية . ويعني هذا أنه إذا تخيلنا انتقال الباحث في مجال العلوم الطبيعية للعمل في مجال الإنسانيات ، فمن المؤكد أن تنخفض إنتاجيته لتتناسب مع معدلات الإنتاجية السائدة في الإنسانيات، كما أننا إذا تصورنا انتقال الباحث نفسه للعمل في مجال العلوم الاجتماعية فسوف نتوقع منه معدل إنتاجية يتناسب مع معدلات الإنتاجية في العلوم الاجتماعية (٢٢) .

يكتسب نظام الاتصال الرسمي القائم على تبادل النتائج والاكتشافات البحثية التي يتوصل إليها أعضاء هيئة التدريس من خلال الإنتاج الفكري الوثائقي أهمية قصوى ترجع إلى قدرته على تحقيق الميزات التالية (٢٣) (٢٤) :

١ - إنتاج المعرفة الجديدة .

٢ - إماطة اللثام عن تطبيقات حديثة لمعرفة قديمة .

٣ - إكساب الجامعة كمؤسسة والباحثين كأفراد مكانة علمية بارزة .

٤ - جذب أعضاء هيئة التدريس الطموحين، وطلاب الدراسات العليا المتفوقين .

٥ - تحسين مستوى التدريس عن طريق استثمار المعرفة الجديدة التي يتم التوصل إليها .

٦ - تطوير أعضاء هيئة التدريس فكرياً ومهنياً .

٧ - الإسهام في دعم ميزانية الجامعات بموارد مالية إضافية .

علاوة على ذلك، ترشد الدراسات المقارنة للإنتاجية لأعضاء هيئة التدريس بكليات ومدارس المكتبات وعلم المعلومات طلاب الدراسات العليا الذين يرغبون في التعرف إلى أفضل الكليات والأقسام العلمية في تخصصهم ، بالإضافة إلى أن هذه الدراسات تتيح المعلومات التي تساعد شباب الأكاديميين الباحثين عن وظائف بالأقسام ذات الثقل العلمي في التخصص، كما أنها تقدم إطاراً عاماً للمناخ الفكري المصاحب للنمو المهني (٢٥)، وقبل ذلك كله، تقدم الدراسات عن الإنتاج الفكري في تخصص ما تحليلاً للكيفية التي تراكم بها رصيد هذا الإنتاج الفكري عن طريق الإجابة عن السؤال ثلاثي الأبعاد : من نشر ماذا وأين نشره ؟

٢ / مؤشرات الإنتاجية العلمية :

مما لا شك فيه أن الإنتاجية العلمية نشاط غير مرئي

وعملية إبداعية غير محسوسة، غير أننا نستدل على وجودها من خلال المؤشرات التالية :

١/٢ – الإنتاج الفكري ، كماً وكيفاً :

تؤكد العديد من الدراسات والبحوث في كافة التخصصات المعنية بدراسة النشاط العلمي على أن المحك الرئيسي للإنتاجية العلمية يتمثل في رصيد الإنتاج الفكري الذي ينشره الباحث أو العالم في شتى صوره المختلفة وأشكاله المتنوعة من كتب، ومقالات، وبحوث ودراسات، وأوراق عمل المؤتمرات ، وتقارير فنية ، وبراءات اختراع، ومن ثم كان ذلك مدعاة لظهور دراسات متعددة تتولى تحليل ودراسة الإنتاج الفكري موضوع الظاهرة الذي يعتمد بدوره على تجميع مجموعات الوثائق التي تجسد المجال المعرفي المُراد فحصه ودراسته وتحليله، وذلك للخروج بمؤشرات تساعد على استخلاص هذا الإنتاج وتفسيره على ضوء البيانات الإحصائية المتعلقة به ، للقيام بهذه المهمة، يجب أن يتوافر لدى الباحث كم كاف من أوعية المعلومات، والبيانات الببليوجرافية المتكاملة لإجراء الدراسة بطريقة سليمة .

وقد أشارت هذه الدراسات إلى أن حجم هذا الإنتاج يدلل على مكانة العالم العلمية، ومن ثم يمكن أن يشير إلى مكانة أو مستوى الوحدة أو القسم العلمي : بيد أن هذا المحك أثار جدلاً شديداً بشأن قضيتين هما : طبيعة العلاقة بين الإنتاج الفكري ونوعيته ، ومعايير النشر العلمي ومدى تدخل العوامل غير الموضوعية في هذا النشر . كما أن هذا الاتجاه التقليدي الذي يعتمد على إحصاء الإنتاج الفكري المتخصص في المكتبات وعلم المعلومات المنشور في أدوات الضبط الببليوجرافي ، إنما يعتمد على وجهة النظر التي يتبناها القائمون على الدراسة من حيث المعايير التي يصوغونها لتحديد ماهية المواد البحثية التي توضع في الاعتبار وتلك التي لا ينبغي أن تتضمنها الدراسة .

٢/٢ – التقدير والاعتراف العلمي :

يوضح بيلز Pelz أن الدافعية لإنجاز العمل العلمي تنبع من الرغبة في الحصول على التقدير والاعتراف العلمي Recognition بواسطة الأعضاء الآخرين العاملين في التخصص العلمي نفسه أو من الرغبة في تحقيق قدر من التقدم الذي من شأنه أن يسهم في تطوير المؤسسة التي يعمل بها العالم [٢٦] .

يرتبط التقدير العلمي بالمكانة الأكاديمية التي يحظى بها العالم، ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة هي :

- الإنجازات التي يحققها العالم .
- عمل العالم بإحدى الجامعات الأساسية (الكبيرة) يؤهل إنتاجه العلمي لأن يحظى بالتقدير من جانب زملاء التخصص.
- تواصل العالم مع زملائه خارج الجامعة فيما تعرف بالجامعة الاعتبارية [٢٧]، يرفع من مستوى إنتاجيته ومن ثم دعم الاعتراف العلمي به [٢٨] .

يؤكد البعض على أن التقدير العلمي يرتبط بمدى الاستمرارية في البحث بغض النظر عن مكانة الباحث العلمية ؛ إلا أن هذه العلاقة تتأثر بالدور الذي تلعبه المؤسسة التي ينتمي إليها ذلك الباحث بحيث تتفاوت هذه العلاقة بين العمل في جامعات أساسية عريقة وأخرى صغيرة ؛ ذلك أن الاعتراف العلمي بالباحثين والعلماء لا يتسنى سوى من خلال إبراز قدرتهم على تزويد البشرية بالمعرفة الجديدة من خلال إجراء البحوث .

يتأثر التقدير العلمي بمستوى المؤسسة الأكاديمية التي ينتمي إليها العالِم من ناحية ، والإنتاجية العلمية من ناحية أخرى، وتتشكل دافعية العلماء والباحثين في الجامعات الأساسية والصغيرة على حدٍ سواء من خلال التفاعل بين هذه المتغيرات الثلاثة . وتتباين درجة تأثير المتغيرات الثلاثة : الإنتاجية العلمية ، الانتماء الأكاديمي،

المكانة العلمية على فرص التقدير العلمي التي يحظى بها العالم أو الباحث ، فعلى سبيل المثال ، يتيح انتماء العالِم إلى إحدى الجامعات الأساسية فرصاً أقوى للحصول على تقدير علمي أفضل من الإنتاجية العلمية أو المكانة المتميزة التي يحظى بها بسبب ما توفره هذه الجامعات من شبكات قوية تتيح التواصل بين العلماء البارزين في التخصص نفسه (٢٩) .

يشير التقدير العلمي عند البعض إلى عدد الجوائز الشرفية التي يحصل عليها الفرد باعتبارها أساساً لتقدير الآخرين واحترامهم، وتبدأ هذه الجوائز الشرفية بالجوائز التي يحصل عليها الباحث من معهد أو مؤسسة غير التي تخرج منها أو التي يعمل فيها، وتنتهي بجائزة نوبل أو ما في مستواها . وفي واقع الأمر ، إن الحصول على مثل هذه الجوائز إنما يأتي كنتيجة طبيعية للريادة في البحث والنشر، ويدعم ذلك النتائج التي توصل إليها زكرمان Zuckerman في تناوله للحائزين على جائزة نوبل عام ١٩٦٧م (٣٠) ، حيث يؤكد على أن أوجه التكريم المختلفة تعكس ريادة من لهم قصب السبق في ممارسة نشاطي البحث والنشر عند مقارنة الحاصلين على هذه الجوائز بالعلماء الآخرين العاملين في المجال نفسه . وإلى جوانب الجوائز الشرفية هناك العضوية الشرفية في بعض الجمعيات العلمية ورئاسة مؤسسات مهنية وطنية ... إلخ ، ثم يلي هذا المستوى من التقدير منح ما بعد الدكتوراه والزمالات، فهذه تمثل نوعاً من التقدير للعالم والإنتاجية، لذا فهي مؤشر على ارتفاع هذه الإنتاجية والرضا عن مستواها .

٢/٢ مؤشرات أخرى :

لا تقتصر مؤشرات الإنتاجية على المؤشرين السابقين وإنما تضم مؤشرات أخرى . ولعل من أهم هذه المؤشرات براءات الاختراع التي تُعد من وجهة نظر عدد من العلماء مظهراً قوياً للإنتاجية باعتبارها تمثل سجلاً للابتكارات المجدية، كذا عضوية الجمعيات المهنية التي تُعد بمثابة منتديات علمية أو جامعات اعتبارية تتعهد بنشر إنتاجهم العلمي ، وتعتبر الدعوة لحضور المؤتمرات العلمية مؤشراً أساسياً في التعرف إلى إنتاجية العالِم بما تمثله من إمكانية للحوار العلمي الجاد الذي هو الضلع الثالث في مثلث البحث العلمي : الملاحظة - التجربة - الحوار ، إلى جانب التدريس بالجامعات الأجنبية وتحكيم البحوث العلمية بها، وكذلك تحكيم المقالات في الدوريات العلمية أو عضوية مجلس تحريرها (٣١) .

كما يُعد الدعم المالي والمنح التمويلية المعضدة للنشاط البحثي من أهم المؤشرات الدالة على ارتفاع معدلات الإنتاجية، ومن ثم فإن العلماء والباحثين الذين تحظى مشروعاتهم البحثية بتمويل مادي مناسب عادة ما يتأتى ذلك من المصداقية التي يلقونها ، والتقدير العلمي الذين يتمتعون به بين أقرانهم في التخصص العلمي والمهني (٣٢) .

٣ / طرق قياس الإنتاجية العلمية :

تتعدد طرق وأساليب قياس مؤشرات الإنتاجية العلمية فيما تُعتبر الطرق الثلاثة التالية هي الأكثر شيوعاً :

١/٣ - أسلوب الإحصاء الكمي :

تستند هذه الأساليب الكمية إلى فرض مؤداه أن كم الإنتاج الفكري المنشور من كتب ومقالات وبحوث ودراسات وأوراق عمل المؤتمرات وتقارير فنية يرتبط بعلاقة إيجابية مع محتوى هذا الإنتاج الفكري ونوعيته أو كيفيته . بعبارة أخرى، تقيِّم هذه الأساليب إنتاجية الباحث أو العالم كما تتمثل في حجم إنتاجه الفكري المنشور ، باستخدام إحصائيات بسيطة أو معقدة للمؤلفات المنشورة .

باستقراء الإنتاج الفكري في موضوع الإنتاجية

العلمية لأعضاء هيئة التدريس بكليات المكتبات وعلم المعلومات ؛ يتبين أن هناك ثلاث طُرق تُستخدم في إحصاء مفردات هذه الإنتاجية وهي [٣٣] :

١/١/٣ أسلوب الرصيد الكامل Complete Credit:

يسعى هذا الأسلوب إلى منح المؤلف درجة كاملة عن كل عمل يؤلفه منفرداً أو بمشاركة آخرين بحيث تقوم استراتيجية قياس إنتاجية المؤلفين على استخدام الدرجة الصحيحة دون الكسر دائماً، يؤثر هذا المنحى على العدد الإجمالي للمواد المؤلفة بصورة تؤدي إلى زيادة العدد الإجمالي لإنتاجية الفرد والمؤسسة عن إجمالي الإنتاج الفكري المنشور فعلياً . وعلى الرغم من المآخذ التي تؤخذ على هذا المنحى بسبب ما يحدثه من زيادة في إجمالي إنتاجية المؤلف الذي يُعد أعمالاً عديدة بمشاركة الآخرين أو إنتاجية المؤسسة التي تشجع المنتسبين إليها على التأليف المشترك ؛ إلاّ أن هذا المنحى هو المقياس الوحيد القابل للتطبيق .

٢/١/٣ أسلوب الرصيد الحاسم Straight Credit :

يعتمد هذا المنحى على احتساب الإنتاج الفكري المشترك التأليف لصالح المؤلف الذي يرد ذكره أولاً على صفحة عنوان العمل، وقد أجمع الباحثون على قصور هذا الأسلوب لما فيه من إهدار واضح لجهود المشاركين في التأليف .

٣/١/٣ أسلوب الرصيد المضبوط Adjusted Credit :

يمنح هذا المقياس كل مشارك في تأليف العمل درجة تتناسب مع جهده المبذول وفقاً للنسبة ١ **على ن** ؛ حيث ن = عدد المؤلفين، وهذا الأسلوب هو أكثر الأساليب إثارة للمشكلات ، فعلى الرغم من أن العدد الإجمالي للإنتاجية يتطابق مع العدد الحقيقي للإنتاج الفكري المنشور ؛ إلاّ أن هذا النظام لا يتيح الفرصة للوقوف على سمات الإنتاجية العلمية لأسباب ثلاثة :

أولاً : أن النسبة ١ **على ن** لا تزيد من درجات الدقة بل على العكس تحد منها لأنها تحاول تقدير النسبة الفعلية لإسهام كل مؤلف بصورة تقريبية .

ثانياً: يثير هذا الأسلوب مشكلات عند تحليل البيانات لاستخدام الكسور العشرية للإنتاج الفكري الذي يتسم بالاستقلالية.

ثالثاً: يمد هذا الأسلوب ببيانات يَصعُب استخدامها في قياس ظاهرة الإنتاجية .

٢/٣ أسلوب إحصاء الاستشهادات :

يعتبر إحصاء الاستشهادات المرجعية معياراً أساسياً في قياس الإنتاجية العلمية ، ذلك أن هذا الأسلوب يعتمد على فرضية هامة مؤدّاها أن عدد الاستشهادات المرجعية يفيد في قياس تأثير العالم أو الباحث في المجال ، بالإضافة إلى أنه قد يفيد كمؤشر إلى مستوى الإسهام العلمي [٣٤] . يؤكد روبرت هايز Robert Hays على ذلك قائلاً: "يعتبر إحصاء الاستشهادات المرجعية من الأسس الدقيقة التي تستخدم في تقييم أعضاء هيئة التدريس وكذلك المدارس (الكليات) بسبب قدرته على قياس الاتجاهات العددية، وما يتمتع به من سهولة في التطبيق [٣٥] . تجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب يعتمد في المقام الأول على قواعد البيانات الضخمة مثل :

- كشاف الاستشهادات المرجعية في العلوم Science Citation Index (SCI) .
- كشاف الاستشهادات المرجعية في العلوم الاجتماعية Social Science Citation Index (SSCI).
- كشاف الاستشهادات المرجعية في الإنسانيات والفنون Arts & Humunities Citation Index (AHCI) .

يُعتبر جارفيلد Garfield هو أول من حاول ترتيب العلماء طبقياً وفقاً لعدد مرات الاستشهادات المرجعية

لأعمالهم عندما قام في عام ١٩٦٨م بسرد قائمة مكونة من ٥٠ عالماً ممن تحظى أعمالهم بالاستشهاد من جانب الآخرين مستخدماً في ذلك كشاف الاستشهادات المرجعية في العلوم Science Citation Data Base لعام ١٩٦٧م ، وتنبأ بأن بعض الذين سيحصلون على جائزة نوبل سيكونون من بين من ورد ذكرهم في هذه القائمة التي تضم الصفوة ، وبعد مرور عام، تحققت هذه النبوءة حيث رصد جيلمان M . Gellmann ستة ممن ورد ذكرهم في قائمة جارفيلد ، بينما رصد بارتون D . H . R . Barton ٤١ ممن ورد ذكرهم في هذه القائمة وقد نالوا شرف الحصول على جائزة نوبل في الفيزياء والكيمياء عام ١٩٦٩م[٣٦]. وفي هذا إشارة قوية إلى فعالية تحليل الاستشهادات المرجعية في تقييم العلماء والبحوث .

يكتنف استخدام الاستشهادات المرجعية أداة تقيس جودة البحوث العديد من المشكلات ؛ لقد وجدت سوزان بونزي Susan Bonzi من خلال دراستها لإحدى العينات العشوائية أن ٦٠٪ من المواد التي احتوى عليها كشاف الإنتاج الفكري في المكتبات Library Literature – على سبيل المثال – تخلو من قائمة مراجع، وفي دراسة أخرى وجدت كرستين كورتينك Christine Korytnyk أن نسبة المواد التي نُشرت في دوريات محكمة تشترط توثيق ما يُنشر بها وتضمنها هذا الكشاف لم تتعد ثلث المواد . من ناحية أخرى، وجد روبرت هايز Robert Hays أن معظم الاستشهادات للمؤلفين ذوي الإنتاجية الغزيرة في تخصصات المكتبات التي تم حصرها في كشاف الاستشهادات المرجعية في العلوم الاجتماعية ما هي إلاّ مراجعات لكتب Book Reviews . وتوضح دراسة أخرى أن نصف المراجع المستشهد بها في الدوريات البؤرية في تخصص المكتبات غير صالحة ولم تستخدم في تدعيم وجهات النظر[٣٧] .

عبر كل من هارتر وسرنبتش Harter and Serebinck عن رفضهما لمثل هذين الأسلوبين : الإحصاء الكمي لمفردات الإنتاج الفكري، وإحصاء الاستشهادات في خطاب وجهاه إلى مجلة المكتبات Library Journal ، وانصب اعتراضهما على أن كل وحدة تأليف لا تتساوى مع غيرها من الوحدات التي تصوغ نسيج الإنتاج الفكري ، وفي حقيقة الأمر، يبدو أن هذا صحيحاً إلى حد كبير ؛ بيد أنهما لم يقترحا كيف يمكن التمييز بين وحدات الإنتاج الفكري في ضوء القيمة العلمية لكل منها [٣٨].

٣/٣ لجان التحكيم العلمية أو الأكاديمية :

يحقق تقييم أعضاء هيئة التدريس بالجامعات هدفين أساسين : الأول : تطوير أداء أعضاء هيئة التدريس لتطوير ما يضطلعون به من أنشطة مثل التدريس والبحث والتفاعل مع الطلاب ، ومن ثم إيجاد عضو هيئة تدريس كفء قادر على القيام بهذه الأنشطة على الوجه الأكمل . الثاني : تحقيق هدف أساسي آخر يتعلق بعضو هيئة التدريس وهو الترقية من خلال التعليمات والأسس التي تعتمدها الجامعة . ولأن الترقية بالنسبة لعضو هيئة التدريس الذي يعمل في الجامعة تشكل لديه الحافز لرفع إنتاجيته وتحسين أدائه وزيادة تطوره المهني والأكاديمي مما ينعكس على الجامعة التي يعمل بها ؛ يعتمد تقييم عضو هيئة التدريس بغرض الترقية على مقدار ما ينفذه من بحوث علمية ؛ حيث يعتبر البحث العلمي في الجامعات هو العنصر الأساسي بل وقد يكون الوحيد لتقويم عضو هيئة التدريس [٣٩] .

ومن هنا فقد اهتمت معظم الجامعات والكليات لاسيّما كليات المكتبات والمعلومات بموضوع الإنتاجية العلمية بوصفها المعيار الأساسي لترقية أعضاء هيئة التدريس بها ، الأمر الذي دفع هذه الجامعات إلى تشكيل اللجان العلمية التي من شأنها وضع الأسس والمعايير

اللازمة لتوفير الموضوعية والنزاهة والشمولية إلى درجة كبيرة . وعادة ما تتألف هذه اللجان الانتقائية من كبار علماء كل تخصص علمي، فيطلب إليهم تقدير قيمة الدراسات والبحوث في البناء المعرفي للتخصص، ويستند هذا الأسلوب إلى فرضية مؤداها أن العلماء والزملاء في تخصص ما هم أقرب وأدق في الحكم على زملائهم من أي عناصر من خارج التخصص .

ينص قانون تنظيم الجامعات المصرية ولائحة التنفيذ (مادة ٧٣) - على سبيل المثال - على أن تتولى لجان علمية دائمة فحص الإنتاج العلمي للمتقدمين لشغل وظائف الأساتذة والأساتذة المساعدين أو للحصول على ألقابها العلمية . ويصدر بتشكيل هذه اللجان، لمدة ثلاث سنوات ، قرار من وزير التعليم العالي بعد أخذ رأي مجالس الجامعات وموافقة المجلس الأعلى للجامعات . وتشكل لجان الفحص العلمية الدائمة لوظائف الأساتذة من بين أساتذة الجامعات الذين مضى عليهم في الأستاذية خمس سنوات على الأقل أو من المتخصصين من غيرهم . ويجوز عند الضرورة التجاوز عن شرط مدة الأستاذية في اللجان الأولى أو إدخال بعض قدامى الأساتذة المساعدين في اللجان الثانية . وتقدم كل لجنة تقريراً مفصلاً ومسبباً يقيِّم الإنتاج العلمي للمتقدمين وما إذا كان يؤهلهم لشغل الوظيفة أو اللقب العلمي مع ترتيبهم عند التعدد بحسب الأفضلية في الكفاءة العلمية وذلك بعد سماع ومناقشة التقارير الفردية للفاحصين (٤٠) .

على أنه يؤخذ على هذا الأسلوب أنه يعتمد على الزميل شريطة أن يكون خبيراً ، بالإضافة إلى أن العوامل الذاتية قد تؤثر بدرجة كبيرة في قرارات أعضاء اللجنة عند فحص إنتاجية المتقدمين .

يتضح مما سبق أن لكل أسلوب أو طريقة من الطرق المستخدمة في قياس الإنتاجية العلمية مزاياها ومثالبها ؛ الأمر الذي جعل البعض يؤكد على أننا لا نزال بحاجة إلى أسلوب قياس يميز بين الأشكال المختلفة لأوعية المعلومات من حيث أهميتها النسبية ، ذلك أن من أهم المشكلات التي تكتنف موضوع الإنتاجية العلمية والدراسات التي تتناولها في تخصص المكتبات والمعلومات تلك الممارسات الشائعة لاعتبار جميع أشكال الإنتاج الفكري في علوم المكتبات والمعلومات متساوية من حيث المحتوى البحثي أو القيمة العلمية، بحيث تُمنح المقالة التي يتعدى تعدادها عموداً أو صفحة في دورية ما العدد نفسه من النقاط التي تمنح لكتاب قام بتأليفه فرد واحد على الرغم من التباين الواضح في حجم الجهد المبذول في كل منهما، ففي الوقت الذي يستغرق تأليف المقالة بضع ساعات ؛ يستغرق تأليف الكتاب عاماً أو أكثر (٤١) .

ولعل هذا ما دفع مارسيا باتيز Marcia Bates إلى طرح السؤال التالي : هل إحصاء الإنتاج الفكري بصورة إجمالية كاف للوقوف على خصائص الإنتاجية أم أنه من الضروري رصد الأشكال المتنوعة للإنتاج الفكري كلٌ على حدة عند تقييم أداء أعضاء هيئة التدريس أو الكلية ؟ !

من ناحية أخرى ، تركز إليزابيث كريمر Elizabeth Creamer في دراستها عند تقييم إنتاجية أعضاء هيئة التدريس على أننا لا نزال بحاجة إلى ابتكار أساليب جيدة لقياس درجة تأثير أشكال متنوعة من وسائل الاتصال العلمي لاسيَّما تلك الأعمال غير المنشورة كأعمال المؤتمرات، والندوات ، والخطب، وأشكال الاتصال الإلكترونية (٤٢) .

وتقترح مارسيا باتيز أسلوباً مستحدثاً لقياس الإنتاجية العلمية في برامج المكتبات وعلم المعلومات يتألف من عناصر ثلاثة هي :

١ - الترتيب الطبقي Perception Ranking .

٢- معدل نشر الإنتاج الفكري Publication Rates .

٣ – معدل الاستشهاد المرجعي Citation Rates .

وتُستخدم هذه المقاييس الثلاثة معاً فيما يعرف "بالمقياس المُثلث Triangulation" أو "القياس متعدد الإجراءات Multiple Operationism لتحقيق التكامل ، ومن ثم الوصول إلى قياس موضوعي لظاهرة الإنتاجية على المستوى الفردي أو المؤسسي [٤٣] .

٤ / العوامل المؤثرة في الإنتاجية العلمية :

تتأثر الإنتاجية العلمية للعلماء والباحثين بمجموعة من العوامل والمتغيرات ، تختلف درجة تأثير كل عامل من هذه العوامل طبقاً لظروف كل تخصص أو مجال، ولعل هذا ما يبرر الاختلاف الواضح بين الدراسات والبحوث التي تتناول أثر العوامل والمتغيرات المتعددة على الإنتاجية العلمية . وفيما يلي عرض للعوامل المؤثرة في الإنتاجية العلمية ودرجة تأثير كل منها كما تناولتها الدراسات والبحوث المتخصصة في أدب الموضوع .

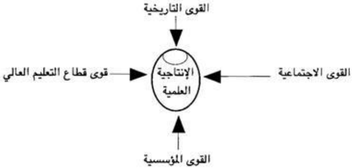
لقد أوضحت إحدى الدراسات عن إنتاجية أعضاء هيئة التدريس بالكليات أنها تتأثر بأربع قوى هي : العوامل التاريخية ، والعوامل الاجتماعية ، وعوامل تتعلق بأهداف صناعة التعليم العالي، والعوامل المؤسسية والتي تتفاعل بعضها مع بعض لتصوغ السياق الذي يمكن من خلاله الحكم على إنتاجية أعضاء هيئة التدريس [٤٤] .

١ – العوامل التاريخية : هي النموذج العقلي أو محصلة الأُطر الفكرية التي تدور بذهن عضو هيئة التدريس عن الدور الذي يجب أن يضطلع به، والتي تتشكل عبر فترات زمنية طويلة .

٢ – العوامل الاجتماعية : هي ذلك القطاع العريض من التحولات والاتجاهات الناتجة عن العمل داخل المجتمع، ولأن هذه التغيرات تحدث ببطء فهي غير مرئية . وعلى الرغم من أن البعض يرى أن "البرج العاجي" لا يتأثر بما يدور في المجتمع ؛ إلاّ أن التاريخ أثبت أن التغييرات الجوهرية لنظم التعليم العالي هي استجابة لما يطرأ على المجتمع من تغييرات .

٣ – أولويات صناعة التعليم العالي : هي تلك النماذج التي تشير إلى أولويات الأهداف التي تتصدر السياسة العامة لصناعة التعليم العالي، كما أن التعليم العالي يتأثر بدرجة كبيرة بإنجازات بعض القيادات دون غيرهم .

٤ – العوامل المؤسسية : هي عبارة عن الناتج النهائي لمجموعة الظروف المحلية أو البيئة الاجتماعية الاقتصادية السياسية الخاصة بالمؤسسة (الجامعة أو الكلية) . وبالرغم من أن هذه القوى غالباً ما تلعب الدور الأكثر أهمية في إرساء دعائم الإطار العام للإنتاجية داخل المؤسسة ؛ يتأثر هذا الدور الذي تلعبه هذه العوامل بما تواجهه المؤسسات من ضغوط لإحداث التطوير .



الشكل رقم (١)

العوامل التي تؤثر على الإنتاجية العلمية

يُعد النموذج Model النظري الذي صاغه مجل Megel [٤٥] من أكثر النماذج ذيوعاً وانتشاراً فيما يرتبط بالعوامل التي تؤثر في الإنتاجية العلمية لأعضاء هيئة التدريس في المجالات العلمية، وكما يوضح الشكل رقم (٢) : تتأثر الإنتاجية العلمية بالعوامل التالية :

١ - العوامل النفسية والفردية Psychological - Individual : وتضم الدافعية ، وموضوعات الاهتمام الفردية، والعمر ، وسنوات الخبرة ، والدرجة العلمية .

٢ - العوامل ذات الطابع التراكمي Cummulative Adrantage : وتشمل مكانة المؤسسة التي يحصل منها الباحث على درجة الدكتوراه، والتقويم ، والمصادر الأكاديمية ، والدعم المؤسسي .

٣ - العوامل المُدعِّمة Rainforcement : وتنطوي على تأثير زملاء العمل ، والإنتاجية المبكرة .



الشكل رقم (٢)

رؤية مجل Megel للعوامل المرتبطة بإنتاجية البحوث العلمية

صنف كل من وانر Wanner ، ولويس Lewis ، وجريجوريو Gregorio العوامل التي تؤثر في الإنتاجية العلمية إلى فئتين من العوامل [٤٦] : العوامل غير الأكاديمية والعوامل الأكاديمية . أما عن العوامل غير الأكاديمية فهي: النوع ، السلالة ، الحالة الاجتماعية، تعليم الأب ، تعليم الأم، سنوات الخبرة ، بينما تشتمل العوامل الأكاديمية على العوامل التالية : نمط النشر ، ساعات التدريس الأسبوعية، عدد المنح التي يحصل عليها الباحث ، الوقت المستغرق في الحصول على الدكتوراه ، الحصول على منح دراسية لما بعد الدكتوراه ، الترقية ، الدرجة العلمية ، رئاسة تحرير الدوريات المتخصصة ، ساعات البحث الأسبوعية ، المكانة العلمية والتقدير العلمي الذي تحظى بها المؤسسة التي ينتمي إليها الباحث أو العالم .

في واقع الأمر ، انتهت الدراسة التي أعدّها فرانك كليمنت Frank Clemente لاستقراء العوامل المؤثرة في إنتاجية البحوث إلى أن هناك متغيرات عديدة كان أكثرها تأثيراً المحددات التالية [٤٧] :

١ - النوع : تؤكد الدراسات بوجه عام على أن الإناث الحاصلات على درجة دكتوراه الفلسفة أقل إنتاجاً للبحوث المنشورة من نظرائهن الذكور، ويُرجع البعض ذلك إلى أن الإناث يُفضلنَ التدريس على البحث .

٢ - تاريخ الحصول على درجة الدكتوراه : ترى دراسات عديدة أن هناك علاقة إيجابية بين تاريخ الحصول على درجة الدكتوراه من ناحية وبين الإنتاجية من ناحية أخرى ، فالحاصلون على درجة دكتوراه الفلسفة منذ فترة زمنية طويلة هم الأكثر إنتاجية .

٣ - الفترة الزمنية بين الحصول على الدرجة الجامعية الأولى ودرجة الدكتوراه : تشير الدراسات في هذا الصدد إلى وجود علاقة سلبية بين الوقت المستغرق في الحصول على درجة الدكتوراه والإنتاجية .

٤ - تاريخ نشر أول بحث علمي : عند فحص الإنتاج الفكري في موضوع الإنتاجية ، نجد أن هناك ثمة اهتماماً بهذا العامل على الرغم من تناقض الآراء حول مدى تأثيره على الإنتاجية، فهناك من يرى أن العلماء الأكثر إنتاجاً في الوقت الحاضر هم أولئك الذين نشروا أعمالاً علمية منذ فترة طويلة بينما هناك من يرى العكس .

٥ - النشر قبل الحصول على درجة الدكتوراه : توضح الدراسات أن هناك علاقة إيجابية بين نشر البحوث قبل الحصول على درجة الدكتوراه وبين الإنتاجية .

٦ - التقدير العلمي الذي تحظى به المؤسسة التي حصل منها الباحث على درجة الدكتوراه : يعتمد قياس هذا العامل على وجود ترتيب طبقي للمدارس المانحة لدرجة الدكتوراه، ومن ثم فإن حصول الباحث على درجة الدكتوراه من إحدى المدارس التي تقع في مقدمة الجدول المصنف للمدارس المانحة لدرجة الدكتوراه مؤشر قوي يشير إلى معدلات إنتاجية مرتفعة .

يؤكد روبرت هايز Robert Hays [٤٨] على وجود ثلاثة عوامل لها أثر فاعل في صياغة الإطار العام للإنتاجية في مدارس وكليات المكتبات والمعلومات هذه العوامل هي :

١ - تاريخ التوظف : يرجع تأثير هذا العامل إلى الفترة الزمنية التي بدأ فيها عضو هيئة التدريس نشاط النشر، ومن ثم تأثيره في الآخرين من خلال استشهادهم بأعماله، بالإضافة إلى العلاقة الوثيقة بين الإنتاجية والحصول على الترقية .

٢ - هل تقدم المدرسة أو الكلية التي يعمل بها الباحث برنامجاً لدراسة الدكتوراه ؟ : يرجع تأثير هذا العامل إلى أن إقبال الطلاب على الالتحاق ببرامج الدراسات

العليا لاسيَّما برامج الدكتوراه بالمدرسة أو الجامعة يجذب أعضاء هيئة التدريس الراغبين في الاضطلاع بمهام البحث والنشر .

٣ – التخصص الموضوعي الدقيق : إن الاختلاف في طبيعة الموضوعات الدقيقة التي يتخصص فيها عضو هيئة التدريس يؤثر بطريقة ما على إنتاجيته .

من جهة أخرى ، خلصت ديانا كران Diana Crane (٤٩) في الدراسة التي قارنت فيها بين الإنتاجية العلمية والتقدير العلمي للعلماء في الجامعات الرئيسية والصغيرة إلى النتائج التالية :

١ – الباحثون بالجامعات العريقة أكثر إنتاجية من الباحثين في الجامعات الصغيرة .

٢ – مع أن العلماء الذين يضطلعون بالتدريس في الجامعات العريقة أكثر إنتاجية ممن يقومون بالتدريس في الجامعات الصغيرة ؛ إلاَّ أن الحصول على درجة الدكتوراه من أحد أقسام الدراسات العليا بالجامعات العريقة أو الرئيسية له أثر أقوى على إنتاجية العالم المستقبلية تفوق عمله بإحدى الجامعات الرئيسية .

٣ – إن الطلاب الذين يتلقون العلم على أيدي علماء بارزين أكثر إنتاجية ممن ينهلون العلم على أيدي غيرهم من العلماء .

٤ – إن مهارات الطالب الخاصة تلعب دوراً أكثر أهمية في تحديد إنتاجيته أكثر من انتمائه إلى مؤسسة أكاديمية ذات مكانة علمية رفيعة المستوى أو تلقيه العلم على يد عالم بارز في المجال . بعبارة أخرى ، تنتخب أقسام الدراسات العليا بالكليات المرموقة أفضل الطلاب ، ثم يلي ذلك انتخاب الصفوة من بين هؤلاء الطلاب المتميزين لتلقي التدريب على أيدي أبرز العلماء ، وبذلك ينتج الجيل التالي من العلماء الأكثر إنتاجية .

٥ – يرجع انخفاض إنتاجية الحاصلين على درجة الدكتوراه من أقسام الدراسات العليا بالجامعات الصغيرة إلى تلقيهم التدريب على يد علماء أقل مكانة وإنتاجية مما يجعلهم أقل إسهاماً في المجالات البحثية .

يوضح كاثلين جارلاند Kathleen Garland أن المتغيرات التي تؤثر بقوة في الإنتاجية العلمية لأعضاء هيئة التدريس بكليات ومدارس المكتبات والمعلومات ١٤ متغيراً مستقلاً هي (٥٠) :

١ – عدد أعضاء هيئة التدريس في القسم العلمي .

٢ – عدد الساعات المخصصة للتدريس أسبوعياً .

٣ – المقررات المختلفة التي يقوم عضو هيئة التدريس بتدريسها .

٤ – عدد الساعات التي يخصصها عضو هيئة التدريس لطلاب الدراسات العليا أسبوعياً .

٥ – عدد السنوات المنقضية بين الحصول على الدرجة الجامعية الأولى وأعلى درجة يتم الحصول عليها .

٦ – عدد سنوات الخبرة المهنية غير التدريس .

٧ – النوع .

٨ – منح التفرغ المُتاحة لعضو هيئة التدريس .

٩ – الحصول على درجة الدكتوراه .

١٠– من أي الكليات حصل عضو هيئة التدريس على درجة الدكتوراه .

١١– إلى أي مدى تحظى المؤسسة الأكاديمية التي حصل العضو منها على أعلى درجة علمية بتقدير المجتمع العلمي .

١٢– إلى أي مدى تحظى الجامعة التي درس عضو هيئة التدريس بإحدى برامجها بالتقدير العلمي .

١٣– إلى أي درجة تتمتع الكلية التي يعمل بها عضو هيئة التدريس بالتقدير العلمي .

١٤- الدرجة العلمية الحالية لعضو هيئة التدريس .

كما توصلت الدراسة المسحية التي أشرف عليها المجلس الوطني الأمريكي للتعليم إلى أن عوامل مثل : جودة برامج الدكتوراه ، الدرجة العلمية ، أعباء التدريس ، المنح والزيارات العلمية ، الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة - تتسم بضعف العلاقة بينها وبين إنتاجية البحوث في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيات إلاّ أن هذه الدراسة أبرزت عوامل أخرى تتصل بالإنتاجية منها على سبيل المثال، سنوات الخبرة اللاحقة للحصول على الدكتوراه، عدد الدوريات التي تُقرأ بشكل دوري، الوقت المخصص للبحث أسبوعياً، مستوى الوظائف الإدارية التي يتم شغلها (٥٠) .

يسرد كاثلين جارلاند Kathleen Garland نقاطاً أربع يرى أنها تزيد معدلات الإنتاجية العلمية في مدارس وكليات المكتبات والمعلومات هي (٥٢) :

١ - الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة .

٢ - التدريس بجامعة كبيرة (يزيد عدد طلابها عن ١٩٩٩٩) .

٣ - عدم القيام بأعمال إدارية .

٤ - القيام بتدريس ٤ أو ٥ مقررات دراسية متنوعة خلال العام الأكاديمي .

تُولي بعض الدراسات المصادر التي يعتمد عليها الباحثون والعلماء في استقاء الأفكار أهمية خاصة لما لها من دور مؤثر في إنتاجيتهم العلمية ، وتنقسم المصادر الأكثر تأثيراً في إنتاج البحوث المبتكرة إلى أربعة مصادر هي : الباحث نفسه ، الإنتاج الفكري ، زملاء المهنة المحليون ، الجامعة الاعتبارية . وفيما يلي نتناول كل مصدر على حدة :

١ - الباحث نفسه مصدراً للأفكار :

يمتلك كل عالِم بداخله مستودعاً للأفكار على حد قول جون لوك John Locke، ويتفق الكثيرون معه في ذلك . ويرى كثيرون - منهم على سبيل المثال ، ماكورث Mack-worth ، جيتزلز Getzels ، جنجك Jungk - أن مجموعة المهارات والعمليات الإبداعية التي يمتلكها العلماء والباحثون الأكثر إنتاجية للأفكار الجديدة هي قُوام ذلك المصدر الداخلي . يعبر كل من بيلز Pelz ، وأندراوس Andrews من خلال الدراسة التي أجرياها على أكثر من ألف باحث وعالم عن ذلك بقولهم : "إن العلماء الأكثر فعالية هم من يمتلكون مصادر داخلية قوية ..." ، وفي ذلك إشارة إلى أن الباحث نفسه هو أساس البحث العلمي المبتكر . إذا كان الباحث في أحيان كثيرة هو المصدر الأولي لأفكار بحوثه ؛ فهذا لا يمنع اعتماده على مصادر أخرى في مصادر لاحقة تدعم هذه الأفكار (٥٣) .

٢ - الإنتاج الفكري :

يعتبر الإنتاج الفكري أو ما يطلق عليه البعض أدبيات الموضوع هو المصدر البديل الذي يمد العلماء والباحثين بأفكار البحوث الجديدة ، وفي هذا الصدد يرى هانفورد Hanford أن الخطوة الأولى لتطوير الأفكار هي التعرف إلى ما أنجزه الآخرون ، ويعني بذلك ضرورة اطلاع الباحث على الأفكار التي ابتكرها الباحثون الآخرون ليس فقط في مجال التخصص لكن أيضاً في المجالات ذات الصلة . في الوقت ذاته يعتقد كل من إلدرفيلد El-derfield ، وسميث Smith ، وفان وازر Van Wazer من خلال تناولهم لنماذج مختلفة أن أهمية الإنتاج الفكري مصدراً للإمداد بالأفكار إنما يرجع إلى أن التطور المطرد في رصيد الملاحظات الأمبريقية يُسجل في ثنايا الإنتاج الفكري، ومن ثم يتحول ذلك الإنتاج الفكري إلى مصدر كاف للإمداد بالأسس اللازمة لإحراز مزيد من التقدم في المجال (٥٤) . وبالتالي فإن

الإنتاج الفكري يمكن أن يكون مصدراً يمد بالأفكار بطرق شتى :

- يمد بالمعلومات عن المشكلة موضوع الدراسة .

- يُعلم الباحث بالجوانب التي تم تغطيتها في تناول المشكلة .

يرى العديد من العلماء أن الإنتاج الفكري لا يجب أن يكون المصدر الأولي لأفكار البحوث لأن ذلك يعرقل تقدم العلم من خلال مقاومة النظريات القديمة للمبتكرة مما يتعارض مع منهجية الأسلوب العلمي ، ومع ذلك ينبغي النظر إلى الإنتاج الفكري على أنه باعث قوي لأفكار البحوث في بعض الظروف (٥٥) .

٣ - تبادل المعلومات بين العلماء (الجامعة الاعتبارية) :

يشير المصدر الثالث للإمداد بأفكار البحوث إلى مجموعة العلماء المتناظرين في الجامعات المختلفة في جميع أنحاء العالم، ويحدث ذلك غالباً في حالة عدم توافر من يشارك أحد العلماء اهتماماته من العلماء المحليين . وهكذا ؛ فإن العلماء والباحثين المبتكرين يؤسسون شبكة غير رسمية من زملاء التخصص يتراسلون فيما بينهم، ويتحاورون في الاجتماعات والمؤتمرات العلمية والمهنية التي تجمع بينهم حول أحدث النتائج التي يتوصلون إليها(٥٦). وبطبيعة الحال، قد ينتمي هؤلاء الباحثون والعلماء إلى الجامعات أو المعاهد البحثية أو أي مصدر تمويلي كالوكالات والمؤسسات الممولة للبحوث .

٤ - زملاء التخصص المحليون :

ما من شك في أن زملاء التخصص مصدر قوي يمد بأفكار البحوث التي ترفع من أداء الباحث ، ويعبر عن ذلك كل من بيلز Pelz ، وأندراوس Andrews بقولهما : "إن اهتمام الآخرين بما يضطلع به العالم دافع قوي يبعث على تطوير أفكاره" ، ويرى آخرون أن العلماء الأكثر إنتاجية هم من يتواصلون مع زملائهم أخذاً وعطاءً (٥٧) .

إن بيئة العمل وزملاء المهنة من أهم المحددات التي تؤثر على البحث والإنتاجية العلمية . تستند هذه الحقيقة إلى أن البيئة الاجتماعية تؤثر في اتجاهات الأفراد وأنشطتهم . فقد ثبت أنه إذا كان زملاء المهنة لفرد ما يحظون بتقدير علمي بناءً على تمرسهم في أنشطة البحث ؛ فإن ذلك يزيد من اهتمامات هذا الفرد بالبحث بصورة أفضل من عمله في بيئة أقل اهتماماً بالبحث . ويمكن تفسير ذلك بأن عوامل مثل : تبادل الخبرات البحثية ، والاهتمامات والحماس ، والنصح والمشورة من شأنها أن تحدث تغييراً اجتماعياً متبادلاً . تمثل هذه التغيرات العائد لعمل العالِم أو الباحث ، فعمل العالم أو الباحث في مثل هذه البيئات الباعثة على البحث ؛ يدفعه للإسهام بقوة في النشاط البحثي . من جهة أخرى ، تتجه عناصر الضغط في بيئات العمل التي لا يتبادل فيها أعضاؤها الخبرات والتدريبات البحثية لإخماد الاهتمامات البحثية للعالم أو الباحث .

كما أن بيئة العمل الدافعة للبحث تعطي مؤشراً على الثقل العلمي الذي يحظى به عضو هيئة التدريس والتي تمثل عاملاً هاماً عند التقدم للحصول على الترقية، فقد لوحظ أن انخفاض أعداد الحاصلين على درجة الدكتوراه من أعضاء هيئة التدريس بالكلية ؛ يعني اهتماماً متفائلاً بالبحث ، ومن ثم فرصاً ضعيفة للحصول على الجوائز أو الترقيات أو عضوية الجمعيات العلمية (٥٨) .

٥ / الإنتاجية العلمية وتقويم الأداء الأكاديمي :

لقد تزايد اهتمام الحكومات في الدول المتقدمة والنامية على حد سواء بتقديم الأنشطة التعليمية لما لها من قدرة فائقة على رفع فرص المنافسة في عصر العولمة، الأمر الذي أدى إلى ظهور مئات الدراسات والبحوث في

الموضوع . لم تكن مؤسسات التعليم العالي بما تنطوي عليه من وحدات أكاديمية (الكليات - المعاهد العليا - الأقسام العلمية) بمنأى عن هذا الاهتمام . ونظراً لأن القوى البشرية العاملة في هذه الوحدات الأكاديمية من أعضاء هيئة تدريس ومعاونين هي نواة هذه الوحدات وهي أيضاً المحركة للنشاط الأكاديمي ؛ فقد انصب جُل الاهتمام على تقييم وتقويم أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم .

يتضح للمُدقق والمُتتبع لتاريخ التعليم العالي أن الدور الذي اضطلع به عضو هيئة التدريس بالمؤسسات الأكاديمية مرَّ بثلاثة نماذج مختلفة ؛ هذه النماذج هي [٥٩] :

١ - نموذج رجل الدين The Clergy Model .

٢ - النموذج المهني The Professional Model .

٣ - نموذج الباحث The Reseach Model .

مهما يكن من أمر الدور الذي لعبه عضو هيئة التدريس في الماضي، فقد خضع هذا الدور إلى التقييم في كل مرحلة من المراحل التي مر بها، ومن الطبيعي أن تتفاوت أنظمة التقييم وتتباين ليس فقط بين كل مرحلة وأخرى، لكن أيضاً في المرحلة الواحدة . تتشابه نظم تقييم أعضاء هيئة التدريس مع اختلاف المؤسسات الأكاديمية في عدد من السمات والخصائص :

أولاً : تتطور معظم نظم التقييم ببطء خلال فترات زمنية طويلة :

تأتي التغييرات التي تطرأ على نظام التقييم كاستجابة لسلسلة من الإجراءات الخاصة بالتحكيم وليس تطبيقاً للسياسات التخطيطية ، فنادراً ما تقوم الكليات أو الجامعات بإجراء دراسات شاملة عن نظم التقييم التي تستخدمها بسبب الشعور العام بفعالية النظم القائمة .

ثانياً : تتسم نظم تقييم أعضاء هيئة التدريس بأنها مصدر انتقاد وعدم رضا من جانب هؤلاء الأعضاء :

توضح الدراسات أن أعضاء هيئة التدريس غالباً ما يُعبِّرون عن عدم رضاهم عن إجراءات التقييم المستخدمة في الترقية الأكاديمية . لا تحظى التقييمات لاسيما التقييمات لأغراض الترقية بدرجة عالية من الرضا من قبل أعضاء هيئة التدريس بسبب أهميتها وحساسيتها أيضاً . تختلف مستويات الرضا وفقاً لنوع المؤسسة حيث تصل أعلى درجاتها في المعاهد التي تستغرق الدراسة بها عامين بسبب تركيز معايير التقييم على أنشطة محدودة هي : التدريس ، والتفاعل مع الطلاب ، كما ترتفع معدلات رضا أعضاء هيئة التدريس بالمؤسسات الأكاديمية البحثية عن أنظمة التقييم المُتبعة بسبب وضوح الرؤية فيما يتعلق بالبحث والنشر، بينما تصل مستويات الرضا أدنى درجاتها في الجامعات الشاملة بسبب عدم وضوح المهام والرؤى [٦٠] .

كان الطلاب في بادئ الأمر هم من يقوم بعملية التقييم . كان يُنظر إلى هذه الطريقة على أنها من الطرق الفعَّالة في الحكم على مستوى نشاط التدريس، ومهارات إيصال المعلومات للطلاب وتوجيههم والتي تعد من المسوغات الوظيفية والعلمية للحصول على الترقية الأكاديمية . إلى جانب هذا الأسلوب ، ظهر أسلوب التقييم الذاتي إلا أن الدراسات المتكررة أثبتت أن معدل التقديرات التي يمنحها أعضاء هيئة التدريس لأنفسهم كان أعلى مما يحصل عليه هؤلاء الأعضاء من تقييم الطلاب لهم . في دراستين عن التقييم الذاتي في مؤسسات التعليم العالي ؛ أوضحت الأولى أن ٩٠٪ من أعضاء هيئة التدريس منحوا أنفسهم تقديراً متوسطاً أو ممتازاً، وفي الدراسة الأخرى وضع ٩٩٪ من أعضاء هيئة

التدريس أنفسهم في الفئتين المُشار إليهما مسبقاً (٦١) . من ناحية أخرى ، يُظهر تقييم الزملاء لنشاط التدريس في التخصص الواحد تفهم الزملاء لسلوكيات عضو هيئة التدريس بصورة تفوق تفهم الطلاب أو إدارة المؤسسة الأكاديمية .

حتى نهاية عام ١٩٧٩م، لم يكن هناك نظم تقييم شاملة أو موضوعية بحيث كانت التقييمات تعتمد على الانطباعات العشوائية . أما الآن فهناك اتجاه للتركيز على إيجاد نظم تقييم أكثر تعقيداً وموضوعية تجعل من نشاطي البحث والنشر المعيار الأساسي للتقييم . يبرز ذلك أن البحث هو أهم الوظائف الأساسية التي تقع على عاتق عضو هيئة التدريس بالمؤسسات الأكاديمية ، ويرجع ذلك لما للبحث من قدرة على الإضافة إلى رصيد المعرفة الأساسية في التخصص من خلال اكتشاف الباحثين النشطاء للحقائق الجديدة والمبتكرة التي ينطوي عليها إنتاجهم الفكري .

على الرغم من أهمية البحث في تقييم أداء أعضاء هيئة التدريس بالمؤسسات الأكاديمية ؛ إلا أن هناك تفاوتاً في درجات الاهتمام بالإنتاجية العلمية معياراً للتقييم في مقابل وظيفتي التدريس والتوجيه ، وخدمة المجتمع وتنمية البيئة . وفيما يلي يناقش الباحث أهمية نشاط البحث والنشر مقابل نشاطي التدريس ، وخدمة المجتمع .

١/٥ الإنتاجية العلمية والتدريس الأكاديمي :

يعتمد تقدم التخصصات الأكاديمية على وجود هيكل للمعرفة العلمية يستند إلى النظرية المبنية على أنشطة البحث المختلفة ومناهجه، والمهارات التطبيقية والممارسات العملية المشبَّعة بالأسس النظرية . إن النظام الأكاديمي الفعَّال والكُفء هو الذي يُولي كلا النشاطين العلميين ؛ التدريس والتوجيه، والبحث والنشر؛ قدراً متساوياً من الاهتمام . كما أن التركيز على نشاط دون آخر لن يكون مفيداً للأساتذة أو الطلاب أو المؤسسة الأكاديمية .

مع ذلك ، يختلف التركيز على كلا النشاطين وتحقيق التوازن بينهما من مؤسسة لأخرى، فعادة ما تُبدي الكليات العملية اهتماماً بالبحث يفوق ما توليه من اهتمام بالتدريس في الوقت الذي تبدي فيه الكليات النظرية اهتماماً كبيراً بالتدريس . من جهة أخرى، أوضحت الدراسات أن العديد من الكليات والمعاهد تكسب التدريس الأولوية عند التقييم إلا فيما يتعلق بأغراض الترقية الأكاديمية والتحكيم العلمي حيث تعتمد في المقام الأول على أنشطة البحث والنشر .

مما لا شك فيه أن التدريس هو المسئولية التي تحقق الهدف من الجامعة ، كما أنه المسئولية الأكثر استمراراً، كيف لا وهو الذي يتيح القدرة على بث نتائج البحوث والحقائق الجديدة، وإرساء قواعد الفكر العلمي والتفكير النقدي . بعبارة أخرى ، يُعد التدريس وسيلة عضو هيئة التدريس في نقل الحقائق والاتجاهات والأخلاق المهنية التي تعمل على تطوير المجتمع وتنميته (٦٢) . ورغم ذلك يظل التدريس بمنأى عن إكساب الجامعة التقدير العلمي المناسب، الأمر الذي جعل أعضاء هيئة التدريس في العديد من المؤسسات الأكاديمية ينظرون إلى البحث على أنه أفضل من التدريس فيما يتعلق بعملية التقييم، وقد يرجع ذلك إلى أن تقييم البحث أيسر من تقييم التدريس .

تنبع أهمية البحث من قدرة الباحثين على إنتاج بحوث ودراسات مادية ومرئية يمكن تقييمها وتحكيمها بواسطة أعضاء محايدين خارج الجامعة . وهكذا ، يكتسب هؤلاء الباحثون اعترافاً علمياً وتقديراً أكاديمياً ليس على المستوى الفردي فقط، ولكن أيضاً على مستوى

الجامعات التي ينتمون إليها متى لاقت بحوثهم استحسان المُحكمين . تتراكم مكانة الباحثين العلمية كأفراد لتصوغ في النهاية المكانة العلمية للمدرسة أو الكلية بشكل يدعم مركز الوحدة الأكاديمية لدى إدارة الجامعة ويزيد من استقلاليتها [٦٣] . ونتيجة لأن البحث هو الوسيلة التي تكسب عضو هيئة التدريس التقدير العلمي وليس التدريس؛ أصبح الباحثون هم القيمة التي تتنافس الجامعات المختلفة لاستقطابهم لما لهم من قدرة على تحقيق أهداف الجامعة وإشباع حاجاتها من منطلق أن التفوق في نشاط التدريس يرتبط بل ويعتمد على نشاط البحث .

لقد دفع ارتفاع العائد المادي لنشاط البحث على العائد المادي لنشاط التدريس أعضاء هيئة التدريس إلى الاهتمام بالبحث والنشر على حساب التدريس، وذلك للحصول على المركز العلمي الذي يعد المصدر الأساسي للحصول على عائد مادي مرتفع . فمع أن أعضاء هيئة التدريس يُعينون بالكليات والمعاهد لأداء وظيفة أساسية هي التدريس ؛ تتوقف الرواتب التي يتقاضونها على المكانة العلمية التي يحتلونها والتي تعتمد بدورها على البحث والنشر . وفي هذا الصدد ، تؤكد الدراسة التي توافرت عليها باترشيا ريلينغ Patricia Ruling على أن انخفاض الرواتب المخصصة لوظائف التدريس مقارنة برواتب الباحثين كان السبب الرئيسي وراء العزوف عن الالتحاق بوظائف التدريس [٦٤] .

يعكس اهتمام أعضاء هيئة التدريس بالإنتاجية العلمية ما أوضحته نتائج الدراسة التي أعدتها مؤسسة كارنيجي لتطوير التعليم The Carnegie Foundation for the Advancement of Teaching حيث توضح أن الطلاب، لاسيما أولئك الذين ينتمون للجامعات الأساسية ، غالبًا ما يعانون من إنفاق أعضاء هيئة التدريس أوقاتاً طويلة على البحث والنشر لتحقيق النجاح المنشود [٦٥] .

تأكيداً على تفوق نشاط البحث على نشاط التدريس، قررت لجنة "تحديد أولويات النشاط العلمي" في الولايات المتحدة الأمريكية أن البحث هو أهم عناصر صناعة التعليم العالي الأمريكي . يدعم ذلك أيضاً اعتقاد روبرت ما ينارد هيتشنز Robert Maynard Hutchins الذي يقضي بأن الجامعة قد لا تفقد مكانتها العلمية إذا لم تضطلع بوظيفة التدريس ؛ بيد أنها لن تصبح جامعة على الإطلاق إذ لم تقم بوظيفة البحث [٦٦] . إن البحث هو النشاط المحوري للمدرس الجامعي .

٢/٥ الإنتاجية العلمية وخدمة المجتمع :

من أهداف البحث العلمي خدمة البيئة والمجتمع بمعنى تقوية الروابط والمشاركة في مواجهة مشكلات هذا المجتمع، بحيث تحقق صلة وثيقة بين العلم وحياة السكان ومشكلاتهم وحاجاتهم وآمالهم، ويعني ذلك أن البحث العلمي بالجامعة يجب أن يهدف أساساً إلى تطوير المجتمع والنهوض به إلى مستوى تكنولوجي واقتصادي وصحي وثقافي واجتماعي أفضل، بمواجهة حاسمة لمشكلاته المختلفة حتى اليومية منها ، فإن الطاقة الكامنة في البحث العلمي لو أحسن استخدامها فإنها قادرة على إحداث ثورة وتغيير اجتماعي ملحوظ نحو التقدم والرفاهية، وهما هدفا أي خطط للتنمية سواء اجتماعية أو اقتصادية [٦٧] .

ظهرت في الآونة الأخيرة العديد من الكتابات التي تلقي الضوء على الخدمة العامة بوصفها أحد عناصر النشاط الأكاديمي، ولعل ذلك يعكس الاهتمام المتزايد للمؤسسات الأكاديمية بخدمة المجتمع وتنمية البيئة . لقد لوحظ أن هناك إقبالاً واضحاً من أعضاء هيئة التدريس بكليات ومدارس المكتبات والمعلومات على الإسهام في الخدمة العامة Public Service .

يُعد تقديم المشورة من الأنشطة التي يمارسها

أعضاء هيئة التدريس في سائر التخصصات الأكاديمية، ومع ذلك تتذيل المعايير المستخدمة في تقييم الوحدات الأكاديمية لأعضاء هيئة التدريس بل إن البعض يذهب إلى أنه لا ينبغي استخدام هذا النشاط في عملية التقييم الأكاديمي. في حقيقة الأمر، يُعتبر تقديم الخدمات الاستشارية أحد الامتيازات التي تتمتع بها المؤسسات الأكاديمية ولا يمكن لأعضاء هيئة التدريس ممارسة هذا النوع من النشاط إلا بعد موافقة المؤسسة التي ينتمون إليها، "فلا يجوز لأعضاء هيئة التدريس القيام بعمل من أعمال الخبرة أو إعطاء استشارة في موضوع معين إلا بترخيص من رئيس الجامعة بناء على اقتراح عميد الكلية" (٦٨). كما تنص المادة (١٠١) من قانون تنظيم الجامعات المصرية.

غالباً ما يأتي تقديم الخدمات المجتمعية في مرتبة تالية للتدريس والبحث في مدارس وكليات المكتبات والمعلومات. انتهى كنجزبري Kingsbury إلى أن الخدمة المجتمعية أو البيئة تأتي في المرتبة الرابعة بعد أنشطة: تدريس المقررات الدراسية، والبحث والنشر، والتفاعل مع الطلاب. يؤكد سنترا Centra على أن الخدمة العامة تأتي في المرتبة الثالثة والأخيرة في أغلب الدراسات التي تسوق المعايير التي تُستخدم في تقييم أعضاء هيئة التدريس، فقد خلص من إحدى دراساته حول الموضوع إلى أن ٢٠٪ فقط من رؤساء الأقسام العلمية يجعلون من خدمة المجتمع عاملاً حاسماً في تقييم أعضاء هيئة التدريس في الوقت الذي يرى فيه ٣٣٪ أنه عاملٌ ليس له أهمية تذكر (٦٩).

بمقارنة الكليات والمدارس التي تقدم برامج دراسية على مستوى الماجستير فقط في تخصص المكتبات والمعلومات، وتلك التي تقدم برامج دراسية للماجستير والدكتوراه معاً، وُجد أن هناك تبايناً حول مدى الاهتمام بخدمة المجتمع وتنمية البيئة، بحيث يفوق اهتمام عمداء ومديري الكليات والمدارس التي تقدم برامج دراسية على مستوى الماجستير بتقديم الخدمات المجتمعية اهتمام عمداء ومديري الكليات والمدارس التي تقدم برامج دراسية على مستوى الدكتوراه.

يري هيم Heim أنه بإمكان عضو هيئة التدريس إنجاز وظيفة خدمة المجتمع من خلال وظيفة البحث، حيث يمكن أن تتخذ وظيفة خدمة المجتمع شكلاً من أشكال تحويل المعرفة التي يتم التوصل إليها من خلال البحث؛ الأمر الذي يتطلب من عضو هيئة التدريس تحدي الأفكار التقليدية، ونقل المعرفة للبيئة المحيطة لتنمية المجتمع. الأكثر من ذلك، أن تحويل المعرفة والتوجه نحو إحداث التطوير قد يدفع أعضاء هيئة التدريس إلى نشر أعمال تخدم التخصص من خلال ممارسة الخدمات المجتمعية (٧٠).

مما سبق يتضح أن الوظائف الأساسية التي يضطلع بها أعضاء هيئة التدريس في المؤسسات الأكاديمية عامة ومدارس وكليات المكتبات والمعلومات خاصة والتي يتم تقييم معدلات أدائهم من خلالها، ثلاث وظائف هي: التدريس، والبحث، وخدمة المجتمع. عند مقارنة الوظائف الثلاث معاً فيما بينهم، نجد أن وظيفة البحث (الإنتاجية العلمية) تتفوق على الوظيفتين الأخريين؛ التدريس وخدمة المجتمع؛ هذا التفوق يرجع سببه إلى أن البحث هو الوظيفة التي تدعم نشاطي التدريس وخدمة المجتمع. إن قيام عضو هيئة التدريس بممارسة نشاط التدريس دون الاضطلاع بمهام البحث إنما يؤدي إلى عدم مسايرة التطورات الحديثة على جبهة البحث الساخنة ومن ثم انخفاض مستوى العملية التعليمية برمتها بما لها من أثر سلبي على مستوى الطلاب. كما أن القيام بوظيفة

خدمة المجتمع قد لا يؤتي ثماره بسبب ممارسة البحث بالإضافة إلى اكتساب مهارات تطبيق الأفكار والأساليب المتطورة .

مهما يكن من أمر، يتفوق نشاط البحث على نشاطي التدريس وخدمة المجتمع في كليات ومدارس المكتبات والمعلومات بعدد من الامتيازات منها :

١ – تتيح البحوث المنشورة فرصة أفضل للحصول على المنح التمويلية لإجراء مزيد من المشروعات البحثية على مستوى الأفراد والمؤسسات .

٢ – يسود الأوساط الأكاديمية اعتقاد يقضي بسهولة تقييم الإنتاجية العلمية مقارنة بنشاط التدريس .

٣ – يُعتقد – غالباً – بأن الباحثين المتميزين هم في حقيقة الأمر مدرسون متميزون [٧١] .

٤ – يُعد البحث بما له من قدرة على الإضافة إلى المعرفة في التخصص النشاط الأساسي للمؤسسات الأكاديمية.

الخلاصة :

ما زالت الإنتاجية العلمية بما يتمخض عنها من إنتاج فكري تمثل المعيار الأساسي الذي تستند إليه المؤسسات الأكاديمية عند تقييم الأداء الأكاديمي لأعضاء هيئة التدريس بصفة عامة وأعضاء هيئة التدريس بمدارس المكتبات والمعلومات خاصة ؛ وذلك بسبب اعتمادها على ثمرات فكرية مادية يسهل تقييمها وتحكيمها بصورة موضوعية بعيداً عن التأثر بالعوامل الذاتية .

تتفوق الإنتاجية العلمية على وظيفتي التدريس والتوجيه، وخدمة المجتمع وتنمية البيئة معياراً لتقييم أعضاء هيئة التدريس بسبب سهولة تقييمها وتحكيم نتائجها، وقدرتها على تطوير عضو هيئة التدريس علمياً ومهنياً ، كذلك تتيح الفرص للحصول على المنح التمويلية ، كما أن البحث بما له من قدرة على الإضافة إلى رصيد المعرفة البشرية ؛ يُعد النشاط الأساسي للمؤسسات الأكاديمية .

الهوامش

١ – وجيه عبدالرسول العلي . الإنتاجية : مفهومها ، قياسها، العوامل المؤثرة فيها . ص ١٦ .

2 - Heydinger, Richard B , Simsek, Hasan. An Agenda for Reshaping Faculty Productivity . P. 10 .

3 - Schwartz , Charles A . Research Productivity and Publication Output : An Inter disciplinary Analysis . P. 419 .

4 - Loc . Cit .

5 - Loc . Cit .

٦ – شعبان عبدالعزيز خليفة . دائرة المعارف العربية في علوم الكتب والمكتبات والمعلومات ، مج ٤، ص ٣٦٠ .

7 - Heydinger, Richard B , Simsek, Hasan : Op . Cit , P . 11 .

8 - Crane, Diana . Scientists at Major and Minor Universities : A Study of Productivity and Recognition . P . 701 .

9 - Budd , John M . Scholarly Productivity of U . S . LIS Faculty : An Update . P . 232 .

10- Bates, Marcia J . The Role of Publication type in The Evaluation of LIS Programs . P . 197 .

11- Boyce , Bert R . and Hendren, Carol . Authorship as a Measure of The Productivity of Schools of Library and Information Science . P . 252 .

12- Crane, Diana : Op. Cit , P . 714.

13- Garland, Kathleen. Gender Difference in Scholarly Publication Among Faculty in ALA Accredeted Library Schools. P. 163.

14- Schwartz , Charles A. : Op . Cit. , P . 416- 417 .

15- Allison, Paul D. and Stewart John A. Productivity Differences Among Scientists: Evidence for Accumulative Advantage. P. 596.

16- Coile , Russell C . Lotka's Frequency Distribution of Scientific Science . P . 366 .

17- Sen, B. K., Pandali, T. A. and Karanjai, Aruna. Ranking of Scientists: ANew Approach. P. 627.

18- Watson, Paula D. Production of Scholarly Articles by Acadamic Librarians and Library School Faculty . P. 334 .

19- Hayes, R.M. Citation Statistics as a Measure of Faculty Research Productivity . P. 152.

20- Clemente, Frank . Early Career Determinants of Research Productivity . P . 409.

21- Budd, John M. and Seavey , Charles A. Characteristics of Journal Aathorship by Academic Librarians . P . 465 .

22- Wanner, Richard A., Lewis, Lionel S . and Gregorio, David I . Research Productivity in Academia: A Comparative Study of the Sciences, Social Sciences and Human ities . P . 250 .

23- Willson, Pauline. Factors Effecting Research Productivity . p . 3 - 24 .

24- Moran, Barbara B . Factors Evaluation In Schools of Library and Information Science . P . 117 .

25- Korytnyk, Christine A. Comparison of The Publishing Patterns Between Men and Women Ph . D. s In Librarianship. P. 54 .

26- Crane, Diana : Op . Cit, P. 709 .

٢٧- هذا المصطلح ترجمة للمقابل الإنجليزي Invisible College، وقد يترجمه البعض إلى الجامعة الخفية . يشير هذا المصطلح إلى شبكة الاتصالات غير الرسمية التي تجمع بين العلماء المتخصصين في مجال موضوعي ما سواء داخل الجامعات التي يعملون بها أو خارجها .

28- Crane, Diana: Op. Cit, P . 712 - 713.

29- Crane, Diana: Op. Cit, P. 709 - 711.

30- Zuckerman, H . Nobel Laureates in Scince: Patterns of Productivity Collaboration, and Authorship . P. 391 - 402.

٣١- محيي الدين شعبان توق وضياء الدين زاهر . الإنتاجية العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعات الخليج العربي . ص ٣٤ .

32- Clemente, Frank and Sturgis, Richard B. Quality of Department of Doctoral Training and Research Productivity. P . 288 .

33- Pettigrew, Karen E. and Nicholls, Paul T. Publication Patterms of LIS Faculty from 1982 - 1992 : :Effects of Doctoral Programs . P . 143 - 144 .

34- Hays, R . M. : Op . Cit, P. 152 .

35- Hays, R . M. : Op . Cit, P. 171.

36- Sen, B . K. , Pandali, T. A . and Karanjai, Aruna: Op. Cit., P. 623.

37- Schwartz , Charles A : Op. Cit. , P . 415.

38- Boyce, Bert R. and Hendren , Carol : Op . Cit . , p . 251.

٣٩- محمد حميدان العبادي . مدى فاعلية نظام الترقية لأعضاء هيئة التدريس في جامعة اليرموك : دراسة تحليلية. ص ص ٣٢ - ٣٣ .

٤٠- جمهورية مصر العربية . قانون تنظيم الجامعات ولائحته التنفيذية وفقاً لآخر التعديلات . ص ٣٥ .

41- Bates, Marcia J. : Op. Cit. , P. 187 - 189.

42- Creamer, Elizabeth G. Assessing Faculty Publication Productivity: Issues of Equity. P.3.

43- Bates, Marcia J: Op. Cit., P. 195.

44- Heydinger, Richard B. , Simsek, Hasan: Op. Cit., P. 11 - 14 .

45- Ali Saad Al-Ali Al-Ghamdi . Factors Associated with Research and Publication Productivity of Library and Information Studies Facalty in Saudi - Arabian Universities . P. 10 - 11 .

46- Wanner, Richard A., Lewis, Lionel S. and Gregorio, David I., Op. Cit, P. 238 - 253 .

47- Clemente, Frank: Op. Cit., P. 409 - 419 .

48- Hayes, R. M: Op. Cit., P. 166-167.

49- Crae, Diana : Op. Cit., P. 712 - 713.

50- Garland, Kathleen. The Nature of Publications Authored by Libray and Information Science Faculty . P. 54.

51- Schwartz , Charles A. : Op.Cit., P. 417.

52- Garland, Kathleen and Rike, Galen : Scholarly Productivity of Faculty At ALA - Accredited Programs of Library and Information Science . P. 96 .

53- William F. Glueck and Lawrence R. Jauch. Sources of Research Ideas Among Productive Scholars : Implications for Administrators. P . 105 - 106.

54- Loc . Cit .

55-Barber, Bernard . Resistance by Scientists to Scientific Discovery. P. 596 - 602.

56- William F. Glueck and Lawrence R. Jauch : Op. Cit., P. 106.

57- William F. Glueck and Lawrence R. Jauch: Op. Cit., P. 106 - 107.

58- Willson, Pauline : Op. Cit. , P. 11.

59- Heydinger, Richard B. Simsek, Hasan : Op. Cit. , P. 15.

60- Moran, Barbara B. Evaluation of Faculty in Educational Exellence : Op. Cit. , P.208- 209.

61- Moran, Barbara B. Evaluation In School of Library and Infomation Science : Op. Cit., P. 115.

62- Heim, Kathleen M.The Changing Faculty Mandate. P. 582 .

63- Willson, Pauline: Op. Cit., P. 78.

64- Reeling, Patricia G. Doctorate Recipients in Other Disciplines. P. 327 .

65- Moran, Barbara B. Faculty Evaluation in Schools of Library and Information Science : Op. Cit. , P. 117.

66- Heim, Kathleen M : Op. Cit. , P. 581 - 582.

٦٧- محمد حلمي بلال . البحث العلمي في الجامعات وأهدافه ومستقبله . ص ٥٥ .

٦٨- جمهورية مصر العربية . قانون تنظيم الجامعات ولائحته التنفيذية وفقاً لآخر التعديلات . ص ٤٤ .

69- Moran, Barbara B. Faculty Evaluation in Schools of Library and Information Science : Op. Cit. , P. 117 - 118.

70- Garland, Kathleen. The Nature of Publication Authored by Library and Information Science Faculty : Op. Cit. , P. 50 .

71- Moran, Barbara B. Evaluation of Faculty in Schools of Library and Information Science: An Element in Educational Exellence : Op. Cit. , P. 212 .

المراجع

١ - جمهورية مصر العربية . **قانون تنظيم الجامعات ولائحته التنفيذية وفقاً لآخر التعديلات** .- ط ١٢ .- القاهرة : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٧م .

٢ - شعبان عبدالعزيز خليفة . **دائرة المعارف العربية في علوم الكتب والمكتبات والمعلومات** .- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٠م .- مج ٤ .

٣ - محمد حلمي بلال . **البحث العلمي في الجامعات وأهدافه ومستقبله** . في : مؤتمر القاهرة للدراسات العليا "الدراسات العليا وتحديات القرن الحادي والعشرين" ، ٢٣ - ٢٤ أبريل ١٩٩٦م .- القاهرة : جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م .

٤ - محمد حميدان العبادي . مدى فاعلية نظام الترقية لأعضاء هيئة التدريس في جامعة اليرموك: دراسة تحليلية .- **مجلة اتحاد الجامعات العربية** .- (كانون الثاني ١٩٩٧م) .- ص٢٠ - ٦٠ .

٥ - محيي الدين شعبان توق وضياء الدين زاهر . **الإنتاجية العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعات الخليج العربي** .- الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٨م .

٦ - وجيه عبدالرسول العلي . **الإنتاجية : مفهومها ، قياسها، العوامل المؤثرة فيها** .- بيروت : دار الطليعة، ١٩٨٣م .

7 - Allison , Paul D. and Stewart, John A. Productivity Differences Among Scientists : Evidence for Accummulative Advantage.- **American Sociological Review** .- Vol. 39 (August 1974) .- P. 596 - 606 .

8 - Barber , Bernard . Rasistance by Scientists to Scientifec Discovery.- **Science** .- 134 (Sept. 1961) .- P.596 - 602 .

9 - Bates , Marcia J . The Role of Publication Type in the Evaluation of LIS Programs .- **Library and Information Science Research** .- Vol . 20 , No. 2 (1998) .- P. 187 - 198 .

10- Boyce , Bert R . and Hendren, Carol. Authorship As A Measure of the Productivity of Schools of Library and Information Science .- **Journal of Education for Library and Information Science** .- Vol . 37, No. 3 (Summer 1996) .- P . 250 - 271 .

11-Budd, John M. Scholarly Productivity of U. S. LIS Faculty: An Update .- **Library Quarterly**.- Vol . 70, No . 2 (April 2000).- P.230 - 245 .

12- Budd, John M. and Seavey, Charles A. Chracteristics of Journal Authar ship by Academic Librarians .- **College & Research Libraries** .- 5L (Sept. 1991) .- P.463 - 470 .

13- Clement, Frank . Early Career Determinants of Research Productivity .- **American Journal of Sociology** .- Vol. 79 (Sept. 1973) .- P. 409 - 419 .

14- Clemente, Frank and Sturgis, Richard B . Quality of Department of Doctoral Trianing and Research Productivity .- **Sociology of Educatoin** .- Vol . 47 (Spring 1974) .- P. 287 - 299 .

15- Coil , Russell C. Lotka's Frequecy Distribution of Scientific Productivity.- **Journal of the American Society for Information Science**.- (Nov. 1977) .- P.366- 370.

16- Crane, Diana . Scientists at Major and Minor Universities : A Study of Productivity and Recognition .- **American Sociological Review** .- Vol . 30, No . 5 (Oct . 1965) .- P.699 - 714 .

17- Creamer, Elizabeth G. Assessing Faculty Publication Productivity: Issues of Equity.- http : / www . ed. gov / databases / ERIC Digosts /ed 420242 . html (Last Updated 1998) .

18- Garland, Kathleen. Gender Differences in Scholarly Productivity Among Faculty in Accredited

Library Schools .- **Libray & Information Science Research** .- Vol. 12, No . 2 (Apr - Jun. 1990) .- P. 155 - 166 .

19- Garland, Kathleen. The Nature of Publications Authored by Libray and Information Science Faculty.- **Libray and Information Science Research**.- Vol. 13, No. 1 (Jan - Mar. 1991) .- P. 49 - 60 .

20- Garland, Kathleen and Rike , Galen . Scholarly Productivity of Faculty At ALA- Accerdited Programs of Libray and Information Science .- **Journal of Education for Libray and Information Science**.- Vol. 28 (Fall 1987) .- P. 87 - 98.

21- Hayes, R. M . Citation Statistics As A Measure of Faculty Research Productivity.- **Journal** of **Education for Librarianship**.- 23 (Winter 1983) .- P 151 - 172 .

22- Heim, Kathleen M.The Changing Faculty Mandate.- **Library Trends**.- Vol. 34 (Spring 1986).- P. 581 - 606 .

23- Heydinger, Richard B , Simsek, Hasan . An Agenda for Reshaping Faculty Productivity.- Denver, Colo. : State Higher Education Excutive officers Association, 1992 (ED 356727) .

24- Korytnyk, Christine A. Comparison of The Publishing Patterns Between Men and Women Ph . D.s In Librarianship.- **Library Quarterly** .- Vol . 58, No. 1 (Winter 1988) .- P. 52 - 65 .

25- Moran, Barbara B. Evaluation of Faculty in Schools of Library and Informatiion Science : An Element in Educational Excellence.- **Journal of Education for Library and Information Science** .- Vol. 32, No . 3, 4 (Fall winter 1991) .- P. 207 - 215.

26- Moran, Barbara B. Evaluation of Faculty. Evaluation in Schools of Library and Informatiion Science In : Educational of Library and Information Science .- Vol . 60, Supplement 23 (1998) .

27- Pettigrew, Karen E. and Nicholls, Paul T. Publication Patterns of LIS Faculty from 1982 - 1992 : Effects of Doctoral Programs.- Library and Informatiion Science Rersearch .- 16 (1994) .- P . 139 - 159.

28- Reeling, Patricia G. Doctorate Recipients in Library Science: How they Compare with Doctorate Recipients in the Other Disciplines . - **Journal of Education for Library and Informatiion Science** .- Vol. 33, No. 4 (Fall 1992) .- P. 311 - 329.

29- Schwartz, Charles A . Research Productivity and Publication output: An Inter disciplinary Analysis.- **Colleg & Research Libraries** .- 52 (Sept . 1991) .-P 415- 424 .

30- Sen, B . K. , Pandali, T. A . and Karanjai, Aruna . Ranking of Scientists: A New Approach .- **Journal of Documentation** .- Vol . 54, No. 5 (Dec. 1998) .- P. 622 - 628.

31- Wanner, Richard A., Lewis, Lionel S . and Gregorio, David I . Research Productivity in Academia: A Comparative Study of the Sciences, Social Sciences and Human ities.- **Sociology of Education** .- 54 (Oct. 1981) .- P. 238 - 253 .

32- Watson, Paula D . Production of Scholarly Articles by Acadamic Librarians and Library School Faculty .- **Colleg & Research Libraries** .- Vol . 46, No. 4 (July 1985) P. 334 - 342.

33- Willson, Pauline . Factors Effecting Research Productivity .- **Journal of Education for Librarianship** .- Vol. 20, No. 1 (1979) .- P . 3 - 24 .

34- William F. Glueck and Lawrence R. Jauch . Sources of Research Ideas Among Productive Scholars : Implication for Administrators .- **Journal of Higher Education** .- Vol. XLVI, No. 1 (Jan - Feb 1975).- P. 105 - 106.

35- Zuckerman, H . Nobel Laureates in Scince: Patterns of Productivity Collaboration, and Author ship .- **American Sociological Review** .- 32 (June) .- P. 391 - 402.

وظيفة المكتبة في الجامعات الأفريقية [1]

لـ هـ. ك رازوركا

ترجمة

يوسف عيسى عبدالله

قسم المكتبات والمعلومات - كلية الآداب - جامعة أم درمان الإسلامية - السودان

مقدمة :

إن أهداف الجامعات تتمثل في المجالات الآتية : التعليم والتدريس والبحث ، وخدمة المجتمع الذي توجد فيه ، وفي المقابل نجد أن المكتبات الجامعية تستمد أهدافها من أهداف الجامعات التي تنتمي إليها ، وندرك بأن المكتبة الجامعية ، تساهم بصورة مباشرة في تحقيق أهداف الجامعة والتأثير في الوسط المحيط بها ، والتعليم الجامعي يعمل على غرس القيم الجامعية وتشجيع الطلاب ، وتفجير ملكاتهم الإبداعية ، وهنا يبرز دور المكتبة الجامعية والعاملين فيها في ترسيخ هذه الأسس ، وتعتبر المكتبة الجامعية محور العملية التعليمية في الجامعات (Wol Port, 1998) .

وهذه الدراسة تحاول التعرف إلى إسهام المكتبات الجامعية الأفريقية في تحقيق أهداف تلك الجامعات ، ودورها المحتمل في تطوير المجتمعات الأفريقية .

التطور التاريخي للمكتبات الجامعية الأفريقية :

استمدت المكتبات الجامعية الأفريقية أهدافها ووظائفها من أهداف ووظائف الجامعات في الدول الغربية (Ajayietal, 1996) . ومن أهداف المكتبات الجامعية الأفريقية : العمل على تنمية الموارد البشرية ، وإرساء دعائم التنمية الشاملة : وأن يحل النموذج الوطني محل المستعمر في مجالات الخدمة المدنية بعد نيل هذه الدول استقلالها (Ibid, 1996) واعتمدت الجامعات الأفريقية في مراحلها الأولى على الدعم المادي والمعنوي المقدم من الدول المُستعمرة .

وبناءً على ذلك نجد أن أهداف المكتبة الجامعية ، تتمثل في توفير خدمات المعلومات للأساتذة والطلاب والباحثين ، بصورة فعالة (Wol Port, 1998) .

وفي الوقت الراهن فإن المكتبات الجامعية في أفريقيا، تواجه العديد من التحديات في مجال استخدام تقنيات المعلومات ، وهذا بالضرورة يتطلب تحولاً في الإطار المعرفي للقائمين على أمر تلك المكتبات ، ووضع الحلول والمقترحات التي تساعدهم في الحصول على تلك التقنيات ، وتوفير مصادر المعلومات الإلكترونية مما يساهم كثيراً في بناء المكتبات الافتراضية ، والتحدي الكبير الذي يواجه المكتبات الجامعية الأفريقية ، هو كيفية التحول من استخدام مصادر المعلومات التقليدية إلى استخدام المصادر الحديثة .

وتعاني المكتبات الجامعية الأفريقية العديد من المعوقات في الجانب الإداري ويمكن إجمالها في الآتي :

١ - المدخلات، ونعني بها قلة القوى البشرية المؤهلة :

وضعف الميزانيات وغياب استخدام تقنيات المعلومات، وقصور التجهيزات المادية الأخرى مثل الإضاءة والتهوية وغيرها .

٢ – ضعف سياسة التطوير والتحديث في الجوانب الإدارية والفنية ، مثل التعليم الفردي والتدريب والخدمات المرجعية والوصول إلى الفهارس وغيرها .

٣ – تقويم الخدمات بناءً على مؤشرات التغذية المرتدة المنعكسة من قبل المستفيدين مما يساهم في تطوير تلك الخدمات .

وهذه المعوقات تؤثر سلباً على وظيفة المكتبة الجامعية في أفريقيا ولكن تستطيع هذه المكتبات تحسين خدماتها عن طريق جودة التدريب وتوفير المقتنيات واستخدام التقنيات الحديثة ، مما يسهل الوصول إلى تلك المجموعات ، ونجد أن بناء وتنمية المجموعات من الوظائف الأساسية للمكتبات الجامعية . ولكن بناء وتنمية المجموعات في المكتبات الجامعية الأفريقية يواجه العديد من المشكلات مثل التعطل والتقادم وعدم الاستخدام، وقد قدر المتخصصون في مجال المكتبات والمعلومات بأن (٩٠٪) من جملة التزويد في المكتبات الجامعية يتم عن طريق الشراء بواسطة العملات الأجنبية (ifiodn, 1990, Water, 1989) ونجد أن قلة الموارد المالية وتذبذب السياسات الاقتصادية على المستوى العالمي في العقدين الأخيرين أثرا سلباً على تبادل المطبوعات الأجنبية بين المكتبات الجامعية (Coombe, 1991) .

ونتيجة لذلك انخفضت أعداد المستفيدين من المكتبات الجامعية الأفريقية . واعتمدت هذه الجامعات كلية على العون الأجنبي في شكل منح وهبات ، ولكنه كان بصورة غير كافية وغير مؤثرة على المستفيدين والمناهج الدراسية بالجامعة .

دور ووظيفة المكتبة الجامعية في أفريقيا :

هناك العديد من الوظائف التي تؤديها المكتبات الجامعية في أفريقيا يمكن إجمالها فيما يلي :

١ – المساهمة في نشر الثقافة العالمية :

يلاحظ أن التدريس في الجامعات الأفريقية يعتمد اعتماداً مباشراً على المعرفة المنشورة عالمياً ، وهذا يوضح أن هذه المكتبات تساعد بطريقة أو بأخرى في نشر تلك الثقافة ، ومن هنا وجب على المكتبات الجامعية في أفريقيا، مواكبة التطورات الحديثة في مجال تقنية المعلومات ، واستخدام المصادر الإلكترونية والإنترنت ، وبالتالي قد يحدث تحول جزئي في وظيفة المكتبة الجامعية وتحولها إلى الشكل الإلكتروني ، وعندها تكون هذه المكتبات بوابات لقواعد البيانات ومدخلاً للمكتبة الافتراضية ، ويجب أن تعمل المكتبات الجامعية الأفريقية على تدريب الطلاب والأساتذة على استخدام التقنيات الحديثة وكيفية الوصول إلى مصادر المعلومات الإلكترونية . وهذا بالطبع لا يعني الاستغناء تماماً عن المكتبة التقليدية . بل يمكن استخدامها بصورة أوسع في خدمة المجتمع .

٢ – تطوير المجموعات وبناؤها :

وكما هو معلوم فإن المكتبات الجامعية تعدُّ مصدراً أساسياً للحصول على المعلومات ، وطريقة إدارة مجموعات المكتبة الجامعية تؤثر تأثيراً مباشراً على نوع الخدمة ، وتعتمد تلك المكتبات في تزويدها على حق الإيداع القانوني علاوة على الوسائل الأخرى مثل التبادل . وللمكتبات الجامعية دورها في الضبط البيليوجرافي للإنتاج الفكري المنشور على المستوى المحلي . وتوقف هذا النشاط لقلة الموارد المالية واختفاء مصادر المعلومات مثل أوراق المؤتمرات والبحوث ، وإتاحتها من خلال عمليات التكشيف والاستخلاص والترجمة وغيرها من العمليات الفنية التي تتم في المكتبات الجامعية وعدم الاهتمام بالإنتاج الفكري

الرمادي[٢] ، وغياب الضبط الوطني للمعلومات . وهنا يجب على المكتبات الأفريقية الاهتمام باقتناء الرسائل الجامعية والبحوث والترجمة وغيرها من العمليات الفنية ، في المكتبات الجامعية (Lor, 1994) وهذا الإنتاج الفكري الرمادي عند تنظيمه يمكن أن تساهم به المكتبات الجامعية الأفريقية ، في إثراء الفضاء الإلكتروني عبر شبكة الوب (Rasorka, 1984 - Lor 1994) (Web) .

إن تنظيم الإنتاج الفكري على المستوى المحلي هو السبيل الوحيد الذي يساعد على توفير العملات الصعبة ، والتي كانت تستغل في تطوير مجموعات الجامعات في أفريقيا ، ولكن يجب أن يتم ذلك على أساس اقتصادي مما يساعد على تطوير خدمات تلك المكتبات وأن تبذل المكتبات الجامعية في أفريقيا قصارى جهدها في جمع وتنظيم وبث مصادر المعلومات مثل الإحصاءات .

٣ - الخدمات التعليمية :

إن وظيف المكتبة الجامعية الأساسية ، هي التدريس والتعليم ، وهذه الوظيفة تتأثر بثقافة الجامعة ، والقيم السائدة فيها ، ونلاحظ في الجامعات الأفريقية غياب طرق التدريس التي تشجع على التعليم الذاتي المبني على استخدام مصادر المعلومات ، والتي تمكن الطلاب من التحليل الناقد والتفكير السديد ، واعتماد الطلاب على المحاضرات والمذكرات فقط ، وقد يعود ذلك إلى ضعف مجموعات المكتبات ، وعدم توفر الكتب الدراسية ، وقد تستخدم المذكرات التي تمنع الطلاب من استخدام المكتبة الجامعية ، ولكن أدخلت بعض التجارب الناجحة في إنتاج المذكرات الدراسية في شكل إلكتروني ، مما يؤدي إلى تطوير برامج النشر الجامعي في الجامعات الأفريقية ، وفي حالة غياب دور المكتبة الجامعية في العملية التعليمية ، فإن ذلك يؤثر سلباً على وظيفتها الأساسية ، ولكن باستخدام طرق التدريس الحديثة وغير المعتمدة على الحفظ والتلقين والاستظهار ، فإن ذلك سوف يدفع الطلاب إلى استخدام المكتبة الجامعية بصورة فعالة ، وأن يشجع الأساتذة طلابهم على استخدام المكتبة وتكليفهم بأعمال وواجبات يعتمد إعدادها على استخدام مصادر المعلومات بالمكتبة، وأن توضع لها درجات ضمن المجموع النهائي باعتبارها أعمال سنة (Manband & Roseue, 1996) .

٤ - الخدمات المكتبية المقدمة للطلاب :

هنالك عدة عوامل تؤثر على تقديم الخدمة المكتبية للطلاب في المكتبات الجامعية مثل المباني والمسافات المقطوعة في الوصول إلى المكتبة ومدى توفر سُبل المواصلات إضافة إلى معرفة الطلاب باستخدام المكتبة وإمكانية الوصول إلى المقتنيات الموجودة بها ونجد عموماً أن هنالك ضعفاً في أقسام المكتبات والمعلومات بالجامعات الأفريقية ، ذلك لقلة البنيات الأساسية مثل عدم توافر الكتب الدراسية في التخصص ، وقلة الموارد المالية ، وضعف القوى البشرية المؤهلة في المجال ، إضافة إلى النواحي الاقتصادية السياسية (Buchan etal. 1991) .

ونتيجة لتزايد أعداد الطلاب في الجامعات الأفريقية، وعدم مقدرة الحكومات الوطنية على تطوير الجامعات ، انعكس ذلك سلباً على المكتبات الجامعية ، وقصور توفير المدخلات الخاصة بها ومن أهمها ضعف نشر الكتاب الجامعي الأفريقي (Fajaubran, 1990) .

وإن على المكتبات الجامعية في الدول النامية ، ومن بينها الدول الأفريقية الاهتمام بتدريب المستفيدين ، على كيفية الوصول المقتنيات واستخدام مصادر المعلومات ، وتبرز هنا الحاجة الملحة إلى إدخال برامج تدريب المستفيدين على مستوى البكالوريوس ، وأن تسعى الجامعة كذلك إلى ربط التعليم الجامعي بقيمة

وأهمية المعلومات وكيفية الاستفادة منها في جميع مناحي الحياة اليومية .

المعوقات التي تواجه المكتبات الجامعية في أفريقيا:

تواجه المكتبات الجامعية الأفريقية العديد من المعوقات منها :

١ – ضعف الميزانيات وغياب الدعم الأكاديمي :

إن النشاطات البحثية التي تمارس في الجامعات تساعد على الإبداع وتنمية مهارة البحث لدى طلاب المرحلة الجامعية الأولى ، وغالباً ما تكون هذه الأنشطة بمعزل عن الاستخدام الأمثل للمكتبة الجامعية ، ومصادر المعلومات الموجودة فيها .

وإذا لم تجد مجموعات المكتبة الجامعية الدعم والتأييد الأكاديمي والمادي من قبل المستفيدين ، فإن ذلك سوف يؤدي إلى عدم تحسين صورة المكتبة ، وتقليل مصداقيتها لدى جمهور المستفيدين من خدماتها (Rosenberg 1997) كذلك تواجه المكتبات الجامعية الأفريقية قلة الموارد المالية ، ومشكلة المجموعات القديمة المتهالكة ، وهناك بعض المكتبيين يتمسكون بشدة بهذه المجموعات القديمة ، ويعدّونها نادرة ولا يقبلون باستبعادها، وضعف المجموعات يؤثر سلباً على الأداء الأكاديمي في الجامعة ، وقد تؤثر الأحوال السياسية على الميزانيات في الجامعات الأفريقية باعتبارها أنها شيء غير ضروري وأساسي ، وعلى الجامعة أن تعمل على توفير نسبة الـ(١٠٪) من ميزانيتها للمكتبة ويجب على المكتبات الأفريقية أن تعمل على توفير سبل ومصادر جديدة للموارد المالية ، وهذا يتفق مع المفهوم الحديث لتسويق خدمات المعلومات ، مما يؤدي إلى تحسين الخدمات بالمكتبات الجامعية الأفريقية .

٢ – ضعف القوى البشرية المؤهلة والمدربة :

يلاحظ أن المكتبات الجامعية الأفريقية ، تعاني نقصاً من مجالات التدريب والتأهيل ، لذا يجب الاهتمام بتوفير فرص التأهيل والتدريب لهذه القوى ومن أهمها برامج التعليم المستمر في مجال المكتبات والمعلومات ، وتعريفهم بالتقنيات الحديثة في المجال ، وأن يعرفوا دوماً بأنهم جزءٌ أساسي من العملية في الجامعة ، ويجب الربط بين الجانب النظري والتطبيقي عند تدريس المكتبات والمعلومات ، وأن يعمل الأساتذة في الجامعات الأفريقية على توجيه طلابهم إلى استخدام المكتبات الجامعية .

وأن تهتم المكتبات الجامعية الأفريقية بالتعريف بدور المكتبة وتوفير القوى المؤهلة وتدريب الطلاب والأساتذة أو إشراك المكتبيين المؤهلين في التدريس في أقسام المكتبات والمعلومات بتلك الجامعات .

المباني والبنيات التحتية اللازمة لتوفير خدمات المعلومات :

عند تصميم المكتبة الجامعية ، لا بد من مراعاة عدة عوامل مثل معدلات تزايد الطلاب ، والمناهج الدراسية والموارد المالية الحالية وغيرها .

وفي معظم الأحيان تعدُّ المكتبات الجامعية ، قاعات للدرس، ولكنها تعجز في مقابلة ازدياد أعداد الطلاب والإيفاء بتدريبهم على تقنيات المعلومات الحديثة مثل برامج التوثيق الآلي (CDS/isis) والأقراص المبرمجة (CD-Rom) ومن المشاكل كذلك قلة الموارد المالية اللازمة لتدريبهم على استخدام تلك التقنيات هنا ، بحيث تعمل المكتبات الجامعية الأفريقية على توفير البرمجيات الخاصة بالمكتبات ، من مواردها الذاتية أو العون الأجنبي . وعند الشروع في استخدام التقنيات الحديثة ، لا بد من مراعاة العوامل التعليمية وتحديد مراحل التطبيق والتنفيذ ، ومراحل التقويم ، والتي تنصب كلها في تحقيق هدف الجامعة .

والدعم الحكومي مهم جداً في جلب هذه التقنيات ، وذلك لأن استيرادها يعتمد على توفير العملات الصعبة . وتشير المصادر إلى أن الدعم الحكومي الأفريقي غير كاف لجلب تلك التقنيات ، ويجب أن لا تعتمد المكتبات الجامعية الأفريقية كلية على هذا الدعم ، بل أن تعمل على استقطاب العون الأجنبي .

مستقبل المكتبات الجامعية في أفريقيا:

نجد أن مستقبل المكتبات الجامعية في أفريقيا مرهون بمواجهة التحديات والتطورات في مجال تقنية المعلومات واستخدامها في أغراض البحث ، وخدمة المجتمع ، ومن أهم تلك التقنيات الشبكة العنكبوتية (WWW) والبريد الألكتروني والانتمار عن بعد والتعليم عن بعد . وهذه التقنيات وغيرها تعمل على ربط الجامعات بعضها مع بعض ، ومن هنا وجب توفير القوى المؤهلة القادرة على التفاعل مع هذه التقنيات .

وارتفعت معدلات استخدام الإنترنت في أفريقيا جنوب الصحراء في أربعة عشر قطراً في عام (١٩٩٥م) وكل أقطار القارة عدا قطرين في عام ١٩٩٦م (Jegede,1995) ، وهذا مؤشر يوضح تزايد استخدام الإنترنت في القارة الأفريقية . وعموماً يكمن مستقبل المكتبات الجامعية في أفريقيا في تطوير خدماتها مما يؤدي إلى سهولة الوصول إلى مصادر المعلومات الإلكترونية ، وترقية البنيات الأساسية لتقنية المعلومات والعمل على تدريب الأساتذة والطلاب على استخدامها ، وأن تقدم خدماتها بأقل تكلفة وبأعلى جودة .

وفي عام (١٩٩٧م) أجرى (Rosenberg) مسحاً شاملاً عن مدى استخدام تقنيات المعلومات في الجامعات الأفريقية ، ووجد أنها شائعة الاستخدام في القارة ومن ضمنها تقنيات تحسيب المكتبات مثل برامج التوثيق الآلي (CDS/isis) والإنترنت ، وهذه التقنيات تساعد على توفير مصادر المعلومات عن طريق العمليات الفنية مثل التكشيف والاستخلاص ، وقد يساهم ذلك في التعريف بالإنتاج الفكري المحلي داخل القارة .

وأصبح استخدام الأقراص (CD-Rom) شائعاً في المكتبات الجامعية الأفريقية في بناء قواعد البيانات ولكن يواجه هذا الاستخدام في بعض الأحيان بعض المشكلات مثل إمكانية تحديث المعلومات الموجودة بها وعلى الرغم من ملاءمة تكاليف تشغيل (CD-Rom) في بناء الأرشيفات وقواعد البيانات (Luijendijk, 1999) .

واستخدمت الأقراص المرنة في حالة صعوبة الحصول على الأقراص المدمجة في المكتبات الجامعية الأفريقية وهذه التقنيات الحديثة تساعد على تعزيز وظيفة المكتبة الأفريقية .

النشر الإلكتروني :

نتيجة لارتفاع تكاليف الاشتراك في الدوريات العلمية ، كما هو معروف وهي الأساس في إجراء البحوث والدراسات ، دخلت معظم المكتبات الجامعية في الاشتراك الإلكتروني في الدوريات الإلكترونية ، وتقوم العديد من مؤسسات المعلومات مثل (OCLC) و(WMI) و(HW) بإعداد مستخلصات للمقالات المنشورة في تلك الدوريات ، وإتاحتها في الشكل الإلكتروني ، وفي حالة طلب المقالات يتم الدفع للحصول عليها (Luijendijk, 1999) .

وتتم إتاحة عناوين هذه الدوريات بين العديد من المكتبات ، مما يسهل الاشتراك فيها ، وتقليل تكاليف الاشتراك الفردي ، ويمكن استثمار هذه الدوريات ومستخلصاتها في دعم وظيفة المكتبة الجامعية الأفريقية

في تطوير المجتمعات المحلية ، وهنالك بعض المحاولات للحصول على درجات الماجستير في الجامعات الأفريقية وهذا مؤشر واضح نحو تحول المكتبة الجامعية إلى استخدام الوسائط الإلكترونية . والاهتمام بها في مجالات البحوث والدراسات وبعض الجامعات تقوم بتوفير الامتحانات على الشكل الإلكتروني ، وتوافر المواد الدراسية على الخط المباشر (On-Line) عن طريق الشبكات وتوصيلها إلى جميع أرجاء الحرم الجامعي ، حتى يسهل على الطلاب الوصول إليها .

التعريف بمهارات استخدام الحصول على المعلومات:

يجب على العاملين في المكتبات الجامعية تدريب المستفيدين على استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية ، وأن تتكامل هذه المصادر مع المصادر التقليدية الأخرى في سبيل إنتاج المعرفة مما يجعل المستفيدين يعتمدون على أنفسهم وعلى مصادر المعلومات وتوفير (المعرفة بالمعلومات) يعتمد على الإمكانات المتاحة في تطوير خدمات المعلومات . وتعرف المعرفة (بالمعلومات) بأنها المقدرة على اقتناء وتقديم وإدارة واستخدام المعلومات في سلسلة من المصادر لحل المشكلات واتخاذ القرارات والبحث العلمي (Bruce & Camdy, 1995) .

ويبرز هنا اهتمام الحكومات الأفريقية بالمعلومات ، ودورها المتوقع في التنمية وهذا مرهون بأهمية دور الجامعة في توفير القوى البشرية المؤهلة والقادرة على استخدام مصادر المعلومات لأغراض التنمية (*) . ولا تقتصر وظيفة المكتبة الجامعية في توفير المعلومات للأساتذة والطلاب بل يجب أن تمتد لخدمة المواطنين خارج الجامعة ، وبالتالي نتوقع إحداث تنمية شاملة في القارة الأفريقية ، مبنية على توفير المعلومات لأغراض التخطيط التنموي .

المكتبة الجامعية ودورها في دعم وظيفة التدريب والبحث :

يعتمد الأساتذة والطلاب على المكتبة الجامعية في الحصول على مصادر المعلومات ، التي يستخدمونها في إعداد بحوثهم والتعرف إلى الموضوعات الجديدة في مجالات تخصصهم ، وأن تعمل المكتبات الجامعية الأفريقية على توفير نظم الإحاطة الجارية والبث الانتقائي للمعلومات ، وأن تعمل على توفير الوسائل المناسبة والتي تعينها في تقديم خدمة متميزة للمستفيدين ، وفقاً لحاجاتهم الأساسية .

وعن طريق تحليل المناهج الدراسية، وتوفير التقنيات الحديثة ، والكتب الدراسية والوصول إلى الإنترنت ، تستطيع ذلك المكتبة تعزيز وظيفتها ، ويجب تطوير المناهج الدراسية بواسطة لجان متخصصة حتى يسهم ذلك في تطوير وتعزيز استخدام المكتبة الجامعية ، وتغيير طرق التدريس التقليدية وتحويلها إلى الطرق الحديثة المبنية على استخدام مصادر المعلومات (Wolport, Ibid) .

الخاتمة :

تستمد المكتبات الجامعية الأفريقية وظيفتها من مؤسسات التعليم العالي التابعة لها ، وهذه المؤسسات تقوم بدورها بتوفير الموارد المالية والدعم الأكاديمي لتقديم خدمات المعلومات .

وفي مطلع القرن الحادي والعشرين عجزت الجامعات الأفريقية في أن تجعل مكتباتها قلب ومحور العملية ، وهذا التأثير السلبي نتج عن ضعف الدعم الأكاديمي ، وعدم إقبال المستفيدين على خدمات المكتبات الجامعية ، مما انعكس على وظيفة المكتبة الجامعية الأفريقية ، وعلى خدماتها .

واستخدام المعلومات وتحليلها نتج عنه تكامل

المعرفة ، وأهم من ذلك كله ثقافة الجامعة السائدة فيها والقيم الموجودة بها ، كل ذلك وغيره يؤثر على وظيفة المكتبة وعلى تكامل المعرفة ونتيجة لثورة المعلومات كان لا بد من تدريب وتأهيل المكتبيين واختصاصيي المعلومات في المكتبات الجامعية الأفريقية ، في سبيل توفير مصادر المعلومات للمستفيدين .

وتحقيق الوضع السابق (التأقلم مع ثورة المعلومات) يتطلب ذلك توفير المدخلات للتعليم والتدريس ، وتخصيص جزء من الميزانيات للمكتبة الجامعية ، ليس فقط لاستخدامها في تنظيم المعلومات وبثها ، ولكن استخدامها في تدريب المستفيدين ، ومساعدتهم في الوصول إلى مصادر المعلومات .

وخرجت الدراسة بعدد من التوصيات والمقترحات ، والتي ربما تساعد في تطوير وظيفة المكتبة الجامعية في أفريقيا ، بحسبانها إداة تعليمية وتفعيل دورها في تحقيق أهداف الجامعات الأفريقية في ظل عصر ثورة المعلومات.

التوصيات :

أولاً: في مجال المستفيدين من المكتبات الجامعية الأفريقية:

١ – ضرورة تدريب الطلاب وتزويدهم بالثقافة ، والقيم الجامعية وتعريفهم بدور المكتبة الجامعية في العملية التعليمية ، والعمل على إزالة العوائق التي قد تقف أمام تنفيذ هذه المهمة .

٢ – العمل على تدريب الطلاب على استخدام مصادر المعلومات ، مما يجعلهم يعتمدون على أنفسهم في العملية التعليمية .

٣ – يجب أن يتحلى هؤلاء الطلاب بقدر عالٍ من المسئولية في سبيل المحافظة على مجموعات وممتلكات المكتبات، مما يجعلهم أكثر تقديراً واحتراماً لها .

ثانياً : في جانب الهيكل التنظيمي للجامعة :

١ – وضع الخطط والإستراتيجيات التي تعمل على توضيح وظائف المكتبة الجامعية والوصف الوظيفي لها ، وتوفير الدعم الأكاديمي مما يجعلها أكثر فاعلية في أداء وظائفها المناطة بها بدرجة عالية من الجودة .

٢ – العمل على تحديد ميزانية مستقلة للمكتبة الجامعية لتشغيل المكتبة وخدماتها ، ويشمل ذلك المصادر الإلكترونية ، ومرتبات العاملين بها .

٣ – التوأمة بين الكليات والمكتبيين الأكاديميين والاستفادة منهم في تدريب الطلاب وتدريسهم ، والعمل على تدريبهم ورفع مستوياتهم، على توعية المجتمع الجامعي بأهمية المكتبة الجامعية ، وتقدير العاملين فيها .

ثالثاً : استدامة المعلومات والبنيات التحتية لتقنية الاتصالات :

١ – يجب على الحكومات الأفريقية تطوير مجتمع المعلومات الأفريقي من خلال توقيع اتفاقية مجتمع المعلومات الأفريقي (Aisi)[٣] لتوفير متطلبات تقنية المعلومات ، ودعمها في تطوير الموارد البشرية على المستوى الوطني .

٢ – تطوير تقنيات الاتصالات ، وتوضيح وظيفة المكتبة الجامعية الأفريقية في ظل هذه التقنيات الحديثة ، ووضع الخطط والإستراتيجيات لتدريب المستفيدين والعاملين في مجال المكتبات الجامعية الأفريقية .

رابعاً : إدارة المكتبة الجامعية الأفريقية :

١ – إعطاء لجان المكتبات الجامعية الصلاحيات الواسعة في اتخاذ القرارات وتمثيل الطلاب والطالبات فيها ، وأن تكون هذه اللجان مسئولة عن وضع السياسات وتطوير برامج التدريس والبحث في الجامعات الأفريقية .

٢ – أن توكل رئاسة اللجنة إلى نائب مدير الجامعة، أو غيره على أن يكون على الأقل في درجة بروفيسور لضمان الحياد وتطوير المكتبة والتعريف بها وسط الطلاب ، وضمان الدعم الأكاديمي والمادي لها .

٣ – تفعيل دور الطلاب وأعضاء هيئة التدريس في جعل المكتبة الجامعية قلب العملية ، ودعم برامج العلاقات العامة ، التي تساعد في التعريف بالمكتبة .

خامساً : المكتبيون واختصاصيو المعلومات :

١ – وضع الخطط والإستراتيجيات لتطوير أدائهم لمقابلة احتياجات ووظائف المكتبات الجامعية ، في ظل التغيرات الحادثة في مجال تقنية المعلومات .

٢ – إيجاد الميزانيات الفعلية في تقديم الخدمات وتوفير الموارد المالية للعاملين بها ، مما يسهم في تطوير المكتبات الجامعية الأفريقية .

٣ – العمل على تطوير المهارات عبر الوسائل الرسمية وغير الرسمية لكلٍ من العاملين والمستفيدين من تلك المكتبات .

التوصيات الختامية :

١ – التدريب والتدريس على استخدام المكتبات وتدريب العاملين فيها بغرض تكاملها ما بين البرامج التعليمية والتطبيق العملي .

٢ – توعية المستفيدين بأهمية المكتبات الجامعية ، واستخدامها بصورة فعالة عند إجراء بحوثهم .

٣ – توعية المستفيدين على الاستفادة من قواعد البيانات الإلكترونية والببليوجرافية في الحصول على المعلومات وتدريبهم على استخدام التقنيات الحديثة في مجال توصيل المعلومات .

الهوامش

١ – Roseroka, H. The Role Of University Libraries In African Universites.- AAUoccasional Paper No. 3.- Ghana, 1999.

٢ – ويضم الإنتاج الفكري شبه المنشور مثل التقارير والوثائق غير المنشورة بصورة رسمية وغير المتاحة ويصعب الحصول عليها وضبطها ضبطاً ببليوجرافياً (المترجم) .

٣ – هذه المبادرة تمخضت عن الندوة الإقليمية التي عقدت في أديس أبابا في عام ١٩٩٦م من أجل توضيح دور المعلوماتية في التنمية في أفريقيا (المترجم) .

المصادر الأجنبية

1. Wolpert, Ann (1998) Services to Remote Users: Marketing the library's role Library Trends Vol. 47. No. 1 Summer 1998. p.34.
2. Ajayi, J. F. Ade et. al (1996). The African Experience with Higher Education London: James Currey p. 67.
3. Ibid. p. 96 & 113.
4. Wolpert, (1998) op. cit. p.23.
5. Ifidon, S. E. (1990) Collection Development in African University Libraries challenges and Frustrations. Bloomington (Indiana) African Studies Program p. 19-21.
6. Nwafor, B. U. (1989) Fund-

ing Third World Libraries in Nothing to read? The criscs of document provision in the Third World Proceedings of the seventh conference of the International and Comparative Librarianship Group (ICLG) of the Library Association, London: ICLG (LAS 1990 P.9-12) .

7. Coombe Trevor, (1991) a consultation on Higher Education in Africa: a Report to the Ford Foundation and Rockerfeller Foundation. p. 4 and 52.

8. Lor, P. J. (1994) Bibliographic Control fo Material produced in Southern Africa : Some Insights gained from a survey of access to journals and conference proceedings in Proceedings of the Expert Seminar on Bibliographic Control in South Africa Pretoria: State Library, 1994.

9. Raseroka, H. K. (1986) relevant Library Services in Developing countries IFLA Journal Vol. 12 (2)p. 288-291.

10. JISC (1994) Joint Information Systems Committee: Exploiting Information Systems in Higher Education : an issues paper. p. 24-25.

11. Mbambo and Roselle, A. (1996) Integrating information literacy skills instruction into the curriculum, comarison of two approaches. Paper read at Loex of the West, Seattle, USA.

12. Buchan, Amanda et.al. (1991) Summary Report: African Book Sector Studies New York: The World Band: Africa Technical Department Education and Training Divisison.

13. Coombe, Trevor (1991) op.cit.

14. Fjallbrant, Nancy (1990) UNESCO Survey of Library Orientation and Instruction Programmes. Paris UNESCO 1990 p. 3-4 and 40.

15. Raseroka, H. K. (1989) Library Instruction at the University of Botswana Perspectives and Issues. The Bookmark (NY STATE LIBRARY) Vol. 46 (1) Fall 1987.

16. Rosenberg, D. (1997) University Libraries in Africa: a review of their current state and future potential. Vol. One London: International African Institute.

17. Jegede, O. J. (1995) "From talking Drums to electronic networking: Africa's snail mobile through cyberspace" FID News Bulletin 45 (7-8) p. 218-244.

18. Rosenberg, D. (1997) op.cit.

19. Field, Mark (1998) Special Libraries - Knwoledge Management. The Library Association Record Vol. 100 (2) February 1998, p. 71.

20. Bruce, Christine and Candy, Phil (1995) Developing Information Literate Graduates: prompts for good practice. Brisbane: Queensland University of Technology. (unpublished paper).

21. AISI: African Information Society Instiative.

22. Luijendijle, Wim (1999) Interconnectivity and the Hybrid Library, EBSCO Seminar, South Africa, May 1999.

البخلاء للجاحظ

تحقيق يوسف الصميلي

محمد عبدالرحمن شميله الأهدل
كلية التربية - جامعة أم القرى - الطائف

المقدمة :

كتاب البخلاء : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفَّى سنة (٢٥٥هـ) من الكتب الذائعة، التي يتعشقها أولو الأدب والفكاهة، ويحرص على اقتنائها أصحاب النزعة الفنية المفعمة بروح المرح، لذا تعددت طبعاته ، وتوافر على تحقيقه ثُلَّة من الكتّاب .

بيد أن طبعة جديدة منه وافتنا ترفل في ثوب قشيب، وتتبختر في ألوانها الجذابة بتحقيق يوسف الصميلي ، فاستهواني بريقها الأخاذ، وأغراني بها تحقيقها الجديد الجامع فيما ظننت ، فتلقّفت الكتاب فرحاً، واقتنيته حباً في العلم، ورغبة في التقاط الصالح منه، مع التفطن لمكامن النزعات الطائشة فيه وحين سامرت هذا الكتاب، وتأملت حواشيه المثقلة لكواهل الصفحات، ألفيت غثها طغى على سمينها ، وأغلاطها غلبت على صحيحها، فتذكرت ذلك المثل الساري « ما كلُّ بيضاء شحمة ولا كل سوداء فحمة» ، وانتابني العجب لما أفرزه العمى العصري من جهلٍ وطمع مادي ، واحترت من أين أبدأ تقويم المعوج ، وتصحيح الأغلاط التي تعجّ بها هذه الحواشي، ثم جريت على قول الأوائل : ما لا يدرك كله لا يترك جله ؟ وذلك خشية أن تطول ذيول هذه التعقبات .

لكني لم أختر التعقيب إلا على الأهم ، ولم أنتقد المحقق إلا في مواطن لا يسع عالماً السكوت على هناتها، لتعلقها بالمصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إضافة إلى تبيان أخطاء في تفسيره وتراجمه .

والجاحظ وإن كان في ميدان رواية السنة ليس بذاك ، بل هو كما قال ثعلب : ليس بثقة ولا مأمون ، زاد الذهبي[1] : وكان من أئمة البدع : فإنه قد حشا كتابه «البخلاء» بجملة وفيرة من الأحاديث النبوية وهو وإن لم يسندها إلى رواتها لكنها - والحق يقال - لا مطعن في معظمها ، ولا إنكار لأصولها، بل هي مبثوثة في كتب أهل السنة وشطر منها في الصحيحين والسنن والمسانيد، ولا غرو فهو عاصر النهضة الحديثية وعايش عصر التدوين ، وبحكم ثقافته الواسعة ، فقد أخذ من الحديث النبوي بقسط وطرف ، كما يلاحظ من تتبع مؤلفاته ، إلا أن ذلك عن طريق الوجادة فيما أحسب .

وقد اعتنت المكتبة العصرية ببيروت بهذه الطبعة الجديدة المؤرخة في عام ١٤٢٠هـ الطبعة الأولى، وهي محط تعقباتنا ، وبرز على غلافها هذا العنوان : «تقديم وضبط وتدقيق وشرح وفهرسة يوسف الصميلي» وهذا المحقق في الواقع لم أعرف عنه شيئاً أكثر من وجود اسمه على هذا الكتاب، والله أعلم بخوافي الأمور .

إلا أن حواشيه متخمة بالتخليط في الشرح وتخريج الأحاديث، وكما أسلفت فإن ما يهمني هو الإفصاح عن تخليطه في تخريجه، وليته ترك الأمر لأولي الاختصاص، فإن تخليطه هذا أدّى إلى ما يلي :

١ - نفي أحاديث نبوية هي في غاية الشهرة،

وأكثرها في الصحيحين ، بل منها ما هو متواتر . إذ دأب في تخريج هذه الأحاديث على كتابة هذه الجملة التي تنضح بركاكة التعبير وغلط المعنى إذ يقول : «غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

٢ – العبث البيِّن في التعليق على بعض الأحاديث، إذ يقول «حديث نبوي» ويخرس قلمه، وهذا كثير، وهذا التعليق لا معنى له بل هو عبث مزرٍ لأنه معلوم من قول المؤلف الذي يرفع الأحاديث النبوية وإن كان لا يذكر أسانيدها . فما أشبه فعل الصميلي بقول الأول :

كأننا والماء من حولنا

قوم جلوس حولهم ماء

٣ – أخطاء بينة تتصل بتراجم بعض الصحابة وغيرهم، وتخبطه في شرح نصوص من السنة أو كتاب الجاحظ مما أدى إلى تشويه النص المحقق .

وبناءً على هذا فإن التعقبات تتكون من قسمين :

الأول : أخطاء التخريج : وتشتمل على هذه الأنواع :

أ – ما قال فيه : «غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

والواقع بخلاف ذلك .

ب – ما قال فيه «أخرجه البخاري ومسلم» وليس فيهما .

جـ – ما قال فيه «حديث نبوي» وسكت – فأخرّجه .

د – ما أعرض عن تخريجه، فأخرّجه تتميماً للفائدة .

ولقد كلّفني هذا القسم عناءً مضاعفاً بسبب أنه لم يذكر طبعات المصادر التي اعتمد عليها ، فاضطررت إلى استعمال الوسائل العلمية كافة للوصول إلى اليقين ، وهذا في الحقيقة أقل ما يجب أن يقدمه المرء لخدمة السنة المشرفة .

الثاني : أخطاء عامة : وتشمل النقاط التالية :

أ – ضعف التأليف .

ب – قصور التراجم وأخطاؤها .

جـ – مخالفة القواعد النحوية والصّرفية .

د – تفاسير خاطئة .

وهذه التعقبات ما هي إلا نموذج يمثل ما يمر به تراثنا الأدبي في هذا العصر من عاصفة عاتية تزلزل قواعده ، ولّدها الجشع المادي، ورحّب بها من ليس أهلاً لحمل هذه الأمانة .

القسم الأول : أخطاء التخريج :

١ – قال الجاحظ (ص ١٤) :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً» .

لم يخرجه المحقق .

قلت : والحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً لكن بلفظ «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» .

وفي رواية له : «إن خليلي صلى الله عليه وسلم أوصاني «إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيتٍ من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» .

وأخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد [٢] .

وأخرجه أحمد [٣] عن جابر مرفوعاً بلفظ «إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق أو الماء فإنه أوسع أو أبلغ للجيران» .

وبذلك تعرف أن الحديث يدعو إلى الوصية بالجيران ويحث على الندى ولو باليسير ، بخلاف رواية الجاحظ فإنها تدعو إلى البخل المذموم، ولا غرابة فالجاحظ كما قال أهل العلم : «ليس بثقة ولا مأمون» «ومن أئمة البدع» [٤] .

٢ – قال الجاحظ (ص ٨٣) :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إبدأ بمن تعول» .

أهمل تخريجه المحقق .

قلت : هو جزء من حديث متفق عليه كما سيأتي .

قال (ص ٨٤) :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس» .

لم يخرجه المحقق .

قلت : هو حديث صحيح متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً كما سيأتي .

٣ – قال الجاحظ (ص ١٠٨) :

وقد قال النبي ﷺ : «من أدلُّه على الحسناء القتين» ؟

علق عليه المحقق بقوله :

«البخاري : (١٢١٣) ، مسلم : (٢٠٧٩) ، الترمذي (٨٩٧) أ هـ .

قلت : هذا من العجب العجاب ، راجعت المصادر المذكورة بهذه الأرقام المذكورة فلم أجد الحديث ، بل إن آخر حديث للإمام مسلم رقمه (٣٠٣٣) بترقيم الشيخ خليل الميس : ثم راجعت المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، فلم أظفر به وفهارس أخرى وهذا يعني أنه ليس في الصحيحين ولا في السنن بل ولا في المسند . وهذا تدليس من نوع جديد . نعم وجدته في لسان العرب [٥] : مادة قتن ولفظه : «وجاء في الحديث عن النبي ﷺ حين زوج ابنة نعيم النحّام قال : «من أدله على القتين» يعني القليلة الطعم ، وأين لسان العرب من الصحيحين ، وهذا تزوير خالص ، وتدليس مقيت، يعصف بالأمانة العلمية ، فهل من معتبر ؟

٤ – علّق على حديث «الصوم وجاء» بقوله (ص ١٠١) حديث نبوي .

قلت : لم يفدنا بشيء . والحديث متفق عليه [٦] من حديث ابن مسعود ولفظه : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

٥ – علق على حديث : «وأي داء أدوى من البخل» (ص١٤٩) بقوله : حديث نبوي .

٦ – وعلق على حديث : «اعقلها وتوكل» (ص ١٧٥) بقوله : «حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : هو حديث حسن [٧] : أخرجه الترمذي في سننه عن أنس مرفوعاً .

٧ – وأغربُ (ص ١٧٥) فعلق على قول الجاحظ : «ولم تجر الزبير» ؟ بقوله : «حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

فمتى يكف الجشعون عن التلاعب بالتراث، وتختفي هذه المهازل ؟

٨ – وقال الجاحظ (ص ١٤٨) :

قال رسول الله ﷺ – لوافدٍ كذب عنده كذبة وكان جواداً : – «لولا خصلة ومقك الله عليها لشردت بك من وافد قوم» .

قال الصميلي : أخرجه البخاري : (١٢١٣) .

قلت : لم أجده في البخاري : بل ولا في مسلم ولا في السنن الأربع ولا في المسند للإمام أحمد .

نعم، رواه الطبراني في الأوسط عن يحيى بن عباد الحنظلي أن وفداً قدموا على رسول الله ﷺ فسألهم فكذّبه بعضهم فقال : لولا سخاء فيك ومقك .... .

قال الهيثمي : في مجمع الزوائد [8] : «رواه الطبراني في الأوسط ، وكأن الصحابي سقط ، فإن الأصل سقيم ، وفيه جماعة لم أعرفهم» . ومقك أي أحبك الله عليه [9] . فالحديث فيه علل عدة ، منها إرساله ، وجهالة بعض من رواه ومن كان هذا حال سنده فكيف يعقل أن يكون من أحاديث الصحيح، ولو كان ورد نحوه من طريق أخرى مثلاً في البخاري لأشار إليها الحافظ الهيثمي ، ليقوي بها هذا الحديث .

وإلى الآن لم ينقض عجبي من هذه الأرقام التي يدلس بها على القارئ ويؤدي هذا إلى اعتقاد صحة الحديث كما هو الشأن هنا .

٩ – علق على حديث (ص ١٤٩) :

«لا تحصي فيُحْصَى عليك» بقوله «حديث نبوي، غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل هو مثبت فيهما فأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الزكاة : باب الحث على الإنفاق رقم (١٠٢٩) عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انفحي أو انضحي أو أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك» .

والبخاري : في الزكاة : باب التحريض على الصدقة رقم (١٤٣٣) وفي الهبة أيضاً ، أفيليق بالصميلي أن يلقي الكلام جزافاً ؟

١٠– قال (ص ١٥٢) معلقاً على حديث : «أنهاكم عن عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات» :

"أبو داود ؛ وأحمد" .

قلت : بل هو في الصحيحين بأتم مما ههنا عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً : «إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ومنعاً وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» .

أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب ما يكره من كثرة السؤال رقم (٧٢٩٢) وأخرجه أيضا في الرقاق والاستقراض والأدب . ومسلم في صحيحه كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل (١٢/٢/٦) من شرح صحيح مسلم .

١١– قال (ص ١٤٩) تعليقاً على حديث : «إن الله جواد يحب الجود» [10] : «حديث نبوي غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : لم يفدنا من هذا التعليق بشيء .

وهذا حديث أخرجه الترمذي من حديث سعد مرفوعاً «إن الله نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود ... الحديث وقال : «حديث غريب ، وخالد ابن إلياس يضعف» .

إلا أن له طريقاً أخرى أخرجها الدولابي في الكنى، فيتقوى الحديث بها ، ويتقوى أيضاً بشاهده المرسل أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن طلحة بن عبيدالله بن كريز قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ... الحديث .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس مرفوعاً ، إلا أن فيه نوح بن أبي مريم كذبوه .

وخلاصة القول : إن الحديث حسن كما في الصحيحة وجلباب المرأة المسلمة .

١٢– علق على حديث (ص ١٤٩) : «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» . فقال : جملته المعهودة : «حديث نبوي غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل أخرجه البزار في مسنده عن بلال وأبي هريرة، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير : عن ابن

مسعود مرفوعاً . وهو حديث صحيح [١١] .

١٣- وعلق على حديث : «لا تردوا السائل ولو بظلف محرق» . فقال : «حديث نبوي : البخاري (٥٣٢٥)، مسلم (١٤٣٧).

قلت : الأرقام مزورة والحديث ليس في الصحيحين، وإنما أخرجه مالك في الموطأ والنسائي : في الزكاة، باب رد السائل (٨١/٧) وأحمد (٧٠/٤)، (٣٥/٦)، (٣٨٢/٦)، (٣٨١/٥) . ولفظه عندهم «ردوا السائل ولو بظلف محرق» ، وحسنه السيوطي وصححه الألباني [١٢] .

١٤- علق على حديث «إن من البيان لسحراً» فقال (ص١٥٩) «حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل هو في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرها ، فأخرجه البخاري في النكاح ، باب الخطبة (٢٥١/٣) والطب ، باب إن من البيان لسحراً (٢١/٤) عن ابن عمر ومسلم في الجمعة [١٣] عن عمار به .

١٥- قال الصميلي (ص ١٤٩) عند حديث «وأي داء أدوى من البخل» [١٤] : حديث نبوي وهذا معلوم من قول المؤلف : قال رسول الله ﷺ.

وما هذا إلا تلاعب لا مبرر له ، وإثقال للحاشية بما لا يفيد .

والحديث صحيح : أخرجه البخاري موقوفاً على أبي بكر في موضعين وأحمد أيضاً من رواية جابر عنه ، والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً .

١٦- «اتقوا النار ولو بشق تمرة» ، (ص ١٥٢) قال المحقق : «لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : ما وراء هذا الجهل مرمى، فالحديث ثابت في الصحيحين والسنن والمسانيد، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة منهم عدي بن حاتم وعائشة وأنس والنعمان بن بشير وأبو هريرة وابن عباس وأبو أمامة وغيرهم[١٥] : ولا أطيل ذيول التخريج ، وحسبي تخريجه من الصحيحين ومسند أحمد، لأنه حديث مشهور متواتر .

فأخرجه البخاري في الزكاة : باب الصدقة قبل الرد (٢٤٦/١) من حديث عدي بن حاتم ، ومسلم في الزكاة : باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها رقم (١٠١١)، (١٠١٦) .

١٧- قال المحقق (ص ١٥٩) في تخريج حديث «لا خلابة»[١٦] ، «لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل هو في الصحيحين وغيرهما .

فأخرجه البخاري : في البيوع : باب ما يكره من الخداع في البيع (١٣/٢) عن ابن عمر أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع في البيوع فقال إذا بايعت فقل لا خلابة» ، ومسلم : في البيوع : باب من يخدع في البيع (٤٣٣/١٠) نووي رقم (١٥٣٣) وزاد «فكان إذا بايع يقول «لا خيابة» .

١٨- (ص ١٦٨) حديث «الثلث ، والثلث كثير» . علق عليه بقوله : «لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل هو مخرج في الصحيحين والمسانيد .

فأخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها : كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (١٢٥/٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ، ومسلم في صحيحه : كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث (٨٥/٦) رقم (١٦٢٨) من حديث سعد ابن أبي وقاص به وغيرهما .

١٩- علق (ص ١٦٨) على حديث «خير الصدقة ما أبقت

غنى واليد العليا خير من اليد السفلى ... الحديث ، فقال كالعادة «غير مثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : بل هو مخرج في الصحيحين وغيرهما .

فأخرجه البخاري في كتاب النفقات ، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال (٣/٢٨٦) . وفي مواضع أيضاً من صحيحه ، ومسلم : في الزكاة ، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى رقم (١٠٣٣) .

٢٠- علّق على حديث : «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» (ص ١٦٨) بقوله : «حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : أخرجه مسلم في صحيحه : بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته» . وأبو داود في الزكاة باب في صلة الرحم رقم (١٦٩٢) بلفظ المؤلف وأحمد (٢/١٦٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥) وغيرهم .

ولذلك فقوله مردود .

٢١- قال : (ص ١٦٨) في حديث : «أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» . أخرجه أحمد في المسند .

قلت : بل هو في الصحيحين وغيرهما [١٧] .

٢٢- قال [١٨] في حديث كعب بن مالك «أمسك عليك بعض مالك» : حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد .

قلت : بل هو في الصحيحين وغيرهما .

فأخرجه البخاري : في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى رقم (١٤٢٥)، والأيمان والنذور، باب إذا أهدى ماله على وجه النذر والتوبة رقم (٦٦٩٠) ، وفي التفسير : باب لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار رقم (٤٦٧٦). ومسلم : في كتاب التوبة، حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٩/٢/٩٧). وبما ذكرناه تبين أن الصميلي ليس عنده شيء من علم الحديث ، بل ولا من علم الفهارس، وما أدري ما الذي أغراه بهذا النفي المتكرر، الذي لا أساس له .

٢٣- قال الجاحظ [١٩] : «وخذ بقول من قال : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» .

قلت : بل هو حديث نبوي صحيح .

أخرجه النسائي (٢/٣٣٤) ، والترمذي (٢/٨٤) وابن حبان كما في الموارد (٥١٢) والحاكم (٢/١٣) (٤/٩٩) وأحمد (١/٢٠٠) عن الحسن بن علي مرفوعاً. وقال الحاكم : «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي [٢٠] .

٢٤- قال الصميلي تعليقاً على حديث : «اعقلها وتوكل» : «حديث نبوي لم يثبت في الصحيحين ولا في المسانيد» .

قلت : هو ثابت في سنن الترمذي عن أنس مرفوعاً .

قال في صحيح الجامع : حديث حسن [٢١] .

٢٥- قال معلقاً على حديث «أولم ولو بشاة» (ص ١٩٤) . حديث نبوي ، فلم يفد القارئ بشيء .

قلت : الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري : في النكاح ، باب الوليمة حق (٣/٢٥٤، ٢٥٥) . ومسلم في النكاح : باب أقل الصداق (٥/١/٢١٦ - ٢١٧) . وأبو داود في النكاح ، باب قلة المهر رقم (٢١٠٩) وغيرهم .

٢٦- قال تعليقاً على حديث «من يستعفَّ يعفه الله» (ص٢٠٢) : حديث نبوي ، فلم يصنع شيئاً .

قلت : الحديث متفق عليه : أخرجه البخاري في صحيحه في الزكاة ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى رقم (١٤٢٧) ، ومسلم في الزكاة ، باب فضل التعفف (٤/١/١٥١) شرح صحيح مسلم رقم (١٠٥٣) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

القسم الثاني : أخطاء عامة :

أ – ضعف التأليف :

في كثير من المواطن في تعليقات المحقق يصادفنا سيل من ضعف التأليف، الذي يؤدي إلى معرفة المعنى المراد ، أو إيهامه معنى آخر، وهذه نماذج من هذا النوع .

١ – قال (ص ١١) مترجماً ليزيد الرقاشي : «كَثُرَتْ في رواية الحديث مآخذُهُ»، والدقيق بل الصحيح أن يقول : «كثرت عليه المآخذ في روايته» ، فحذْف المتعلق (عليه) أوقع في اللبس ، وأوهم غير المراد .

٢ – قال في ترجمته أيضاً : «توفي في العشرة الثانية من القرن الثاني الهجري» وهذه طريقة ثقيلة على السمع والفكر معاً .

٣ – قال (ص ٦٧) : «عاش حياة مقصورة نوعاً ما» .

وأقول : مقصورة على ماذا ؟

٤ – رفده : الرفد العطاء ، (ص ١٣١) .

أقول : الأنسب أن يقول :

رفده – أعطاه – والرفد العطاء، دوماً للتنسيق اللغوي والتفسير الإيضاحي، ومثل هذا كثير، في تعليقاته .

٥ – وقال (ص ١٤٦) : «القيان : مفردها قينة وهي الأمة الجارية، أو العبدة المغنية» ولك أن تتعجب طويلاً من هذا التكرار، والزج بكلمة «عبدة» وهي محدثة، لا بل من لحن العامة .

٦ – وفسر (ص ١٥٣) عِرْسك فقال : «العرس امرأة الرجل ، عرس المرأة رجلها» .

أقول : عرض هذا التفسير يكفي عن الإغراق في تبيان ضعفه .

ب – قصور التراجم :

أما قصور الصميلي البيِّن في تراجم الأعلام، فحدث عن ذلك ولا حرج فهو يثقل الترجمة بما هي عنه في غنية، ويهجر ما يجب عليه أن يذكره فهو مثلاً لا يذكر أبا المترجم له، وأحياناً يذكره ولا ينسبه ولا يكنيه ، مما يجعل الناظر في الترجمة في حيرة من أمره من هذا البتر الممجوج .

نموذج من ذلك :

١ – قال (ص ١٤) : «الحسن هو الحسن البصري توفي سنة (١١٠)» فلم يذكر اسم أبيه ولا كنيته .

٢ – (ص ١٥) قال : «طلحة الفياض هو طلحة بن عبيدالله» . ولم يجد علينا بقبيلته ولا فخذه هل هو قرشي أو أنصاري تيميّ أو زهري ؟ أما الكنى فبينه وبينها عداء مستحكم .

٣ – (ص ١٦) : «معاوية بن أبي سفيان صحابي» وهكذا .

٤ – وقال : (ص ٥٢) : «قطرب نحوي لغوي بصري».

قلت : هذا غاية القصور فقطرب لقبه وليس اسمه ، واسمه : محمد بن المستنير البغدادي وهو تلميذ سيبويه . وهو الذي لقبه بقطرب [٢٢] ، توفي سنة ست ومئتين .

٥ – (ص ٥٥) قال : «أبو الحسن المدائني بصري المولد» وإلى الآن نتطلع إلى معرفة اسمه واسم أبيه ، أهذه ترجمة ؟

٦ – وقال (ص ١٣٣) : «أبو الدرداء صحابي» وأعرض عن ذكر اسمه واسم أبيه مع خفائهما على كثير .

وأكتفي بهذا النموذج ليدلّ على الباقي .

ب – أخطاء نحوية وصرفية :

وأيضاً من الملاحظات الجوهرية على الصميلي عدم مراعاته القواعد النحوية والصرفية في عدة أماكن ، مما يثير علامات الاستغراب لدى القارئ، وهي بالتأكيد ليست أخطاء مطبعية، والجناية في كلتا الحالتين تعصب برأس الصميلي الذي زعم أنه ضبط ودقق وحقق، وهذا نموذج من تلك الأخطاء :

١ - (ص ١٦) قال : «عارض - يعني معاوية - الإمام علي» صحيحه «عليًا» .

٢ - (ص ٢) من المقدمة قال : «أنهكته السنين» صحيحه «السنون» .

٣ - (ص ١٠) هامش قال : «ما كان موشياً» صحيحه «ما كان مُوَشى» .

٤ - وقال (ص ١٣٧) : «وناصر الإمام علي» صحيحه «عليا» .

٥ - وقال (ص ٢٢٣) : «وجدت نفسي ملزمة بالاطلاع على الطبعات السابقة للكتاب» وأقول : الأولى «ملزماً» دفعاً للإيهام .

٦ - وقال في الصفحة نفسها : «وهو في علم الإسلام إماماً، وفي أوساط المعتزلة زعيماً وفي الأدب كاتباً» .

وكل ما تحته خط تقتضي القواعد النحوية رفعه، ولعله أثر النصب على تقدير كان، ولكن التركيب لا يساعده .

جـ - تفاسير خاطئة :

١ - وقال (ص ١١) : مترجماً ليزيد الرقاشي : «يزيد الرقاشي من زهاد البصرة - إلى أن قال - وقد كان المحدثون يعرضون عنه ، لأنه قد كثرت في رواية الحديث مآخذه» .

قلت : أولاً . هذا قصور في التعبير ، وكلام يفتقر إلى الدقة، وكأنه يريد أن يقول إن على يزيد مآخذ تسببت في إعراض المحدثين عن قبول روايته : ولم يبين هذه المآخذ .

ويزيد هو ابن أبان الرقاشي ، وهو رجل صالح متعبد، وقد بيَّن الساجي سبب تضعيفه فقال : كان يهم ولا يحفظ، ويحمل حديثه لصدقه وصلاحه [٢٣] .

قال الألباني : «فمثله يستشهد به» [٢٤] . إذاً فالمحدثون يستشهدون بروايته ، ولا يعرضون عنها بالكلية .

وأقول : ما للصميلي ولتقويم رجال الحديث فإن له متخصصين .

٢ - قال (ص ٦٨) : شارحاً قول الجماز : «قيء كلب في قحف خنزير» : «قحف إناءُ من خشب» .

أقول : بل المراد في جمجمة خنزير ، والقحف ما انفلق منها فبان [٢٥] .

٣ - (ص ٨١) - وقال : شارحاً قوله «وتلْوُنا بها وهي عليكم حالة» : «تلووننا بها من لَوَى فلاناً حقه إذا جحده إياه» .

قلت : بل من لواه بدينه لَيّاً ولِيّا وليَّاناً بكسرها مَطله[٢٦]، وفي الحديث الصحيح [٢٧] : «ولَيُّ الوجد ظلم» أي مطل الغني .

٤ - (ص ٩٤) شرح قوله : «وكان طبيباً فاكسد» بقوله : «أكسد من الكساد ، وأصل الكساد الفساد، والمعنى هنا مرض» .

وهذا غلط بيِّن والسياق يدفعه ، لأنه قيل له : «فمن أين تُؤْتى من هذا الكساد ؟ قال أمّا واحدة فإني عندهم مسلم» . قلت بل معناه : لم يَنْفُق طِبُّه عندهم .

٥ - شرح (ص ١٠٢) قول الشاعر : «ورضاع المجح عيب كبيرُ» فقال : «المجح من مجح إذا افتخر وتكبر ، المجاح المتكبر» إ هـ .

قلت : هذا غلط فاحش، والمجح هنا هي الحامل التي دنا وضعها، قال في القاموس [٢٨] : «أجحت المرأة حملت فاقربت، وعظم بطنها فهي مجح، وأصله في السباع» وفي اللسان [٢٩] : «أغالت المرأة ولدها فهي مغيل، سقته الغيل الذي هو لبن المائتية أو لبن الحبلى» .

٦ – شرح (ص ١٠٣) قوله : «وما أَكَلَ الكَسْبُ في الحبس موثَّقاً» فقال : «الكُسْب ثقل الدهن وعصارته» قلت : بل الكسب هنا بفتح الكاف ما جمعه من مال [٣٠]، والمراد هنا الحيوان الداجن، كما يدل عليه السياق ولا معنى هنا للدهن .

٧ – شرح قوله (ص ١٣٨) «رأيته يتخلل من الطعام». فقال : «الخلال ما تخلَّل به الأسنان أي السواك، قلت : الخلال غير السواك، لأن الخلال قد يخلّ به القميص وغيره، ومنه ذو الخلال . أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لأنه تصدق بجميع ماله، وخلّ كساء بخلال [٣١]» .

٨ – في (ص ١٤٣) فسر قوله : «من لم يكن من بني عبدالمطلب جواداً فهو حميل» فقال : «حميل : الحميل هنا المحمول، وفي الأصل ما حمل السيل من الغثاء والمراد هنا الاعتماد على الأقربين» إ هـ .

قلت : لقد أبعد الصميلي النجعة، فما أصاب قطعاً، والحميل هنا الدعيُّ [٣٢] ، ومما يؤيد هذا المعنى قول معاوية رضي الله عنه بعده «ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو لزيق» .

ومن ذلك قول الكميت :

«علامَ نزلتُمُ من غير فقرٍ
ولا ضراء منزلة الحميل» [٣٣]

٩ – وفسّر (ص ١٤٦) القينة بقوله : «وهي الأمة الجارية أو العبدة المغنية» .

وأقول : كلمة «عبدة» لا أعرفها ولم أعثر عليها .

١٠ – وقال الجاحظ : «وإسرافه في الإعذار وفي العقيقة» (ص ١٤٦) ، ففسره الصميلي بقوله : «الإعذار من العذير، وهو أن تستفيد شيئاً جديداً فتتخذ طعاماً تدعو إليه إخوانك» .

قلت : الإعذار : الإطعام عند الختان [٣٤]، قال أبو زيد : «الوليمة : الطعام عند العرس، والإعذار عند الختان، والوكيرة عند بناء الدار ، والخُرْس عند النفاس ، والنقيعة عند القدوم ، والمأدُبة : الطعام يتبرع به، والسُّلْفَةُ والُّلهْنَة الطعام يُتَعلل به قبل الغداء ، وزاد الأموي «واللهْجَة» إ هـ ، قال الأصمعي : الإعذار الختان أعذرت الغلام إعذاراً ، وغلام معذر ، وأُعْذِر الغلام، ويقال للجارية : أُعْذِرَتْ وخُفِضَتْ والختانة مُعذرة، وكنا في إعذار بني فلان ، وهو الطعام عند الختان ، قال ومن ذلك : «كنا إعذار عامٍ واحد» أي ختنًا في عام» [٣٥] .

١١– قال (ص ١٥٢) : «المليح : اللائم العاذل» .

قلت : لعله «المليم» ، وهو فيما يبدو خطأ مطبعي» .

١٢– قال الجاحظ (ص ١٦١) : «ولو جمعت الجفر والسحر والتمائم والسُّم لكانت حيلهم في الناس أشد تغلغلاً» .

فشرح الصميلي قائلاً : «والسحر الخداع والتمويه والسم : كل شيء كالودْع يخرج من البحر» .

وأقول : هذا خلط إذ ليس هذا المعنى مقصوداً هنا والذي يدل عليه السياق هو السُّمُّ القاتل [٣٦] لأنه يسري في الجسم .

١٣– (ص ١٤٩) – فسر حديث «لا تُوكي فيوكى عليك» بقوله : «لا توكي : ووكأعلى الشيء إذا اعتمد» .

قلت : ليس هذا من الفعل المهموز توكأ، بل من الثلاثي المقصور وكَى ، ومنه الوكاء ككساء ، رباط القربة وغيرها وقد وكاها وأوكاها ، وهو أفصح من الثلاثي كما في الفصيح وغيره، وكلّ ما شُدَّ رأسُه من وعاءٍ ونحوه فهو وكاء، وسئل فأوكى بخل [٣٧]، وهو المقصود بالحديث .

أي لا تبخل فيُقَتِّرْ عليك رزقك .

أما على شرح الصميلي فيكون المعنى لا تعتمد

فيعتمد عليك وهذا معنى بارد تتنزه الفصاحة النبوية عن مثل هذا المعنى البارد .

١٤- وقال الجاحظ : (ص ١٦١) : «ولو اتخذت المارق والجواسق والأبواب الشداد والحرس...» .

فقال الصميلي : «المارق من مرق الرجل إذا أكثر مرق القدر والمراد الولائم» .

وهذا المعنى غير مقصود قطعاً، بل الغرض زيادة الاحتياط في البخل ، والبخيل لا يولّم . ولعل الكلمة محرفة من كلمة تعني والحجاب نحوه ، ولقد راجعت المادة في بعض المعاجم ، فما استظهرت معنىً يتناسب هنا، فينبغي الرجوع إلى أصول الكتاب وهذا هو التحقيق .

١٥- وقال أحيحة (ص ١٦٥) :

إني أكبّ على الزوراء أعمرها

إن الكريم على الأقوام ذو المال

قال الصميلي : «الزوراء : البئر البعيدة القعر، أعمرها أملأها [38] بالمال» .

قلت : ما علمنا أن الآبار مخازن الأموال إلا من تفسير الصميلي وليته نظر في القاموس فأراح واستراح، ففيه : «والزوراء مالٌ لأحيحة» [39] .

والمقصود أرض اسمها الزوراء ذات نخل وزرع - وعمارتها بالسقي والغرس والتّعهد .

١٦- (ص ١٦٧) - قال : «سعيد بن نفيل هو والد الصحابي المبشر بالجنة سعيد بن نفيل اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ولم يدرك الإسلام» انتهت الحاشية معلقاً على قول الجاحظ : «وقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» .

أقول هذا هو التخبط المشين، والخلط الأعمى، ولا يخلو الحال من أحد أمرين أحلاهما مرّ :

إما أن يكون هذا التعليق عراه التصحيف والتداخل فنقول للصميلي أين التدقيق الذي وعدت به القراء ؟

وإما أن يكون هذا الصنيع مقصوداً من الشارح، فهذه قاصمة الظهر .

فالصحابي الذي هو أحد العشرة المبشرين بالجنة اسمه كما قال الجاحظ «سعيد بن زيد» فأبوه زيد، وليس الموضع بحاجة إلى هذا التشويه :

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

١٧- وقال (ص ١٧٤) : «الغِيَرُ : مفردها غيرة وهي الحمية والنخوة» .

شرح بها قول الجاحظ : «وتجالس أصحاب الاقتصاد، وتعرف الدهور، ودهرك خاصة وتمثل لنفسك الغِيَر حتى تتوهم نفسك فقيراً ضائعاً» .

قلت : الغِيرُ : كعنب في الوزن أحداث الدهر المغيرة كما في القاموس [40] وغيره ، ولا يقبل السياق غير هذا المعنى .

وورد في حديث الاستسقاء : «ومن يكفر الله يلق الغير» .

قال ابن الأنباري - في قولهم لا أراني الله بك غيراً - : «الغير من تغير الحال، وهو اسم بمنزلة القِطع والعنَب وما أشبههما . قال : ويجوز أن يكون جمعاً واحدته غيرة قاله في التاج [41] وعلى كلا الأمرين فليس تفسير الصميلي مقصوداً .

١٨- وقال (ص ١٧٥) مترجماً للزبير بن العوام رضي الله عنه : «وقتل في معركة الجمل» .

قلت : لم يقتل في المعركة، بل قتله ابن جرموز غدراً بوادي السباع وقد فارق الحرب وودعها، حين ذكره عليّ قول النبي ﷺ له : «لتقاتلنه وأنت ظالم له» .

ولما جاء ابن جرموز إلى عليٍّ ليبشره بذلك بشره بالنار، روى ابن عبدالبر وغيره عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: «إن لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من أهل هذه الآية ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ .

قال ابن العماد (٤٢) : «ولا ينكر ذلك إلا جاهل بفضلهم وسابقتهم» إ هـ .

١٩– وقال (ص ٢٠٣) – في ترجمة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : «كان في الوفد الذي بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف في المئة الثامنة من الهجرة وأذربيجان والكوفة» .

قلت : هذا خلطٌ عجيب، وعدم اكتراث بالتراث، وتساهل في التحقيق . أين التحقيق والتدقيق الذي تغنّى به الصميلي في المقدمة ؟

قوله (في المئة) : صحيحه (في السنة) .

وأما قوله : «وأذربيجان والكوفة» . فلا شك أنه سقط على المترجم أو الطابع جملة أو كلمة، إذا الصحيح «وولي كذا وكذا» . علماً بأن البصرة أيضاً وليها في العهد العمري ثم عزل (٤٣) .

٢٠– وعلق على قول الجاحظ : «فتنكبت قوسي» (ص ٢٠٣) بقوله : «تنكبت قوسي : هيأتها للرمي» .

قلت : تنكب الشيء : ألقاه على منكبه ، ومنه تنكّب قوسه ، كما في كتب اللغة (٤٤) .

٢١– وعلق على قول الغنوي (ص ٢٠٢) :

لقد علمت قيس بن عيلان أننا

نُضَّار وإنا حيث رُكِّبَ عَوْدُها

فقال الصميلي : «عودها : العود ضرب من الطيب يتبخر به ، أو من العواد وهو المعروف والصنيعة» .

قلت : لم يصب القصد، وما أدخل الطيب في باب الفخر . وإنما يقصد الفخر بأصله العالي ، ففي القاموس: «العَوْد : القديم من السؤدد» (٤٥) .

٢٢– وفسر (ص ٢٠١) – القلنسوة بقوله : «الصومعة تلبس في الرأس» ، وإنما يقال ذلك للبرنس، وهو كلّ ثوب رأسه منه» (٤٦)، بخلاف القلنسوة ، وإن جاز إطلاق الصومعة على القلنسوة فلا ينبغي استعمالها في التفسير لاحتياجها إلى تفسير أيضاً، وإنما يفسر بما هو أوضح .

٢٣– (ص ٢١٠) – علق على قول الشاعر : «إذا الحرب هرَّتْها الكماةُ الفوارس» بقوله «الكماة جمع كميت وهو الفارس» .

قلت : لقد أبعد الصميلي النجعة، فإن الكماة هنا جمع كَمِيّ قولاً واحداً، وهو الشجاع المتكمي في سلاحه، لأنه كَمَى نفسه أي سترها بالدِّرْع والبيضة، من كمى الشهادة يكميها كمياً، ونحو ذلك أي سترها ومنه قول كثير :

وإني لأكْمِي الناس ما أنا مضمرٌ

مخافة أن يثْرى بذلك كاشح

يثرى : يفرح (٤٧) .

فالشاعر يصفهم بأنهم مدججون بالسلاح ، فوارس، أما على تفسير الصميلي فإن المعنى سيكون «إذا الحرب هرتها الفوارس الفوارس» وهذا ما لا يستسيغه أولو المعرفة، ثم إن الكميت : من الألوان الذي خالط حمرته قنوء وغالب ما توصف به الخيل ، ويطلق على أفراس كما في كتب اللغة (٤٨)، ولا أعلم إطلاقه على الفارس إلا في قول يوسف الصميلي .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهوامش

١ – ميزان الاعتدال ٣/٢٤٧ .

٢ – مسلم : (٢٦٢٥)، والترمذي (٣/٩٣)، وابن ماجة (٢/٣٢٤)، وأحمد في المسند (٥/١٤٩، ١٥٦، ١٦١، ١٧١) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» .

٣ – المسند ٣/٣٧٣ .

٤ – ميزان الاعتدال ٣/٢٤٧ .

٥ – لسان العرب ١٣/٣٣٠ .

٦ – أخرجه البخاري رقم (١٩٠٥)، ومسلم رقم (١٤٠٠) .

٧ – صحيح الجامع الصغير (١/٢٤٢) رقم (١٠٦٨) .

٨ – مجمع الزوائد ٣/٣١٧ ، الحديث رقم (٤٧١٢) .

٩ – لسان العرب ١٠/٣٨٥ .

١٠– أخرجه الترمذي في سننه : أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في النظافة ٨/٨٢ تحفة رقم (٢٩٥١) . والدولابي في الكنى ٢/١٣٧، وأبو نعيم في الحلية ٥/٢٩، والخرائطي في مكارم الأخلاق .
وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٢٧) – ٤/١٦٨–١٧٠).
جلباب المرأة المسلمة : ص (١٩٧ – ١٩٨) .

١١– صحيح الجامع الصغير ١/٣١٦ رقم ١٥١٢ .

١٢– فيض القدير ٤/٢١، صحيح الجامع الصغير ١/٦٥٨ رقم (٣٥٠٢) .

١٣– شرح صحيح مسلم ٣/٢/١٥٨.

١٤– أخرجه البخاري : في المغازي باب قصة عُمان والبحرين رقم (٤٣٨٣) ، وكتاب الخمس ، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين رقم (٣١٣٧)، وأحمد ٣/٣٠٧ وغيرهما .
وانظر : صحيح الجامع الصغير ٢/١١٩٥ رقم (٧١٠٤) .

١٥– انظر : صحيح الجامع الصغير رقم (١١٤، ١١٥) .

١٦– لا خلابة : أي لا خديعة .

١٧– مر تخريجه فيما سبق .

١٨– انظر : (ص ١٦٩) .

١٩– البخلاء : (ص ١٧٢) .

٢٠– انظر شاهدين له من حديث أنس وابن عمر في الإرواء ٧/١٥٥ رقم (٢٠٧٤) .

٢١– صحيح الجامع (١/٢٤٢) رقم (١٠٦٨) .

٢٢– تاريخ بغداد: (٣/٢٩٨–٢٩٩).

٢٣– انظر : ميزان الاعتدال ٤/٤١٨.

٢٤– الصحيحة ٢/٦٦ .

٢٥– ترتيب القاموس ٣/٥٦٥ .

٢٦– المصدر السابق ٤/١٨٧ .

٢٧– صحيح الجامع الصغير ٢/٩٦٣ ، رقم (٥٤٨٧) .

٢٨– ترتيب القاموس ١/٤٤٦ .

٢٩– لسان العرب ١١/٥١٠ .

٣٠– ترتيب القاموس ٢/١٠٢.

٣١– السابق ٤/٤٧ .

٣٢– السابق ١/٧١٢ .

٣٣– لسان العرب ١١/١٧٨.

٣٤– غريب الحديث ١/٣٢٤، بل الجاحظ نفسه ذكر ذلك في البخلاء (ص ١٩٥) ونصه : «والإعذار طعام الختان» .

٣٥– غريب الحديث للحربي ١/٢٧٠.

٣٦– ترتيب القاموس ٢/٦١٨ .

٣٧– السابق ٤/٦٥٤ .

٣٨– السابق ٢/٤٩١، وتاج العروس ٦/٤٨٠ .

٣٩– كذا في الحاشية وصحيحه رسماً «أملؤها» .

٤٠– ترتيب القاموس ٣/٤٣٣ .

٤١– تاج العروس ٧/٣٣٣ .

٤٢– تهذيب التهذيب ٣/٣١٩، شذرات الذهب ١/٤٣ .

٤٣– انظر: تهذيب التهذيب ١٠/٢٦٣.

٤٤– المعجم الوسيط ٢/٩٥٠ .

٤٥– ترتيب القاموس ٣/٢٣٨ .

٤٦– السابق /٨٧٢، ١/٢٦٢ .

٤٧– لسان العرب ١٥/٢٣٢ .

٤٨– ترتيب القاموس ٤/٧٩، لسان العرب ٢/٨١، ٨٢ .

المراجع

١ - **البخلاء** : للجاحظ : المتوفى سنة (٢٥٥هـ) ؛ تقديم وضبط وتدقيق وشرح يوسف الصميلي -. ط١ -. صيدا - بيروت : المكتبة العصرية ،١٤٢٠هـ .

٢ - **تاج العروس من جواهر القاموس** : محمد مرتضى الزبيدي ؛ تحقيق علي شيري -. دار الفكر ، ١٤١٤هـ.

٣ - **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي -. بيروت : دار الكتاب العربي .

٤ - **تحفة الأحوذي ، بشرح جامع الترمذي** : المباركفوري ؛ ضبط عبدالرحمن محمد عثمان -. دار الفكر .

٥ - **ترتيب القاموس للفيروزأبادي** : رتبه الطاهر الزاوي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩هـ .

٦ - **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني -. دار صادر، ١٣٢٥هـ (تصوير) .

٧ - **جلباب المرأة المسلمة** : للألباني -. ط٣ -. دار ابن حزم ، ١٤١٧هـ .

٨ - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** : لأبي نعيم -. ط٢ -. بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٠هـ .

٩ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة** : للألباني : من (١ - ٦) -. ط١ -. مكتبة المعارف ، ١٤١٧هـ .

١٠- **سنن أبي داود** ت (٢٧٥هـ) ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد -. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

١١- **سنن ابن ماجة** ت (٢٧٥هـ) ؛ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، بيروت: طبعة دار الكتب العلمية.

١٢- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** : لابن العماد : ت (١٠٨٩هـ) -. ط٢ -. بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩هـ .

١٣- **شرح صحيح مسلم** : النووي ؛ مراجعة خليل الميس -. ط١ -. بيروت : دار القلم ، ١٤٠٧هـ .

١٤- **صحيح البخاري** : بحاشية السندي -. بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر، لم تؤرخ .

١٥- **صحيح الجامع الصغير** : للألباني ؛ أشرف على طبعه زهير الشاويش -. ط٢ -. المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦هـ .

١٦- **غريب الحديث** : للحربي ؛ تحقيق ودراسة سليمان العايد -. ط١ -. جدة : دار المدني ، ١٤٠٥هـ .

١٧- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** : لابن حجر العسقلاني؛ تصحيح ابن باز -. بيروت : دار المعرفة .

١٨- **الكنى** : للدولابي ت (٣١٠هـ) -. ط٢ -. بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ .

١٩- **لسان العرب** : لابن منظور -. ط١ -. بيروت : دار الفكر ، دار صادر ، ١٤١٠هـ .

٢٠- **المسند** : لأحمد بن حنبل ت (٢٤١هـ) -. بيروت : نشر دار صادر والمكتب الإسلامي .

٢١- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث**: لمستشرقين -. ط٢ -. إستانبول: دار الدعوة، ١٩٨٦م.

٢٢- **المعجم الوسيط** : أخرج هذه الطبعة أربعة مؤلفين -. ط٢ -. القاهرة : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ١٤٠٠هـ .

٢٣- **مكارم الأخلاق** : للخرائطي ، محمد بن جعفر (ت٣٢٧هـ) ؛ تحقيق سعاد -. مطبعة المدني، ١٤١١هـ .

٢٤- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: للذهبي؛ تحقيق علي البجاوي -. بيروت : دار المعرفة، ١٣٨٢هـ .

الجامع للرسائل والأطاريح في الجامعات العراقيَّة

عبدالرحمن حسن العارف
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

لا شك أن الباحثين وطلاب الدراسات العليا يشكون مرَّ الشكوى من عدم وجود أدلَّة ببليوغرافية للرسائل والأطاريح العلمية التي قُدِّمت للجامعات العربية في تخصصات العلم والمعرفة كافة ، وحتى إن وُجدت فهي غير دقيقة ، إضافةً إلى عدم تحديث المعلومات بها مما استجد منها خلال الأعوام التي تلت العام الذي توقف عنده إصدار ذلك الدليل .

وفي ظل غياب هذه الأدلة ، وافتقاد الباحثين لها ، ترى عجباً مما يحدث في أقسام الدراسات العليا بالجامعات العربية ، فالموضوع الواحد يتكرَّر تسجيله في أكثر من جامعة ، بل - وهذا مثار العجب والغرابة - إن الموضوع ذاته يُسجل في الجامعة الواحدة ! ، ولا يخفى على أحد ما في مثل هذا الأمر من بعثرة للجهود ، وإضاعة للوقت، وهدر للطاقات دونما طائل .

حدث هذا وما يزال يحدث مع الأسف الشديد دون أن يحرِّك ساكناً لدى القائمين على شئون هذه الأقسام ، والمشرفين على هذه الرسائل العلمية !!!

وإزاء ذلك القصور البيِّن والخلل الواضح في البيانات والمعلومات والفهرسة ، عمدت بعض الجامعات العربية ، وقبلها بعض الأفراد الغيورين والحريصين على مسيرة العلم ، إلى محاولة تلافي هذه السلبية ، فقاموا بجمع قوائم الرسائل الجامعية التي تحتفظ بها الجامعات وأقسام الدراسات العليا ، ومن ثمَّ تصنيفها وفهرستها ، وأصدروها في هيئة أدلة ببليوغرافية تشمل أسماء الرسائل الجامعية المسجلة ، والرسائل التي نوقشت منذ إنشاء هذه الأقسام وحتى تاريخ صدور هذا الدليل ، وكان بعضها يقوم بمتابعة ما استجد من تلك الرسائل ، وإخراجه على هيئة ملاحق تصدر كل عام .

ومن أمثلة ذلك ما قامت به جامعة محمد الخامس بالرباط (المغرب) من عمل دليل للأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة في كليات الآداب بالمغرب من عام ١٩٦١ - ١٩٩٤م ، وأتبعته بإصدار ملاحق في كل عام لما جد من رسائل علمية خلال عام ١٩٩٥م ، وعام ١٩٩٦م ... إلخ .

كما قامت جامعة القاهرة بإصدار دليل للرسائل الجامعية التي أجازتها كلية الآداب منذ إنشائها حتى نهاية عام ١٩٩٠م ، وأتبعته بدليل آخر للرسائل الجارية عام ١٩٩٠م ، ويغلب على ظني - ولست متأكداً من ذلك - أنها أعقبت ذلك بأدلة أخرى تتابع فيه ما كانت قد بدأت به.

والحال كذلك في أدلة رسائل كلية دار العلوم بالقاهرة ، وجامعة أم القرى ، والجامعة الإسلامية ، والجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، والجامعة التونسية ، والرئاسة العامة لتعليم البنات (آنذاك) ... إلخ .

ولا ننسى كذلك ما قام به مركز الأهرام بالقاهرة من تسجيل الرسائل الجامعية بمصر على مصغرات فيلمية، وكذلك ما صدر من فهارس مطبوعة للرسائل الجامعية في مصر أيضاً عن مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر ، وما صدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، وإن كانت هذه الإصدارات قد اتسمت بمحدودية توزيعها وتسويقها ، ولم يطبع منها إلا نسخ قليلة لم يعلم بها سوى قلة من الباحثين !

وأياً ما كان الأمر فإن مما لا خلاف حوله أن هذه الأدلة والفهارس قد سدَّت فراغاً كبيراً كانت تعاني منه المكتبة الجامعية والمعلوماتية بصفة عامة ، كما حلَّت إشكالاً وأوجدت حلولاً ناجعة لكثير من العقبات التي كان يشكو منها طلاب الدراسات العليا ، وخاصة أن أكثرها أصبح متاحاً لاطلاع الجميع عليه .

وأما الرسائل العلمية في العراق فقد ظلَّ العلم بها عزيز المنال رغم عراقة الدراسات العليا بالجامعات العراقية وتاريخها الطويل هناك ، وخصوصاً فيما بعد عام ١٩٩١م، وحتى الآن ؛ حيث انقطعت الصلة تقريباً بهذا القطر العربي ، ولم نَعُدْ نعرف شيئاً عما صدر ويصدر فيه من أعمال علمية ، رسائل جامعية كانت أو مؤلفات مطبوعة !

وكان آخر العهد بمعرفة الرسائل العلمية هناك عن طريق ذلك الفهرس الوحيد المطبوع الذي أعدته ندى نعمان السعدي ، وصدر في ثلاثة أجزاء ، وكان خاصاً بالأطاريح الجامعية لكلية الآداب من عام ١٩٧٦م حتى عام ١٩٨٥م ، وبعد ذلك توقف العمل ولم يصدر شيء في هذا الشأن فيما أعلم .

ولعلِّي لا أبالغ في القول بأن الباحثين منذ ذلك التأريخ كانوا في معزل عما يجري من أعمال علمية هناك ، وأصبح في حكم الميئوس منه معرفة ما يصدر من مؤلفات علمية ، فضلاً عما يُقَدَّم من رسائل جامعية .

واستمرت الحال كذلك حتى قيَّض الله وهيَّأ لسد هذه الثغرة وتدارك هذا النقص - وخاصة في ميدان الأطاريح العلمية - باحثين مرموقين ، تشجَّما عناء البحث، وتصديا بشجاعة علمية لهذه المهمة الشاقة ، فقاما مشكورين مأجورين - بإذن الله - بجمع الرسائل العلمية المسجَّلة أو التي نوقشت في الجامعات العراقية لكافة الأقسام العلمية ، وأصدراها بعنوان (الجامع للرسائل والأطاريح في الجامعات العراقية شاملةً جميع التخصصات ١٣٨٨-١٤٢١هـ/ ١٩٦٧-٢٠٠٠م)(١).

وقد تصفحت هذا المشروع الذي تميَّز بسهولة ترتيب مواده ، وجودة طباعته ، وحسن إخراجه الفني ، فألفيته نافعاً مفيداً . ولا شك أن عملاً موسوعياً ضخماً كهذا لا يكاد يخلو من هَنَات ولكنها هيِّنات إذا قيست بحجم هذا المشروع العلمي الكبير .

وقد بدا لي أن هناك ملاحظات على هذا العمل ، آمل أن يتَّسع لها صدر المؤلفين وحِلْمهما ، ويتقبلاها بقبول حسن ، فإن رأيا فيها ما ارتأيته فعسى أن يُتلافى ذلك في طبعة جديدة لهذا العمل الناجع ، وإن رأيا غير ذلك فالأمر موكول إليهما، والله من وراء القصد .

أولى هذه الملاحظات أن الكتاب احتوى على قسمين رئيسين ، أولهما كان خاصاً برسائل الدراسات الإنسانية، وقد استغرق ما يقرب من أربعمائة وثلاث وثمانين صفحة ، والقسم الآخر كان لرسائل الدراسات العلمية ، واستغرق باقي صفحات الكتاب ، وتحديداً سبعمائة وعشرين صفحة. وكما يلاحظ فإن رسائل كل قسم تصلح أن تكون كتاباً (دليلاً) قائماً بذاته ، وتبعاً لذلك كان يمكن تجزئة هذا العمل على مجلدين ، وبذا يجد المتخصصون بغيتهم -

كلٌّ على حدة – ، فيخفّ الحمل وتقلّ التكلفة المادية أيضاً .

وثاني هذه الملاحظات خُلُوُّ هذا العمل من الفهارس (الكشافات) الفنية الخاصة بعناوين الرسائل العلمية من جهة ، وأسماء أصحابها من جهة ثانية .

وأحسب أن مثل هذا العلم مما يُسَهِّل مهمة الباحثين ، ويوفِّر لهم الوقت في العثور على ما يريدون .

وثالث هذه الملاحظات أن بعض الرسائل العلمية التي كانت في مجال التحقيق لم يُذْكر أسماء مؤلِّفيها ، كما هي الحال في كتاب (الإيضاح في القراءات) ص٤٥، وكتاب (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) ص٤٥ ، وكتاب (الكشف في نكت المعاني) ص٤٩... إلخ[٢]، وغنيٌّ عن البيان أهمية هذه المعلومات بالنسبة للباحثين .

ورابع الملاحظات أن الترتيب الهجائي لأسماء الرسائل في بعض الأقسام لم يكن دقيقاً ، حيث قُدِّم ما حقُّه التأخير ، وأُخِّر ما حقُّه التقديم ، والأمثلة على ذلك جدُّ كثيرة[٣] ، وحبذا لو أعيد النظر والمراجعة في هذا الترتيب، ووضعت كل رسالة في موضعها الصحيح حسب الترتيب المتَّبع.

وخامس هذه الملاحظات أن بعض هذه الرسائل ذُكرت في غير موضعها من التصنيف الذي ارتضاه المؤلفان . فمن ذلك ما حدث في الرسالة رقم ٥٨/٣٢١، حيث ذُكرت ضمن رسائل الدراسات القرآنية والحديثة واللغوية، وحقُّها – فيما أرى – أن تذكر ضمن رسائل الدراسات اللغوية ، وكذا ما حدث في الرسالة رقم ١٠٤/١٨٨٥ ، حيث ذُكرت في رسائل البلاغة والنقد العربي القديم ، ومكانها – فيما أراه – ضمن رسائل الدراسات اللغوية .

ويتصل بهذا تصحيح بعض الأوهام التي وقعت في تصنيف الرسائل الجامعية ، ومنها – على سبيل المثال – ذكر رسالة (موقف المحدثين من العلة النحوية) ذات الرقم ٨٢/٢٠٣ ، ضمن رسائل الحديث النبوي الشريف ، ولست أدري ما العلاقة بين هذه الرسائل والحديث النبوي الشريف ؟! وإخال سبب هذا الوهم أن من قام بمراجعة هذا الدليل وتدقيق معلوماته ظنَّ أن الدَّال في «المحدثين» مشدَّدة ، فألحقت الرسالة تبعاً لهذا الوهم برسائل الحديث الشريف ، في حين أن الصَّواب بتخفيف الدال ، وفرقٌ كبير بين المعنيين ، ولذا فإنه لا مكان مطلقاً لهذه الرسالة ضمن رسائل الحديث الشريف ، وموقعها الصحيح هو رسائل الدراسات النحوية . وقد استدرك هذا فذكرت مرةً أخرى برقم ٢٠٧/٢٤٤٤، ضمن رسائل الدراسات النحوية.

إن هذه الملاحظات تفضي بنا إلى ذكر الملاحظة الأخيرة والمهمة في معرض وقفتنا مع هذا العمل العلمي الرائد ، وهي أن هناك تداخلاً بيِّناً بين بعض رسائل قسم الدراسات الإنسانية ، الأمر الذي نتج عنه تكرار ذكر الرسالة العلمية الواحدة في أكثر من موضع ، ولعل هذا مما أدَّى إلى تضخم حجم هذا الدليل الذي كان يمكن اختصاره إلى أقل مما هو عليه لو تُجنِّب هذا التكرار .

وفي الحقيقة أن مثل هذا الأمر شائعٌ في الأعمال البيبليوغرافية ، وقلَّما تخلو منه [٤] ، بيد أنه في هذا العمل كان أكثر شيوعاً ، وقد أربت مواضع التكرار فيما أحصيته على أربعين موضعاً ، منها على سبيل المثال :

* الرسالة رقم ٥٠/١٧١ ، تكرَّر ذكرها مرةً ثانية في الرقم ١٧٥/٢١٠٦ .
* الرسالة رقم ١٩/٢٢٥ ، تكرَّر ذكرها مرةً أخرى في الرقم ٢٢/١٨٠٣ .

* الرسالة رقم ٩٢/٣٥٥ ، تكرَّر ذكرها مرةً ثانيةً في الرقم ١٤٧/٢٠٧٨ .
* الرسالة رقم ٨١/٣٤٤ ، تكرَّر ذكرها مرةً ثانيةً في الرقم ٦٢/٢٢٩٩ ، كما تكرَّر ذكرها مرةً ثالثة في الرقم ٦٦/٢٣٠٣ .
* الرسالة رقم ٥٩/٣٢٢ ، تكرَّر ذكرها مرةً ثانيةً في الرقم ٣١/٥٠٣ ، كما تكرَّر ذكرها ثالثة في الرقم ٨٤/٢٠١٥.
* الرسالة رقم ١٥٥/٢٠٨٦ ، تكرَّر ذكرها مرةً ثانيةً في رسائل القسم نفسه برقم ٩٩/٢٣٣٦، ومثل هذا وقع في الرسالة رقم ١٤٧/٢٤١١ ، حيث تكرَّر ذكرها مرةً أخرى في رسائل القسم نفسه برقم ١٩٠/٢٤٢٧ .
* الرسالة رقم ٩٥/١٥٣٣، تكرَّر ذكرها في رقم ٣٥/١٨١٦ ، كما وردت مرةً ثالثةً في الرقم ١٢٦/٢٠٥٧[٥] .

وأحسب أن هذا التكرار إنما حدث بسبب ذلك التصنيف غير الموفَّق الذي جعل لبعض الرسائل العلمية ، وهي كثيرة جداً ، قسماً قائماً بذاته ، في حين أنه كان يمكن إلغاء هذا القسم ، وتوزيع رسائله على بقية الأقسام العلمية ، التي هي ألصق بها ، وأقرب رحماً إليها .

كما أحسب أن هذا الدليل لم يَحْظَ بالمراجعة في صورته النهائية ، ولو استعين بجهاز الحاسب الآلي (الكمبيوتر) لوفَّر الكثير من الجهد والدقة .

والذي أراه في هذا الصدد لكي يُتلافى التكرار الحاصل في ذكر الرسائل العلمية ، أن توزَّع تلك الرسائل التي صُنِّفت في رسائل الدراسات القرآنية والحديثية الأدبية ، ورسائل الدراسات القرآنية والحديثية اللغوية على رسائل البلاغة والنقد ، ورسائل الدراسات اللغوية، ورسائل الدراسات النحوية ، وخاصةً أن تلك الرسائل أوثق صلةً برسائل هذه الأقسام العلمية الثلاثة ، بل هي جزءٌ منها .

ومثل هذا يقال في الرسائل العلمية الخاصة بكتب القراءات والتجويد ، حيث صُنِّفت ضمن رسائل الدراسات القرآنية والحديثية اللغوية ، ولو وُضعت مع رسائل علوم القرآن لكان أجدى .

وبعد ، فهذا ما بدا لي في رسائل القسم المتعلِّق بالدراسات الإنسانية ، وبالتحديد من ص٢٥ – ١٧٧، وأحسب أن بقية الصفحات لا تخلو من مثل هذا التكرار .

إن ما أوردته في هذا المقام إنما هي خواطر عنَّت لي أثناء اطلاعي على هذا العمل وبعد الفراغ من قراءته ، وهي أقرب ما تكون إلى التعريف بهذا الدليل ، والتنويه بشأنه ، منها إلى أي شيء آخر . وقد دوَّنت ملاحظاتي هذه وقدمتها للنشر رغبةً مني في وصول هذا العمل إلى درجة أقرب ما تكون للدقة والكمال .

ولا شك أن هذه الملاحظات لا تُقلِّل بحال من جهد المؤلفين ، وكذا جهد الذين أسهموا في مراجعة المعلومات وتدقيقها وتدوينها ، وهو جهدٌ علميٌ مُضْنٍ لا يطيقه إلاّ أولو العزم من الباحثين ، وحَسْبهم أن يُعَدَّ مجرَّد صدور هذا العمل حدثاً علمياً ساراً وسعيداً للباحثين والدارسين من الطلاب والطالبات والأساتذة ، وسيكون له أثره في المسيرة العلمية للجامعات العربية وأقسام الدراسات العليا بها .

وأشهد أني قد أفدت منه كثيراً ، وسيفيد منه غيري أكثر وأكثر ، وسيأخذ مكانه من المكتبة العربية ، ويكون عوناً للباحثين في اختيار موضوعات رسائلهم العلمية وعدم تكرارها .

وإن كان لي من اقتراح في نهاية المطاف فهو أن يواصل المؤلفان اللذان قاما بجمع هذا الدليل ما كان قد بدءا به ، ويتابعا تحديث معلوماته وبياناته ، وذلك عن

طريق إصدار ملحق لهذا الدليل كل عام يتضمن ما استجدَّ من رسائل علمية ؛ بغية استمرارية التواصل العلمي والمعلوماتي بين الباحثين في مشرق الوطن العربي ومغربه والجامعات العراقية ، وفي هذا من الخير والنفع وتوطيد أواصر الصداقة العلمية والقربى الثقافية ما لا يخفى على أحد .

وأختتم القول بالتأكيد على أن هذا الدليل عملٌ علميٌ يذكر فيشكر ، وللقائمين عليه تقديرنا البالغ ، وثناؤنا الصادق ، ودعاؤنا لهم بأن يجعل الله ذلك في موازين حسناتهم يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.

وأكرِّر اعتذاري ، وأدعو للجميع بالتوفيق والأجر والثواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الهوامش

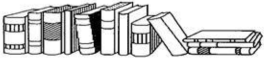
١ – هذا العمل من جمع وإعداد ابتسام مرهون الصفار ، ووليد بن أحمد الحسين ، وصدر عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ضمن سلسلة إصدارات مجلة الحكمة ، بريطانيا – ليدز .

٢ – لمزيد من الأمثلة تنظر الأرقام : ١٩٩/٤٦٢ ، ٥/٥٨٣ ، ١٥٧/٢٠٨٨ ، ٢١٩/٢١٥٠ ، ١٦٥/٢٤٠٢.

٣ – تنظر الأرقام : ٤٤/٢٥٠ ، ١٤٦/٤٠٩ ، ٩١/٩٧٨ ، ١٠٥/١٨٨٦ ، ٢٣٢/٢١٦٣ ، ١٥٢/٢٣٨٩ ، وتقارن بما بعدها من أرقام .

٤ – من ذلك على سبيل المثال : مراجع اللسانيات ، لعبدالسلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٩م ، ففيه تكرارٌ غير قليل للأعمال العلمية !

٥ – للمزيد من هذه الأمثلة تنظر الأرقام ٥٠/٥٠ ، ٣٠/٢٣٦ ، ٥١/٥٠ ، ٣١/٢٣٧ ، ٣٢/١٥٣ ، ٣٠/٥٠١ ، ٤١/١٦٢ ، ١١٤/٢٠٤٥ ، ٧٢/١٩٣ ، ٢٨٥/٢٢١٦ ، ٨٢/٢٠٣ ، ٢٠٧/٢٤٤٤ ، ٧/٢١٣ ، ١٠/٢٧٣ ، ٤١/٣٠٤ ، ٥٠/١٩٨١ ، ٤٦/٣٠٩ ، ٦٥/١٩٩٦ ، ٤/٢٦٧ ، ٧/٢٢٤٣ ، ٥٨/٣٢١ ، ٧٩/٢٠١٠ ، ٦١/٣٢٤ ، ٥١/٢٢٨٨ ، ٧٥/٣٣٨ ، ٥٥/٢٢٩٢ ، ٨٤/٣٤٧ ، ٧٧/٢٣١٤ ، ٨٩/٣٥٢ ، ٨٢/٢٣١٩ ، ٩٠/٣٥٣ ، ٨٣/٢٣٢٠ ، ٩٣/٣٥٦ ، ١٥١/٢٠٨٢ ، ١٠٥/٣٦٨ ، ١٧٥/٢١٠٦ ، ١٠٦/٣٦٩ ، ١٧٦/٢١٠٧ ، ١٢٤/٣٨٧ ، ١٩١/٢١٢٢ ، ١٢٩/٣٩٢ ، ١٩٤/٢١٢٥ ، ١٧٢/٤٣٥ ، ٧/٥٨٥ ، ٢٠٣/٤٦٦ ، ٢٨٩/٢٢٢٠ ، ٣٨/٦٢٤ ، ١٦/١٩٤٧ ، ١/١١٤٥ ، ١/١٩٣٢ ، ٤/١٧٨٥ ، ١٢/١٩٤٣ ، ٢٣/١٨٠٤ ، ٤٨/٢٢٨٥ ، ٦٧/١٨٤٨ ، ١٧١/٢١٠٢ ، ١٦/١٩٤٧ ، ١٠/٢٢٤٧ ، ١٥٥/٢٠٨٦ ، ٩٩/٢٣٣٦ ، ١٤٠/٣٢٧٠ ، ٣١/٣٩٦٤ ، ٢٦٠/٥٠٥٢ ، ١٠/٧١٤١.



القند في ذكر علماء سمرقند

لنجم الدين النسفي ؛ تحقيق يوسف الهادي

صادق العبادي

طهران - إيران

النسفي ، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد (٤٦١-٥٣٧هـ) / القند في ذكر علماء سمرقند ؛ تحقيق يوسف الهادي .- طهران : مركز نشر التراث المخطوط ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

ضمن سلسلة «تراث ما وراء النهر» صدر كتاب «القند في ذكر علماء سمرقند» لنجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي (٤٦١-٥٣٧هـ) في طبعة منقحة ومحققة على يد يوسف الهادي بواسطة مركز نشر التراث المخطوط في طهران (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) في حُلة جديدة ، وطباعة أنيقة .

وقد أهدى المحقق الكتاب إلى علامة الجزيرة حمد الجاسر - رحمه الله - ، وأياديه البيض على العربية لغة وأدباً وجغرافية وتاريخاً (المقدمة ص٧) لما لاقاه من تعاون مثمر في هذا المجال . يقول المحقق : «وإذا كان لي أن أشكر أحداً فهو الأخ الكريم الأستاذ حمد الجاسر الذي بادر متفضلاً فأرسل لي مصورة من مخطوطة مكتبة طرخان والده سي ، مشفوعة بالنسخة المطبوعة منه في الرياض ، مما مكّنني من إتمام عملي بيسر» (المقدمة ص ٤٠) .

وقد اعتمدت طبعة طهران على مخطوطتين :

١ - مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وتحتوي على تراجم الأشخاص الذين تبتدئ أسماؤهم بالحروف من الألف حتى الجيم وهي تراجم غير موجودة في مخطوطة إستانبول التي نشرت سنة ١٤١٢هـ في السعودية ، حيث تضيف مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ١٩٢ ترجمة لم تنشر في طبعة الرياض .

٢ - مخطوطة إستانبول التي اعتمدت عليها طبعة الرياض، مكتبة الكوثر عام ١٤١٢هـ بتقديم محمد نظر الفاريابي.

والذي دعى المحقق إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب :

أولاً: إكمال أعلام النسخة الأولى (حروف الألف إلى الجيم). ثانياً : وجود عدة ملاحظات أساسية على طبعة مكتبة الكوثر في الرياض : فمخطوطة إستانبول التي نشرت في الرياض بتحقيق محمد نظر الفاريابي ، وهي طبعة عليها مآخذ (ص١١) ومن ذلك سقوط سبع تراجم منها، ذكرت أسماء أصحابها في آخر صفة ٥٦٦ من طبعة الرياض وهي غير موجودة في نص الكتاب إضافة إلى أخطاء وقعت خلال نسخ الكتاب وطبعه مما جعل النص غامضاً أحياناً إلى درجة يستحيل معها فهم النص . ولقد كان ينبغي لمن يقدم على طبع أو تحقيق كتاب كهذا أن تكون له معرفة بعلم الرجال والتاريخ وجغرافية البلاد التي دارت تراجم الكتاب مدارها . كما احتوت على أخطاء طباعية أدت إلى ضياع الرسم الحقيقي لاسم الموضع أو النسبة التي نسب إليها المترجم له . فقد ذكر اسم علي السنكباتي (في صفحة ٨٧ من طبعة الرياض) ثم ذكر باسم السكاني (في صفحة ١٢٩) والحقيقة أن

الرجل هو السنكباشي (انظر صفحات ٢١٩ ، ٢٢١، ٢٤٠ ، ٢٤١ من طبعة طهران) (المقدمة ص١٢) .

ويعزو يوسف الهادي محقق هذه الطبعة كثيراً من الأخطاء المطبعية إلى أنها جاءت من منضِّد الحروف الذي لم يطبعها بالشكل الصحيح، ويبدو أن خط المخطوطة الجميل هو الذي دفع ناشرها إلى تسليمها إلى منضّد الحروف الذي لم يكن يعرف شيئاً خارج نطاق عمله ، فطبع الكلمات بالشكل الذي رآه هو صحيحاً ، وأن دور محمد نظر الفاريابي قد اقتصر على كتابة المقدمة (ص١٢) ، وقد أحصى المحقق مجموعة من الأخطاء المطبعية التي حرفت المعلومات الصحيحة وذكرها في المقدمة ، ثم يقول : فإذا أضفنا إلى ذلك الأغلاط التي حرفت المعلومات الصحيحة وذكرها في المقدمة ، ثم يقول: فإذا أضفنا إلى ذلك الأغلاط التي حدثت في فهرسي الكتاب (فهرس التراجم وفهرس الأحاديث) إضافة إلى الأخطاء في الترقيم المذكور حيث يحال إلى رقم معين فلا نجده ينطبق على الرقم المذكور في أول كل ترجمة (المقدمة ص١٥).

سمرقند وأهميتها الجغرافية والعلمية :

قال المؤرخ المجري فامبري وهو يصف بخارى وسمرقند : «ظلت بخارى مركز الثقافة القديمة وفنون العلم هي وسمرقند التي ذاع صيتها بما حبتها الطبيعة من جمال وفتنة» (تاريخ بخارى ، ١٤٧) وقال بارتولد : «إنها ظلت من حيث الرقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة حتى تلك العهود التي كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد ، كما حدث في عهد السامانيين ، وهذه المكانة التي نالتها سمرقند إنما ترجع قبل كل شيء إلى موضعها الجغرافي الفريد ، عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى القادمة من الهند (مارّة ببلخ) ومن إيران (مارة بمرو) ومن أراضي الترك ، كما أن ما امتازت به المنطقة المحيطة بها من خصب فوق المألوف . جعل من الميسور لعدد هائل من السكان أن يجتمعوا في بقعة واحدة» (تركستان ، ١٧٠) ، ووصفها ابن المنذر الشيباني (١٨ – ٩٧هـ) وكان مع قتيبة بن مسلم الباهلي في ما وراء النهر فقال : «كأنها السماء للخضرة ، وقصورها الكواكب للإشراق ، ونهرها المجرة للاعتراض ، وسورها الشمس للإطباق» (المسالك والممالك) (المقدمة ، ص٣٣) .

وقد كانت سمرقند مركزاً من مراكز العلم ، وفيها كان يُصنع ورق الكتابة ذو الجودة الفائقة وبه اشتهرت ، وقال السمعاني في صناعة الكاغد : «وهو لا يعمل في المشرق إلا بسمرقند» (الأنساب ، ١٨/٥) ، وبحكم كون سمرقند مدينة تقع على ثغور البلاد الإسلامية وهي عرضة أبداً للهجوم من شتى الطامعين ، فقد استدعت الضرورة أن تعزّز حامياتها بالمقاتلين الذين كان كثير منهم من المطوِّعة الذين كانوا يأتون من بقاع العالم الإسلامي تطوّعاً للجهاد في تلك الثغور ، ونجد لقب (المطوّعي) يتردد كثيراً في كتاب القند ، وهذا الموقع للمدينة هو الذي جعل البعض يبالغ في مدح سمرقند دفاعاً عن ثغور المسلمين وتشجيعاً لحمايتها ، ويشكك محقق الكتاب في بعض الأحاديث المروية في ثنايا الكتاب والمنسوبة إلى النبي عن سمرقند وفضائلها (المقدمة ، ص٣٥) .

وقد جاء في ديوان ابن الفتح البستي وهو يرد على من يساوي بين سمرقند وبلخ :

للناس في أخراهم جنة

وجنة الدنيا سمرقندُ

يا من يسوّي أرض بلخ بها

هل يستوي الحنظل والقندُ

واستمرت سمرقند في ممارسة دورها الحضاري، إلاّ أن تعاقب الغزوات وخاصة المغولية قد أدت إلى نهبها، وطرد الكثير من سكانها . لكنها استعادت عافيتها عندما اختارها تيمورلنك في (٧٧١هـ) عاصمة لدولته واهتم بها الملوك من

بعده، إلى أن احتلها القياصرة الروس أول مرّة عام ١٤٨٠م وقاموا بالقتل واستباحة الدماء والتنكيل وحروب الإبادة الشاملة التي شنت ضد المسلمين وخاصة في عهد إيفان الملقب بالرهيب (١٥٣٠-١٥٨٤م) فكان على المسلمين أن يتنصّروا أو يتركوا أوطانهم ويهاجروا، واستمرت هذه السياسة في عهد خلفائه وخاصة أسرة رومانوف في القرن السابع عشر، وقد نهب الروس خيرات المنطقة وثرواتها الاقتصادية وسيطروا على المراكز التجارية في سمرقند وطشقند (ص٣٦) .

وخلال عهد السيطرة الشيوعية (١٩١٧-١٩٩١م) لبلدان آسيا الوسطى، جرى التركيز على تدمير أوزبكستان وحواضرها التاريخية سمرقند وطشقند وبخارى، خصوصاً مدارسها ومساجدها التاريخية، ففي العهد الشيوعي أغلقت المعاهد الدينية، وفرضت ضرائب على المساجد وحولت ألوف المساجد إلى مواخير ونواد وإسطبلات، وحولت جامعة سمرقند إلى نادٍ، وصودرت جميع أراضي الأوقاف الإسلامية ، ودمرت مطبعة في قازان كانت تطبع القرآن الكريم ، ووضعوا قيوداً على أداء فريضة الحج ، ومنع المسلمين من أداء الزكاة وحتى منع الصوم بحجة أنه معطل للإنتاج، وتم تهجير المسلمين إلى مناطق ثانية، وجلب الروس واليهود والمسيحيين إلى مناطق المسلمين لتضييع الهوية الإسلامية مما أدّى إلى خفض عدد المسلمين بشكل كبير (سمرقند ، تاريخها وحضارتها ، ٣٤) .

مصير العرب في سمرقند :

وقد ذكر مؤلف كتاب (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي) : عام ١٩٥٩م أوردت الإحصائية السوفيتية أن هناك ٧٩٨٧ عربياً يستوطنون في الأساس وادي زرفشان الأسفل بين سمرقند وبحيرة قره كول وهناك مجموعات منهم أقل أهمية تعيش في أوزبكستان الجنوبية ، وكانت الجالية العربية في طريقها إلى الدمج السريع بالسكان المحليين ، وقد امتزجت الأوزبكية والفارسية إلى حد كبير بلغتهم التي يتكلمون بها ، وأخذوا يستخدمون الأوزبكية كلغة أدبية ، يتكلم ٣٤٪ منهم بالعربية و٣٤٪ الطاجيكية و٢٨٪ الأوزبكية، وأخيراً لم يُمثّل العرب في قوائم القوميات التي أعدتها السلطات السوفياتية . في إحصائياتها خلال عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٩م (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي ص١٤٦ ، نقلاً عن مقدمة القند ، ص٣٨) .

مؤلف كتاب القند :

أما مؤلف كتاب القند في ذكر علماء سمرقند فهو حسب ما ذكره أبو سعد السمعاني : «أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن لقمان النسفي ، السمرقندي ، الحافظ من أهل نسف، سكن سمرقند ، إمامٌ فقيه فاضل عارف بالمذهب والأدب، وصنّف في الفقه والحديث ونظم كتاب الجامع الصغير (للشيباني المتوفى ١٨٩هـ) ودفن بسمرقند، أما شيوخه فكثيرون قال السمعاني تلميذه: «كتب لي بالإجازة وقال: "شيوخي خمسمائة وخمسون رجلاً" . ذكر ابن النجار بقوله : "قدم بغداد حاجاً . توفي سنة ٥٣٧هـ ودفن بمقبرة وصفها أبو طاهر السمرقندي بقوله تقع داخل مدينة سمرقند في طرف القسم الشرقي فيها، وكانت في الأصل بستاناً ، وفي الطرف الغربي صحن توجد فيه حضيرة المفتين يقال إنه مدفون فيها أربعمائة من المفتين ، ويحتمل إنها هي تل أصحاب الحديث التي ترد الإشارة إليه كثيراً في كتاب القند بوصفه مدفناً لأصحاب الحديث (ص ٢٠) .

من آثار النسفي وكتبه :

قال ابن النجار: «كان فقيهاً فاضلاً مفسراً أديباً متقناً، وقد صنّف كتباً في التفسير والحديث والشروط .. ولعله صنف مائة مصنف (ذيل تاريخ بغداد ٩٩/٢٠) وقد كتبت على بعض كتبه الشروح ، ودعاه أصيل الدين الواعظ (ت ٨٨٣هـ) مفتي الثقلين، وهذه بعض آثاره المخطوطة والمطبوعة والمفقودة :

١ - الإجازات المترجمة بالحروف المعجمة .

٢ – الإشعار بالمختار من الأشعار .
٣ – الأكمل الأطول ، في تفسير القرآن ، ٤ مجلدات.
٤ – بعث الرغائب لبحث الغرائب .
٥ – تاريخ بخارى .
٦ – تطويل الأشعار لتحصيل الأخبار .
٧ – تعداد الشيوخ لعمر ، جمع فيه شيوخه وهم خمسمائة وخمسون شيخاً .
٨ – تفسير نسفي بالفارسية ، حققه عزيز الله جويني وطبع بطهران (١٩٩٧م) اعتماداً على ثلاث مخطوطات من خراسان وأفغانستان وتركيا .
٩ – التيسير في التفسير .
١٠– منظومة الجامع الصغير .
١١– شرح الأصول، شرح كتاب الأصول لابن دلال الكرخي.
١٢– طلبة الطلبة ، في الاصطلاحات الفقهية على مذهب الحنفية ، طبع مراراً في مصر وبيروت .
١٣– عقائد النسفي أو العقائد النسفية ، مختصر في علم التوحيد ، طبع عدة مرات .
١٤– في بيان مذهب التصوف وأهله ، مخطوطة بإستانبول بالفارسية.
١٥– المختار من الأشعار في عشرين مجلداً .
١٦– مشارع الشارع في فروع الحنفية .
١٧– مطلع النجوم ومجمع العلوم ، دائرة معارف في شتى العلوم .
١٨– معجم شيوخ النسفي .
١٩– النجاح في شرح أخبار كتاب الصحاح .
٢٠– القند في ذكر علماء سمرقند ، وكتب أخرى مخطوطة أو مفقودة (انظر مراجعها في المقدمة ، ص٢١–٢٤).

أهمية الكتاب :

وكتاب القند في ذكر علماء سمرقند مرجع هام لحوالي ١٢٣٢ من الرواة والمحدثين والتابعين والأعلام والأمراء الذين عاشوا وسكنوا أو مرّوا بسمرقند ، وكذلك يحتوي الكتاب على جملة من الأحاديث النبوية ، ومعلومات عن البلدان والمدن والقرى وبعض الوقائع والحوادث التاريخية .

والكتاب يحتوي على عدد من الأحاديث النبوية المروية عن النبي (ﷺ) وقد جمعها المحقق في نهاية الكتاب مع رواتها (ص٧١٣ – ٧٤٨) ، ورغم الأهمية الخاصة التي يتمتع بها كتاب القند في كونه مرجعاً ينقل عن مصادر لم يعد لها أثر اليوم ، ويذكر مواقع وقرى ويترجم لأشخاص لا نعثر على مجموعة كبيرة منهم في كتب التاريخ والرجال المتوفرة ، إلا أن بعض الأحاديث المروية عن الرسول الأكرم (ﷺ) يوجد في بعضها ما يشير إلى ضعف أسانيدها (ص ٢٥) وقد نقل المحقق بعض هذه الأحاديث مشفوعة بمصادرها (ص ٢٤–٢٩) .

قال حاجي خليفة في مادة تواريخ سمرقند، ألف فيه أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (٣٥٠–٤٣٢هـ) وأبو سعد عبدالرحمن بن محمد الإدريسي (ت ٤٠٥هـ) والذيل عليه لأبي حفص عمر بن محمد النسفي، ومنتخب القند لتلميذه محمد بن عبدالجليل السمرقندي (كشف الظنون ١/٢٩٦)، وهناك كتاب القندية المدوّن بالفارسية لمحمد بن عبدالجليل السمرقندي الذي يتحدث فيه عن مقابر مدينة سمرقند ، والذي توجد مخطوطاته في مكتبات آسيا الوسطى .

وأمّا عن اسم كتاب القند الذي فيما نحن فيه فيرد أحياناً باسم القند في ذكر علماء سمرقند ، وأحياناً القند في تاريخ سمرقند وفي أحيان أخر تاريخ سمرقند ، ويقال اختصاراً القند (ص ٣٠) .

وقد اعتمد المحقق في هذه الطبعة على نسختين الأولى نسخة محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس برقم ٦٢٨٤ ناقصة الأول والآخر ، مضطربة الأوراق ، تضم التراجم التي تبدأ أسماء أشخاصها بحرف الألف حتى حرف الجيم، وبعض من العين . وتقع في ١٧٣ ورقة تحتوي على ٢٢

سطراً وقد كتبت بخط النسخ بيد كاتبين اثنين . الثانية: نسخة محفوظة بمكتبة طرخان والده سي بإستانبول برقم ٢٩٧٢ وعدد أوراقها ٩٨ ورقة ، معدل الأسطر ٢٢ سطراً بالخط النسخي الجميل المشكول وهي تضم التراجم التي تبدأ أسماؤها بالحروف من الخاء حتى الكاف (ص ٣١) .

ويبدو أنه توجد نسخة منه بالفارسية أفاد منها بارتولد في كتابه تركستان، وهذه النسخة هي فعلاً مختصر القند.

طريقة تحقيق الكتاب :

لقد اعتمد المحقق في هذه الطبعة على مخطوطتي المكتبة الوطنية بباريس ومكتبة طرخان والده سي بإستانبول - كما ذكرنا سابقاً - وقد ذكر في الهوامش ما اتفق واختلف بينهما، كما عرّف بالمترجمين فإذا لم يجد للمترجم ذكراً أشار أمّا إلى شيخه أو تلميذه الذي روى عنه مع شيء يدل على الزمن الذي عاش فيه كسنة ولادته أو وفاته.

أما عن الألقاب والكنى فقد حاول المحقق ذكر كلٍّ ما عثر عليه من لقب وكنية وذكرها في الفهرس الموضوعي آخر الكتاب ، ذلك أن بعض هؤلاء عُرف بلقب آخر أو نسبة غير ذلك أو تلك التي وردت في كتاب القند ، فبقي الاسم واللقب كما هو في المتن أمانة للنص ، أما في الفهرس فقد ذكرت كل الألقاب الأخرى (ص ٣٩) .

لقد اقتضى تحقيق الكتاب قراءة كتاب الأنساب للسمعاني إضافة إلى كتبه الأخرى ، ثلاث مرات لضبط النسب ومعرفة ما يمكن العثور عليه من المترجمين في القند، وقد التزم ضبط السمعاني للنسب نظراً إلى أنه ذهب إلى ما وراء النهر وزار أغلب المدن والقرى التي ذكرها ، وأفاد من مكتباتها العامة وخاصة ، والتقى بابن النسفي نفسه واستعار منه المؤلفات والكراسات ، كما اعتمد المحقق على كتاب توضيح المشتبه لابن ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ) بسبب اعتماده على كتاب مهم في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم مؤلفه أبو العلاء محمود بن أبي بكر البخاري الكلاباذي الفرضي المولود ببخارى (٦٤٤هـ) والمتوفى بماردين التركية (ت ٧٠٠هـ) ؛ مما يكشف عن المجهود الطيب والواسع الذي بذله المحقق لإخراج هذا الكتاب إلى النور .

الفهارس :

ولقد ضم الكتاب في دفتيه عشرة فهارس ، شاركت في إعدادها بشرى مشكور ، والفهارس هي :

١ - فهرس الآيات القرآنية .

٢ - فهرس الأحاديث القدسية والنبوية .

٣ - فهرس الأعلام المترجمين .

٤ - فهرس الخلفاء وأئمة المذاهب والملوك والولاة والقضاة.

٥ - فهرس الأنساب والألقاب والصفات .

٦ - فهرس الأقوام والجماعات والأمم والقبائل .

٧ - فهرس البلدان والمدن والمواضع .

٨ - فهرس الكتب الواردة في المتن .

٩ - فهرس الوقائع والحوادث .

١٠- فهرس المصادر والمراجع .

مركز نشر التراث المخطوط :

أما عن المؤسسة التي تصدّت لنشر هذا الكتاب فهي مؤسسة مستقلة تأسست بدعم من وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي الإيرانية عام ١٩٩٤م (في طهران) من أجل إحياء التراث المخطوط ، تحقيقاً ونشراً ، وقد نشرت إلى الآن أكثر من سبعين كتاباً مخطوطاً باللغة الفارسية ، وهناك بعض العناوين العربية التي نشرتها هذه المؤسسة وهي : خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، والجماهر في الجواهر لأبي ريحان البيروني ، وديوان أبي بكر الخوارزمي، والتعريف بطبقات الأمم للقاضي صاعد الأندلسي، وطب الفقراء والمساكين لأبي جعفر أحمد الجزار.

وتقوم المؤسسة من أجل إحياء ونشر الكتب والرسائل المخطوطة بدعم جهود المحققين والباحثين والناشرين في نشر التراث المخطوط في جميع مراحل العمل تحقيقاً وطباعة.

الكتاب في العالم الإسلامي

تحرير : جورج عطية

ترجمة : عبدالستار الحلوجي

عباس عبدالحليم عباس

الجامعة العربية المفتوحة - عمّان - الأردن

الكتاب في العالم الإسلامي (الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في الشرق الأوسط .- تحرير جورج عطية ؛ ترجمة عبدالستار الحلوجي .- الكويت : المجلس الوطني ، ٢٠٠٣م (عالم المعرفة) .

أبرز ما يميز هذا الكتاب هو التقاء عدد من كبار الباحثين والمختصين في عدد من الميادين الثقافية ذات الصلة الوثيقة بالكلمة المكتوبة ، فقد جمعت دفتاه بين أساتذة معروفين في جامعات مرموقة كهارفارد وجورج واشنطن وشيكاغو وغيرها . ممن عرفوا في دوائر الاستشراق باتجاهاته المتنوعة كفرانز روزنتال وآن ماري شيمل وغيرها . ولعل أهم ما يمكن قوله هنا إننا أمام مجموعة من الأبحاث التي قدمت في مؤتمر دولي دعت إليه مكتبة الكونجرس تحت عنوان (الكتاب في العالم الإسلامي) ، وقد بذل المترجم عبدالستار الحلوجي جهداً عظيماً في وضع أوراق هذا المؤتمر بين أيدينا وهي بحد ذاتها فائدة جليلة . وجدير بالذكر أن هذا المؤلف (الكتاب في العالم الإسلامي) من تحرير جورج عطية ، رئيس قسم الشرق الأدنى بمكتبة الكونجرس ، ضمن سلسلة عالم المعرفة ، أكتوبر ٢٠٠٣م .

(من عصر المخطوطات إلى عصر المطبوعات) هو أول فصول هذا الكتاب يوضح فيه محسن مهدي كيف استمر الانتقال من عصر المخطوطات إلى عصر المطبوعات في العالم الإسلامي فترة طويلة ومضطربة ، امتدت قروناً ووضعت أمام من يدرس تاريخ الكتاب ألواناً من المشكلات. وعندما بلغت تلك المرحلة نهايتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت مشكلة جديدة، فقد بدأ العالم الإسلامي ينسى تدريجياً ماذا يعني الاعتماد على النساخين والنسخ المخطوطات في صنع المعرفة ونشرها ونقلها، وتصور أكثر الناس أن الكتب المطبوعة تحظى بقدر من الثقة أكبر بكثير مما تحظى به النسخة أو النسخ المخطوطة المتعددة للكتاب . وهكذا بدأ عصر المخطوطات ينمحي تدريجياً من ذهن الجمهور ، فلم يعد أحد ينسخ مخطوطات كاملة بيده إلا إذا كان يعده للطباعة ، وجاء التصوير الفوتوغرافي ليغني عن عملية النسخ هذه ، ومن ثم تلاشت صناعة النسخ التي استمرت أكثر من ألف عام .

ومن المستحيل - طبعاً - أن نستعرض أو حتى نلمس كل المشكلات التي ثارت خلال فترة الانتقال من عصر المخطوطات إلى عصر الكتب المطبوعة بسبب كثرة ما نجهله عن التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لتلك الفترة . وإذا أردنا أن نكون صورة كاملة عما حدث خلال تلك الفترة الانتقالية ، وأن نعرف العوامل التي أسهمت في انتقال الكتب من صورتها المخطوطة إلى الشكل المطبوع ، فينبغي أن نطرح بعض الأسئلة وأن نحاول الإجابة عنها .

وبداية يعترف الباحث بأن عدة عوامل ثقافية

واجتماعية صاحبت ظاهرة الانتقال من عصر المخطوطات إلى عصر الكتب المطبوعة ، فقد ارتبط انتشار الطباعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ارتباطاً وثيقاً بظهور فكرة القومية بين عدد من الشعوب الإسلامية ، وكما حدث في أوربا من قبل ، أصبح المسلمون أقل قدرة على الكلام أو القراءة بغير لغتهم الوطنية ، وكان عليهم أن يلتمسوا ترجمات من لغات إسلامية أخرى للحفاظ على بعض مظاهر التجانس في العالم الإسلامي .

والسؤال الذي يطرحه مهدي هنا هو : إلى أي مدى غيرت الطباعة نوع الكتب المتاحة للقراءة ، مقارنة بما كان موجوداً قبل ظهور الطباعة ؟ وكيف حدث هذا التغيير ؟ ولماذا ؟ وما هي الكتب التي كانت تطبع ؟ وما حجم التراث القديم الذي أصبح متاحاً بشكل أكبر ؟ وهل يرجع ذلك إلى سهولة إصدار نسخ متعددة للمخطوطات النادرة ، أم إلى سهولة الوصول إلى المكتبات والمجموعات التي كان يتعذر الوصول إليها والاطلاع عليها من قبل ، أم إلى توافر المعلومات عن النسخ المخطوطة عن طريق الطباعة بصفة عامة وفهارس المخطوطات بصفة خاصة ؟

ومن الخطأ أن نظن أن الأساليب العلمية التي كانت تتبع في النسخ في فترة التحول إلى عصر الطباعة في العالم الإسلامي كانت كافية، أو أنها كانت تمارس بالمستوى الرفيع نفسه عند نسخ الكتب بمختلف أنواعها. فإلى جانب النص القرآني والحديث النبوي ، كانت هناك مجالات معينة تستلزم الحرص والدقة في النقل ، ومثال ذلك المخطوطات الفلكية والطبية والرياضية ، فقد كان يمكن للمتخصصين اكتشاف الأخطاء فيها بسهولة . والحكم على المخطوطات بأنها عديمة القيمة . ولذا كان كثير من النساخين في هذه المجالات يتمتعون بقدر لا بأس به من الخبرة، وكانوا ينتجون نسخاً شديدة الشبه بالأصل ، وعلى درجة فائقة من الدقة والضبط والإتقان. أما في المجالات الأخرى كالأدب والتاريخ والجغرافيا، حيث توجد أعداد هائلة من النسخ المخطوطة فلم تكن الحال فيها مثلما في المجالات العلمية .

وثمة جانب آخر يناقشه مهدي هنا وهو جانب الكتاب الإلكتروني إذ ينبغي أن نتذكر أيضاً أنه حتى من دون هذه الثورة التكنولوجية الحديثة، فإن الكتاب المطبوع قد بدأ يفقد بعض سلطانه على الجنس البشري منذ أوائل القرن العشرين، فحتى حوالي سنة ١٩١٤م لم يكن هناك وسيلة اتصال جماهيري بجانب الكتب والكتيبات والنشرات المطبوعة غير الرواة والمنشدين والمعلمين والوعاظ، ولم يكن للراديو والتلفزيون والمسجلات والأفلام وجود ينافس النص المطبوع منافسة حقيقية . ولذا كانت الكلمة المطبوعة تحتل مكان الصدارة ، ولم يكن لها منافسون أقوياء . وعندما كانت تثار قضية مهمة في المجتمع الإسلامي - كالموقف من التدخين - كان الجدل حولها يظهر في شكل كتب وكتيبات ونشرات مطبوعة.

أما فرانز روزنتال فقد نظر إلى عالم الكتاب على أنه (عالم بلا نهاية) موضحاً كيف كان التبرم من تزايد حجم المعرفة يمثل شكوى عامة ، وكانت مشكلة تزايد أعداد الكتب - كأوعية تصب فيها المعارف - أكثر وضوحاً، وذلك لعدة أسباب أولها أن المؤلفين لا يقاومون الرغبة في تأليف المزيد من الكتب وهذا أمر طبيعي، فهم - مثلا - قلما يعترفون بأن أياً من مؤلفاتهم عديمة القديمة أو حتى مضرة، وكان من عادتهم أن يتجنبوا في مقدمات كتبهم ذكر المصادر الكثيرة التي ألفها غيرهم في الموضوع. والسبب الثاني الأكثر أهمية هو الحاجة المتجددة إلى الكتب في بعض البيئات والأقاليم. ففي مساحة بمثل اتساع العالم الإسلامي وتنوعه، لم يكن يمكن تجنب اختلال التوازن في التزود بالكتب. ذلك أن الكتب التي كانت تتوافر بكثرة في مكان ما ، قد لا يعلم بها أو يحصل عليها أبناء إقليم آخر . ونظراً إلى ارتفاع أسعار الكتب، فقد كان على العلماء - عدا قلة منهم - أن يكونوا مكتباتهم عن طريق نسخ الكتب بأنفسهم، ولم يكن

ذلك مقصوراً على بداية اشتغالهم بالعلم وإنما كان يصحبهم طيلة حياتهم . وقليلون هم الذين كان في مقدورهم أن يشتروا (أو يرثوا) الكتب ، أو ينسخها لهم غيرهم مجاملة أو بأسعار معقولة . وكان من النادر أن يكون للعالم زوجة يمكن أن يدربها على عملية النسخ .

أما السبب الثالث لعدم الشكوى من كثرة الكتب فخاص بالحضارة الإسلامية واهتمامها البالغ بالكتب . وقد كان هذا الاهتمام ناشئاً عن الفكرة السائدة عن أهمية الكلمة المنطوقة ، ونحن نعلم أن الحديث النبوي الذي كان يروى مشافهة كان يمثل مركز النشاط العقلي الإسلامي ، وأن الكتب كان ينظر إليها على أنها بدعة ، ولذا لم تظهر إلا بعد سنة ١٢٠هـ / ٧٣٨م بعد وفاة الجيل الأول من صحابة النبي ﷺ وتابعيه . ومع أن العرب كانوا يفتخرون بقوة الذاكرة وبقدرتهم على حفظ كل المعارف ونقلها شفاهة، إلا أن الذاكرة قد بدأت تضعف عند الأجيال التالية ، وأصبح من أسباب الفخر أن يمتلك الفرد أكبر عدد ممكن من الكتب ، وبدأ الاقتناع بأن الكتابة ضرورية للحضارة بغض النظر عن كثرة الكتب أو قلتها . ومع ذلك فقد كان علماء الدين يشكون في أن المعلومة بمجرد تسجيلها كتابة ، تبدأ عملية نسخها إلى ما لا نهاية «كتاباً بعد كتاب بعد كتاب» ، وأن النقل الشفهي كان أكثر انضباطاً ومن ثم أقل فساداً وأعلى ثقة من النصوص المكتوبة . وحتى بالنسبة إلى العلوم غير الدينية ، فقد أتاحت الكثرة المفرطة من الكتب والتصانيف لبعض الجهال أن يطاولوا العلماء ومن ثم هبط مستوى الكتب ، وبدأت تلوح في الأفق مشكلة تضخم أعدادها .

ويأتي بحث سيد حسن نصر الأستاذ بجامعة جورج واشنطن ليربط بين (الرواية الشفهية والكتاب) في العالم الإسلامي ، مبيناً أن الاهتمام بحفظ القرآن أوقد الذاكرة الشعرية والنثرية للشعوب الإسلامية ، وضاعف من أهمية الرواية الشفهية وكان له أثره في تحديد الرواية الشفهية التي تعتمد على الذاكرة وعاء لنقل المعرفة يقف جنباً إلى جنب مع النصوص المدونة في الكتب ، والتي تمثل مختلف المذاهب الفكرية ، وكانت حلقة الوصل بين الأستاذ وطلابه . ولم تكن تلك الكتب مجرد نصوص مكتوبة ولا مجرد حبر على ورق ، وإنما كانت تصاحبها دروس شفهية يلقيها الأستاذ على طلابه فتستوعبها ذاكرتهم . وقد لعبت الرواية الشفهية دوراً مهماً في تحديد الكتب التي تلقى على الطلاب في حلقات الدرس وفي تحديد مكانة الشيوخ الجديرين بالتدريس ، وكانت في الوقت نفسه معياراً يساعد في تمييز تلميذ على آخر على أساس قربه من الشيخ وفهمه لما يقول .

ولقد بين الباحث أن العلماء السالفين يصرون على أن الأعمال الأساسية في الفكر الإسلامي مثل الإشارات والأسفار لا يمكن قراءتها قراءة صحيحة من دون مساعدة ما صاحبها من تراث شفهي، ومن هنا تأتي أهمية تلقي العلم على أحد الشيوخ . ومعنى هذا أن الكلمة المنطوقة هي التي تتيح الفهم الكامل والقراءة الصحيحة للنصوص المكتوبة .

وهذه الظاهرة ليست مقصورة على التراث الإسلامي، فنحن نجدها بصورة أو أخرى في تراث الأمم الأخرى . ولكن المرويات الشفهية والكلمة المنطوقة في الإسلام لعبت وما زالت حتى يومنا دوراً رئيساً ، ومن ثم يجب التأكيد على أهميتها خلافاً لكل الفلسفات التاريخية والوضعية التي تسعى إلى قصر التراث العقلي الإسلامي على النصوص المكتوبة . ومع أن الدراسة التاريخية للنصوص المكتوبة لها مصداقيتها وأهميتها ، إلا أنها لا تمثل الصورة الكاملة والشاملة للتراث العقلي الإسلامي .

وفي الوقت الذي تعرضت فيه الكتب والمخطوطات الإسلامية للتدمير في مناطق مختلفة من العالم، تعرض كثير من التراث الشفهي للفقد أيضاً نتيجة الانصراف عن الطرق

التقليدية لتلقي العلم . ومع أننا مطالبون بأن نسجل للأجيال التالية، بل للجيل الحالي أفكارنا التي كانت تنتقل في الماضي مشافهة من شخص إلى آخر، إلا أننا حين نفعل ذلك يجب ألا نغفل أهمية الكلمة المنطوقة في التعليم على مدى التاريخ الإسلامي كجزء مكمل للنصوص المكتوبة. وحتى في أيامنا هذه.

وبحثت المستشرقة الألمانية أن ماري شيمل في بحث مستقل موضوع (التورية بالكتب في الآداب الإسلامية) منطلقة من أن الاستخدامات المجازية للكتاب تلعب دوراً رئيساً في الشعر الإسلامي كتشبيه الوجه ، ويمكن أن نجد التشبيهات بالكتب عند كل الأمم ، فالشاعر البغدادي القديم لم ير في الحديقة والزهور كتاباً فحسب، ولكنه اكتشف كتاباً مسطوراً في جلد حية رقطاء، والشاعر الفارسي القديم أخستكي يتحدث عن «كتاب الفقر» ، ويذكر جلال الدين الرومي «مكتبة احتياجاتي» التي يفترض أن يدرسها المحبوب . وعندما يقول سنائي :

ما أكثر ما قرأت في كتاب المحبين

ولكنني في الحب ما زلت مبتدئاً يتعلم حروف الهجاء.

فإنه يشير إلى أن الحب الحقيقي لا يمكن فهمه بدراسة الكتب التي تتحدث عنه ، وأن على الإنسان أن يعيش في كل مرة تجربة جديدة ومعاناة جديدة . وهذه الفكرة يعبر عنها نظيري (المتوفى ١٦١٢م) أعظم شعراء الهند في العصر المغولي فيقول :

كتب كثيرة ونسخ متعددة من تحكي قصة «الحب»

ولكن عندما تعيش القصة الحقيقية

فلن تحتاج إلى قراءة أي صفحة بعد ذلك .

ولكن جامي ينظر إلى الموضوع نظرة مختلفة إلى حد ما ، فقد قرر أن يقلع عن الحب ، ولكن «خط» الحبيب أوقعه في الغرام من جديد . يقول :

لقد حكمت العقل فغسلت كتاب الحب

ولكن «خطك» أعادني إلى درس «أبجد».

وفي بحث طريف عن (معاجم التراجم : تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية) تذهب وداد القاضي إلى إيضاح الأهمية الكبيرة لهذا النمط من الكتب ، ونظراً إلى أهمية هذا النوع من التأليف، فقد تناوله عدد كبير من الدراسات، بعضها عرض موجز أو مفصل للإنتاج الفكري، وبعضها الآخر دراسات تحليلية . وهذه الفئة الأخيرة تناقش قضايا مثل الدوافع لتأليف معاجم التراجم، وبدايات هذه المعاجم ، وأصولها ، ومصادرها، وتنظيمها والمعايير التي طبقها مؤلفوها وعناصر الترجمة فيها وغير ذلك . وقليل من تلك الدراسات هو الذي تجرأ على الكتاب بالتفصيل عن تطور هذا النوع من المؤلفات ، وأقل منه من حاول أن يوضح العلاقة بين هذا التطور ومراحل تطور المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية عبر العصور، مع أنها من المسلمات فقد ظلت هذه الجوانب من دراسة معاجم التراجم غائبة تقريباً . وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات الجيدة عن هذا النوع من التأليف ، إلا أنها لا تربطه بالتطورات الاجتماعية والثقافية .

وتلك النقطة الأخيرة هي التي تحاول هذه الدراسة أن تستقصيها من منطلق أن معاجم التراجم هي في الحقيقة مرآة تنعكس عليها بعض المظاهر المهمة للتطور الفكري والثقافي للمجتمع الإسلامي في القرون التسعة الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية على أقل تقدير . تحاول دراسة وداد القاضي أن تلقي الضوء على تلك الجوانب من خلال التركيز على أسلوب التنظيم الداخلي للكتب التي ألفت خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام .

وتلاحظ الباحثة أن معاجم التراجم لم تظهر إلا عندما بدأت تتضح معالم الحضارة الإسلامية ومقوماتها ، وأول هذه المقومات أنها حضارة تقوم أساساً على الدين ، وتعتمد على اللغة العربية والشعر العربي ، ومع أنها تمثلت التراث العربي قبل الإسلام ، واعتبرت نفسها وريثاً للتراث

الديني من خلال كتاب وصلنا في التراجم ، وهو طبقات ابن سعد الذي يبدأ بسيرة النبي ﷺ وتشغل ربع حجم الكتاب بأجزائه المتعددة . وإذا كان النبي ﷺ يمثل الرمز الأساس والمثل الأعلى لهذه الحضارة الجديدة ، فهناك آخرون أسهموا في بنائها وقدموا بسيرتهم وسلوكهم ومواقفهم النموذج والقدوة للمجتمع الجديد . وقد اختيرت تلك الرموز - قبل كل شيء - على أساس قربها الزمني من مصدر الدعوة الجديدة ، ولذا طبق معيار «السابقة» في القسم الأول والأساس من الكتاب . أما القسم الثاني الذي بني على أساس المكان فقد ارتبط أيضاً بتطور الدولة الجديدة واتساعها بعد الفتوح لتشمل مناطق شاسعة ، تمتد من مصر غرباً إلى خراسان شرقاً .

ولقد تتابع ظهور معاجم التراجم ، ومضت تجنح نحو التخصص الذي يعكس هوية الفِرق الإسلامية داخل المجتمع . ولم يكن هذا التخصص واضحاً عندما ألف ابن سعد كتابه، ولكن بحلول الجيل التالي ، جيل أحمد بن حنبل، أصبح رواة الحديث يمثلون فئة متخصصة لها ثقلها. ولذا شهد هذا الجيل ظهور سلسلة من معاجم التراجم المحدثين ، وبعد ذلك بوقت قصير ظهر الفقهاء كجماعة متخصصة . ولكن معاجم التراجم التي تناولتهم لم تظهر إلا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

وفي مجال مختلف يعالج رمزي بعلبكي قضية (الكتاب في التراث النحوي) منطلقاً من أن كتاب سيبويه يمثل مركز الدائرة في تاريخ المؤلفات النحوية . ولذا فإن أية دراسة في التراث النحوي لا بد أن تتخذ من الكتاب نقطة انطلاق لها ، لأنه المرتكز الأساس في تاريخ التأليف النحوي ، ولقد مر هذا التأليف بثلاث مراحل هي :

١ - عصر ما قبل سيبويه ، ونعني به المحاولات الأولى التي سبقت التأليف النحوي وأدت إليه .

٢ - كتاب سيبويه ، وما يمثله من نظريات ومناهج نحوية .

٣ - ما بعد سيبويه ، ويعني به الباحث التحرر من أساليب التحليل النحوي التي وضعها سيبويه . وأشهر نحاة هذه المرحلة هو «المبرد» .

وقد يبدو هذا التقسيم مبسطاً شديداً، ولكنه يمثل تطور التأليف النحوي تمثيلاً دقيقاً. فمن المؤسف أننا بعد سيبويه لا نكاد نجد عملاً يتسم بالأصالة، يقول الباحث، غير أن هذا غير دقيق، إذ لم يأخذ البعلبكي محاولات التجديد اللاحقة بعين النظر، ولذا فإنه يعد الفترة التي تلت سيبويه مرحلة واحدة .

وبعد دراسة المرحلة التي أدت إلى ظهور أول كتاب نحوي ، يرصد الباحث تطور الكتب النحوية وأساليبها ، وذلك بمقارنة كتاب سيبويه بمؤلفات النحاة المتأخرين ، بناء على أن النحاة الذين أتوا بعد سيبويه يمكن أن يصنفوا في مجموعة واحدة على أساس أنه ابتدأ من القرن الثالث وما تلاه ، وكان هناك اتجاه مطرد للابتعاد عن بعض العناصر الأساسية التي تكوّن منهج سيبويه وطريقته ، وقد نتج عن ذلك تغير جوهري في النظرة إلى الموضوعات التي ينبغي أن يتضمنها كتاب النحو والهدف من تأليفه . وعلى الرغم من الحاجة إلى دراسة مفصلة لتتبع هذا التطور في مظاهره المختلفة .

ويؤكد البعلبكي هنا على أن سيبويه قد وضع الملامح الرئيسة لأي كتاب في النحو ، وأن الفرق بينه وبين المؤلفين المتأخرين ينحصر في بعض أساليب الإعراب ، أما الملامح الأخرى وأهمها الملامح العامة فلم يطرأ عليها أي تغيير . وهذه الملامح العامة ينبغي ألا تتوه وسط التفاصيل الكثيرة.

وفي بحثه (الرسوم التوضيحية في المخطوطات العلمية والإسلامية وبعض أسرارها) يعرض ديفيد كنج أستاذ التاريخ بجامعة جوته العديد من أنواع الرسوم والخرائط وأنماطها مما أورده العرب القدماء في مخطوطاتهم كالرسوم الفلكية، وخرائط القبلة وأشكال جغرافية ، وأماكن مقدسة، وأشكال توضح أساليب من المعمار القديم في التهوية والتصميم ليصل

إلى أن المخطوطات العلمية الإسلامية قد تضمنت عدداً كبيراً من الأشكال التوضيحية التي يمكن أن تزيد من فهمنا لجوانب متعددة للعالم الإسلامي، بل وللمؤسسات الإسلامية، ولكننا ينبغي ألا نعتمد على تلك الأشكال وحدها، خاصة إذا صاحبتها نصوص توضحها . وما زلنا نفتقر إلى النسخ الأصلية من المخطوطات المهمة، وما زلنا في حاجة إلى دراسات مقارنة للنصوص التي توضحها الأشكال والرسوم . وحينما نقارن بين ما وصلنا من نماذج الجغرافية الدينية الموجودة في المخطوطات الشهيرة التي صدرت منها طبعات غير محققة (مثل كتب القزويني وياقوت الحموي وابن الوردي) يتبين لنا مدى الحاجة الماسة إلى تلك الدراسة .

وعند نشر مخطوطات أصلية بطريقة التصوير ينبغي الالتزام بضوابط شديدة. وإلا أصبح نشرها عديم الفائدة . فالتلاعب بالألفاظ التي التهمتها الأرضة ، وإخفاء الأرقام الأصلية للأوراق، وإعادة ترتيب تلك الأوراق بلا تعليق، وإدماج أجزاء من نسخ مختلفة للكتاب نفسه من دون الإشارة إلى ذلك، كل هذه أمور تتنافى مع أبسط المعايير العلمية للنشر. ولكن ذلك – للأسف – هو السائد في سلاسل المخطوطات التي نشرت أصولها في السنوات الأخيرة في فرانكفورت على يد أحد كبار المختصين في المخطوطات العربية .

ولتلك السلاسل مشكلات أخرى كما يرى كنج ، لعل أهمها التدخل برسوم توضيحية . واكتفى هنا بذكر مثالين أولهما: أن أشكال الأبراج السماوية والكواكب في مخطوطات قديمة من كتاب صور الكواكب للصوفي قد غيرت، والنتيجة الطبيعية لذلك أن تلك الأشكال أصبحت تناسب رواد مقهى أكثر مما تناسب مؤرخي الفنون الذين يجب عليهم أن يرجعوا إلى المخطوط الأصلي بحثاً عما به من رسوم توضيحية. والمثال الثاني خاص بشكل تضمنه مخطوط في الجغرافيا الدينية بإسطنبول، وهو الجزء الثاني من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، وهو يرجع إلى العصر المملوكي، أي أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، وفيه كتبت الآية ٩٧ من سورة آل عمران ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ بماء الذهب على رسم للكعبة . ولكن الناشر الحديث الذي رتب الصور المختارة من المخطوطات لتطبع في سلسلة مخطوطات فرانكفورت محا هذه العبارة ووضع مكانها عبارة أخرى أوضح وكتب «أمين» بألفين في أولها . وهذا يدلل على الحاجة إلى القول بأن الرسوم التوضيحية في مخطوطات القرون الوسطى ينبغي أن تحترم .

أما جيوفري روبر فقد اختار بحث (فارس الشدياق والانتقال من ثقافة النسخ إلى ثقافة الطباعة في الشرق الأوسط) مبيناً أن هذا العلم كان نتاجاً لثقافة النسخ القديمة ، لا بالمعنى الضمني فحسب ، وإنما كممارس لها وخبير بها . ولد في لبنان في العقد الأول من القرن التاسع عشر من عائلة مارونية طالما خرج منها نساخ ورجال دين ومعلمون لأبناء الطبقة الإقطاعية ، ونشأ في بيئة أدبية ، فقد كان لأبيه مكتبة حفلت بالكتب في مختلف الموضوعات، واطلع عليها فارس في صباه ، وأعجب بما فيها من كتب الأدب والشعر. وكانت هذه المكتبة كلها مخطوطة. فمع أن الطباعة كانت قد دخلت لبنان في عام ١٧٣٤م، ومع أن الكتب العربية المطبوعة كانت تستورد من أوربا منذ القرن السادس عشر، إلا أن هذه الكتب المطبوعة كانت كلها في الديانة المسيحية والطقوس الدينية، وكانت تطبع بأعداد قليلة لاستخدام الكهنة، أما الكتب الأدبية والتعليمية فكانت كلها مخطوطة.

وكان طبيعياً أن يسير فارس على منوال عائلته وأن يشتغل منذ صباه بالنسخ ، فكلف بنسخ سجلات الأمير حيدر الشهابي وحولياته عندما كان هذا الأخير يكتب تاريخاً للبنان والدول المجاورة ، كما نسخ كتباً أخرى مسيحية باللغتين العربية والسريانية ما زال بعضها موجوداً في مكتبات كنسية وخاصة في لبنان .

وقد حرص الشدياق على مستوى عال من الدقة

والجمال فيما ينسخ من كتب . فنراه - فيما بعد - يركز على ضرورة استخدام الأدوات المناسبة للكتابة العربية . وقد كان الشدياق على اقتناع بأن السبيل إلى إحياء الأدب العربي والثقافة والعربية هو تجاوز أساليب النسخ القديمة، رغم إجلاله لها وكونه جزءاً منها، والبحث عن أساليب جديدة لنقل النصوص وحفظها سواء في ذلك النصوص القديمة أو المؤلفات الحديثة . ومن حسن الحظ أن ظروف حياته وعمله قد أتاحت له أن يعرف أن هذه الأساليب قد أصبحت متاحة، وأنها يجب أن تطبق على نطاق واسع لخدمة التعليم والأدب العربيين . فمنذ ترك موطنه الأصلي في عام ١٨٢٦م ارتبط عمله باستخدام المطبعة واعتمد عليها؛ ففي بداية حياته الوظيفية ، كانت الطباعة في البلاد العربية والإسلامية بمنطقة الشرق الأوسط بدعة مشكوكاً فيها، ولكن عند وفاته بعد ذلك بستين عاماً كانت قد أصبحت الأداة الطبيعية والمعترف بها لإنتاج النصوص العربية ونقلها .

وكانت أول مطبعة ارتبط بها الشدياق هي تلك التي كانت تديرها الجمعية التبشيرية للكنيسة الإنجليزية في مالطة ، فقد عمل بها ثمانية عشر شهراً من عامي ١٨٢٧ و١٨٢٨م مساعداً في تجهيز النصوص الدينية المسيحية- المتمثلة في شرح أمثال المسيح وترجمة بعض المزامير ونظمها لطباعتها وتوزيعها في لبنان ومصر بصفة أساسية. ولكن اعتلال صحته دفعه إلى أن يترك مالطة ويتجه إلى مصر حيث قضى بها سبع سنوات عمل خلالها لفترة قصيرة في أول صحيفة عربية تصدر وهي «الوقائع المصرية» وهكذا كان أحد العرب الأوائل الذين مارسوا مهنة الصحافة إن لم يكن أولهم على الإطلاق .

وبعد الحديث عن الشدياق يختار جورج عطية لبنان ومصر نموذجين (للكتاب في العالم العربي الحديث) من خلال إدراكه للسمات المشتركة التي أتاحت لهما التفوق على بقية الدول العربية ، فقد كان لكل منها اتصال مبكر ومستمر بالغرب ، وخلال الحكم العثماني مارسا نوعاً من الحرية بسبب غياب السلطة العثمانية أو تراخيها . ولم تلبث القبضة العثمانية التي بدأت في عام ١٥١٦م - في الوقت نفسه تقريباً الذي طبع فيه أول كتاب عربي في فانو بإيطاليا سنة ١٥١٤م - لم تلبث أن ضعفت عندما قبض محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) على زمام الأمور في مصر سنة ١٨٠٥م، وعندما حصل لبنان على نوع الحكم الذاتي في عهد بشير الثاني (١٧٨٩ - ١٨٤٠م) وقد زادت سلطة هذا الحكم الذاتي في عهد المتصرفية (١٨٦٤ - ١٩١٤م) ونال اللبنانيون مزيداً من الحرية في تصريف أمورهم .

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان في بيروت وغيرها من المدن اللبنانية أكثر من عشرين مطبعة ، إضافة إلى المطبعتين الأمريكية والكاثوليكية . وقد أصدرت تلك المطابع عدة ألوف من الكتب في جميع فروع المعرفة البشرية . ومن الناحية الموضوعية شهدت نهاية القرن تفوق العلوم الإنسانية على الموضوعات الدينية ، وهو تحول لافت للانتباه . فقد نشرت كتب في المنطق والفلسفة والأدب والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا ، إلى جانب كتب العقيدة والقراءات ، والطقوس الدينية والأخلاق ، والأدب الشعبي، والأشكال الأدبية الجديدة من قصص ومسرحيات.

وعلى خلاف ما حدث في الدول العربية الأخرى، لم يرتبط نمو صناعة الكتاب وتطور الطباعة في لبنان بالحكومة، وإنما ارتبط بالأفراد والمؤسسات، واستطاع اللبنانيون أن يبدعوا أشكالاً جديدة للحروف، وأن يرتفعوا بمستوى الكتب والطباعة بصفة عامة، وإن لم يتحقق فيها مستوى عالٍ من التكشيف والحواشي، وترتيب المحتويات، وتجنب الأخطاء الطباعية .

لعل أبرز الأحداث في تاريخ مصر الحديث : الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م ، وولاية محمد علي سنة ١٨٠٥م ، والاحتلال البريطاني، والثورة العُرابية سنة ١٨٨٢م، وثورة سنة ١٩١٩م، ومقاومة الاحتلال، وثورة يوليو سنة ١٩٥٢م، ومعاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩م . وقد كان لكل واحد من هذه الأحداث تأثير كبير على الكتاب في مصر .

الكتب العربية النادرة

دراسة في المفهوم والشكل لعلي بن سليمان الصوينع

عبدالله بن محمد المنيف

مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض

الصوينع ، علي بن سليمان / الكتب العربية النادرة : دراسة في المفهوم والشكل -- الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م -- ٢١٧ص .

أول كتاب في المملكة العربية السعودية يطبع على ورق مستديم

يعد التأليف والتصنيف من المجالات الجديرة بالقراءة ، فما بالك في التعرض والتأليف في مجالات لم يكن يسيراً الخوض فيها أو تناولها لدى القراء العرب .

وما سوف نعرض له هنا في هذا العرض المطول لهذا الكتاب الذي وفق واضعه في اختيار التصنيف فيه دليل على إعجابنا بهذا العمل ، ولقد كان عمل مؤلفه أميناً لمكتبة الملك فهد الوطنية التي تعد رائدة من رواد نشر الفكر والتراث المكتبي بمفهومه الواسع والشامل ، لأن الكتاب في المكتبة يخضع لمواصفات ليست عملية النشر بشكلها البسيط من أهدافها ، بل إن الهدف الأسمى في عملية النشر أن يكون ما ينشر ذا مواصفات عالية شكلاً ومضموناً ، فأما المضمون فلا خلاف في أن كل كتاب يطبع في المكتبة لا بد أن يعرض على محكمين اثنين ، وأما الشكل فهو المنهج الذي تعد المكتبة رائدة فيه إذ يعد هذا الكتاب الذي نحن بصدد التعريف به من الكتب التي طبعت على ورق ذي مواصفات خاصة يعرف بالورق المستديم ، وهو الورق الخالي من الأحماض وطويل العمر . وبهذا يعد أول كتاب سعودي يطبع بهذه المواصفات .

ويقع الكتاب في ٢١٧ ورقة ، طبع منه ألفا نسخة ، خمسمائة منها على ورق مستديم ، لونه كريمي ، والبقية على ورق أبيض عادي .

وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة فصول ، الأول منها سبق بإهداء ، ثم مقدمة وكان عنوان هذا الفصل : المنهج ومفهوم الندرة . وقسم إلى أربعة محاور ، الأول : منهج الدراسة ، والثاني : نوادر الكتب ، والثالث : جمع الكتب ، والرابع : مقولات حول نوادر الكتب . وقد بلغ هذا الفصل ٣٠ صفحة ، أبان فيها المؤلف كثيراً من الدراسات التي تجعل من الكتاب كتاباً نادراً ، ثم انفرد الباحث بنقاط ثمانية جعلها خصائص للندرة أو الكتاب النادر ، وهذه النقاط مختصرة :

١ - التقادم . ٢ - التميز والتفرد. ٣ - الشكل .
٤ - الوعاء . ٥ - سيرة الكتاب . ٦ - التكامل.
٧ - الأصالة . ٨ - مضمون الكتاب .

وقد فاته ، فيما أزعم، أن مقياس الندرة أيضاً ينطبق على الكتب التي يرد فيها أخطاء إخراجية في الغلاف أو في العنوان أو في ترتيب المحتوى ، على أن يتم تداركه قبل انتشاره بحيث يعالج ذلك الخطأ . ويستدرك ، وهذه

الظاهرة أيضاً موجودة عند المهتمين بجمع المسكوكات المعدنية والورقية على حد سواء، وكذلك هواة جمع الطوابع، لهذا لا نستبعد طباعة الكتب منهم.

وبعد جمع هذه النقاط التي ذكرها المؤلف مع النقاط التي أشار إليها جون كارتر، مضافاً إليها النقاط الأربع التي ذكرها سريع السريع نخلص إلى مجموعة من المعايير تعد في مجملها أساسات التعرف إلى الكتاب النادر في كل مكان.

أما الفصل الثاني فجعل له عنواناً هو: خصائص الكتب النادرة. أجملها المؤلف في ست نقاط جعل الأول منها: الطبعة الأولى، وهو ما أشار إليه في حديثه في الفصل الأول تحت عنوان التقادم، ص٢٠، والتقادم كما عرفه المؤلف هو: الأسبقية في تاريخ الطباعة والنشر بين الكتب العربية أو الأسبقية بين طبعات الكتاب الواحد. أي أن المقصود هو الطبعة الأولى. فلو أن المؤلف وحد المصطلح لكان أولى، وقد استعرض المؤلف خلال هذه الفقرة نماذج كثيرة من المطبوعات العربية النادرة بادئاً بأول كتاب طبع في مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨هـ، وهو قاموس إطالياني عربي. حيث تناوله وصفاً مبدياً ميزاته وأسباب ندرته بشكل مفصل. ثم سرد بعد ذلك نماذج أخرى متعددة يحسن الاطلاع عليها في مكانها.

أما الفقرة الثانية فكانت تحت عنوان: غرائب الكتب، وأشار المؤلف إلى أن هذه الغرابة المقصودة هنا في خروجها عن المألوف في التأليف، سواء كانت الغرابة في الموضوعات والمنهج أو في شكل الكتاب وصناعته، وأورد المؤلف نماذج من تلك الكتب الغريبة فبدأ بكتاب: الدر المكنوز والسر المغروز في الدلائل والخبايا والدفائن والكنوز، ثم أورد من نماذج الغرابة أيضاً العناوين المسجوعة، وإن كنت لا أرى أن هذا يدخل في باب الغرابة لأن العنوان قد يساق إليه المؤلف سوقاً، إما تقليداً للعصر الذي عاش فيه المؤلف، أو لإبراز قدرته في صياغة العناوين، ولعل هذا يرد في غالب مؤلفات الإمام السيوطي رحمه الله تعالى.

أما الفقرة الثالثة: فكانت عن التعليقات على الكتب، وهذه الفقرة أشار إليها المؤلف على أنها من خصائص الندرة التي اجتهد في وضعها في ص٢١، وهي من مقومات الندرة أو ميزاتها وإن كانت ندرتها خاصة أو محلية، لأن تعليقات عبدالسلام هارون مثلاً، قد لا تكون مفيدة لغير من يعرفه ويقدر قيمته لهذا فإن هذه الفقرة أشار إليها المؤلف في النقاط التي اجتهد وجعلها خصائص الندرة وجعل رقمها خامساً، تحت عنوان: سيرة الكتاب. التي تضمنت مفردات كثيرة.

أما الفقرة الرابعة من خصائص الكتب النادرة، فهي: الكتب المهداة، وهذه الفقرة تدخل ضمناً ضمن النقاط الثماني التي أشار إليها المؤلف في ص٢١، تحت خامساً، كسابقتها، أي أنها تدخل ضمن فقرة سيرة الكتاب، وهي بهذا تكون أفضل لو أن المؤلف ضمنها تحت نقطة واحدة كما وصفها أول الأمر تحت سيرة الكتاب لا أن يفردها لوحدها.

أما الفقرة الخامسة من هذا الفصل فكانت بعنوان: الطبعات الخاصة، وهي بالتالي تعني ما أشار إليه المؤلف من قبل، في ص٢٠، وأعطاها رقم (٣) وعرفها بأنها، الشكل، ويشمل صناعة مادة الكتاب وتميزه في الطباعة والتجليد والتزويق الداخلي والخارجي. وبهذا فإن معنى النقطتين واحد ودلالتهما واحدة أيضاً، إنما الذي اختلف هو العنوان، فكان جميلاً لو وحد ذلك العنوان بحيث لا يظهر الاختلاف في منهج بيان الندرة في كتاب واحد لمؤلف واحد.

أما النقطة السادسة والأخيرة فقد أشار إليها المؤلف على أنها : القيمة الفكرية للكتاب ، وهي تقابل من خصائص الندرة كما ذكرت في ص ٢١ النقطة الثامنة وهي: مضمون الكتاب ، ويشمل ذلك القيمة المعلوماتية أو القرائية والطرافة أو الغرابة في محتوى الكتاب ، فيما لا يكون له نظائر في محتواه . وبقراءة التعريفين السابقين نجد أنهما يهدفان إلى شيء واحد ، هو المحتوى ، أي مادة الكتاب وما يحمله من أفكار وما يتضمنه من معلومات .

أما الفصل الثالث ، فكان عنوانه : الاقتناء والتقييم ، وقسم إلى أربع نقاط ، الأولى : التخصص في الاقتناء ، والثانية : شراء الكتب النادرة ، والثالثة : الحالة المادية للكتاب . والرابعة : المصادر الببليوجرافية . وبهذا ينتهي هذا الفصل ، وقد أجاد الباحث في هذا الفصل أجادة مشهودة ، إلا أنه في الجزء الرابع منه والمعني بالمصادر الببليوجرافية فاته شيء كثير ، كان الأولى به أن يحيل إلى تلك المصادر الببليوجرافية في قائمة مراجعة أو إلى من سبقه في محاولة حصر مثل هذه المصادر كعبدالله عسيلان في كتابه تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل ، الذي طبعته مكتبة الملك فهد الوطنية عام ١٤١٥هـ.

أما الجزء الأخير من الكتاب والذي ختم به المؤلف كتابه فكان مسرداً للمصطلحات الفنية المتعلقة بالكتاب في جميع مراحله ، وقد بلغت هذه المصطلحات ٦٤ مفردة ، ذكر كل مفردة وشرحها شرحاً مختصراً وتعريفياً يغني عن الإحالة ، وقد رتبت هذه المصطلحات ترتيباً ألفبائياً .

ويلاحظ على هذا الجزء أن المؤلف عندما عرف رمز الديمومة في المصطلحات أشار إلى أنه : شعار صغير في شكل حلقتين متداخلتين داخل دائرة صغيرة ، إلا أن الناظر إلى ما وضع فعلاً خلف النسخة من هذا الكتاب والذي طبع على ورق مستديم ، يجد أن الوصف مختلف ، وهل هذا الاختلاف في التعريف أو تقصير من المطبعة التي لم تجد طباعة هذا الشعار ، إذ إن الملاحظ أن تلك العلامة كانت على هيئة : دائرتين أو حلقتين متماسكتين في إطارهما ، تحيط بهما مجتمعتين حلقة أكبر منهما بيضاوية الشكل تماماً . على خلاف ما ورد في التعريف السابق .

وبهذا ينتهي الكتاب بعد أن يورد المؤلف قائمة بالمراجع التي اعتمد عليها في هذه الدراسة الممتعة .

ثم يختم الكتاب بكشاف شامل للمؤلفين والعناوين والموضوعات مما سهل معه سرعة الوصول إلى المعلومات المرادة بشكل دقيق . ثم يختم المؤلف كتابه بنص كان لتقليب المؤلفات القديمة دور فيه ، فاتخذه خاتمة لكتابه كعادة المتقدمين وهو : "وقد تم طبع هذا الكتاب المستطاب، بعون الملك الوهاب ، المحتوي على ما صفا وطاب في وصف نوادر الكتاب . قال مؤلفه علي بن سليمان العلي الصوينع ، وفقه الله وجزاه خيراً : سميته (الكتب العربية النادرة) ، وفرغت من مراجعته يوم السبت أواسط شهر ذي الحجة ، ختام سنة إحدى عشرين وأربعمائة وألف هجرية ، ١٤٢١/١٢/١٥هـ ، والحمدلله أولاً وآخراً". ومع ذلك فإن الكتاب بعد قراءته يُعد من الكتب النادرة على الأقل في المصادر العربية التي تناولت مثل هذا الموضوع ، وليس لهذه الملاحظات التي عنت للمراجع أن تنقص العمل أو تدعو إلى عدم قراءته بل إنني قد أعدها مما يشجع الباحثين على قراءته ، لأنها لا تعدو أن تكون ملاحظات شخصية أملتها علي صفة الزمالة ، وحب إبداء الرأي للباحث نظير إهدائه لي على شرط عرضه ومراجعته ، فليس يلام من اجتهد ، والله تعالى الموفق والهادي والحمدلله تعالى أولاً وآخراً .